الخلفاء الراشدون

القادة الأوفياء وأعظم الخلفاء

أبو بكر الصديق

عمر بن الخطاب

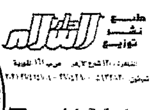
عثمان بن عفان

علي بن أبي طالب

فضيلة الشيخ/ حسن أيوب

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة




دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
تأسست سنة
١٩٧٣ م

Dar Al Salam
PRINTING.PUBLICATION
& DISTRIBUTION

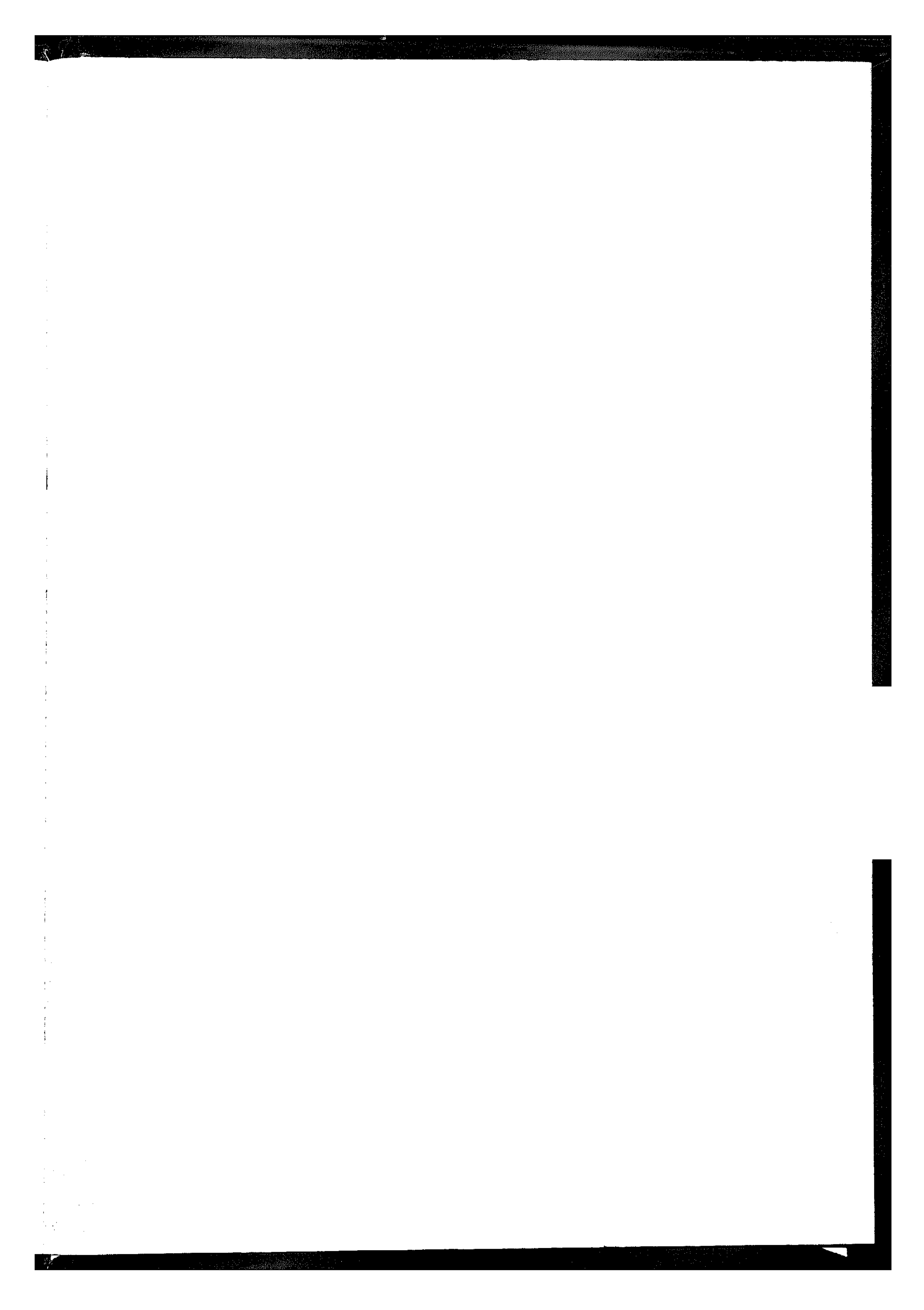
120 Al Azhar St. P.o Box: 161 El Ghoriah
Tel.: (202) 2741578 - 2704280 - 5932820

طبع نشر توزيع
دار السلام

القاهرة: ١٢٠ شارع الأزهر ص.ب ١٦١ الغورية
تليفون: ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ - ٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢)

جائزة
أفضل ناشر
للتراث

Dar Al Salam PRINTING PUBLICATION & DISTRIBUTION



الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
القاهرة - مصر ١٢٠ شارع الأزهر ص ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي : ١١٦٣٩
هاتف ٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٧٤١٥٧٨ - ٢٧٠٤٢٨٠ (٢٠٢ +) فاكس ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
http://www.dar-alsalam.com e-mail: info@dar-alsalam.com

الخلفاء الراشدون

القادة الأوفياء وأعظم الخلفاء

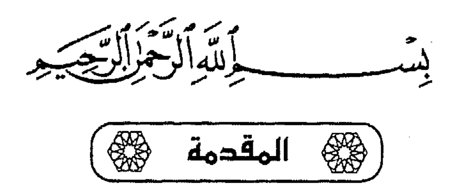
أبو بكر - عمر - عثمان - علي

تأليف

فضيلة الشيخ / حسن أيوب

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



المقدمة

الحمد للَّه الذي أرسل رسوله محمدًا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المجرمون .

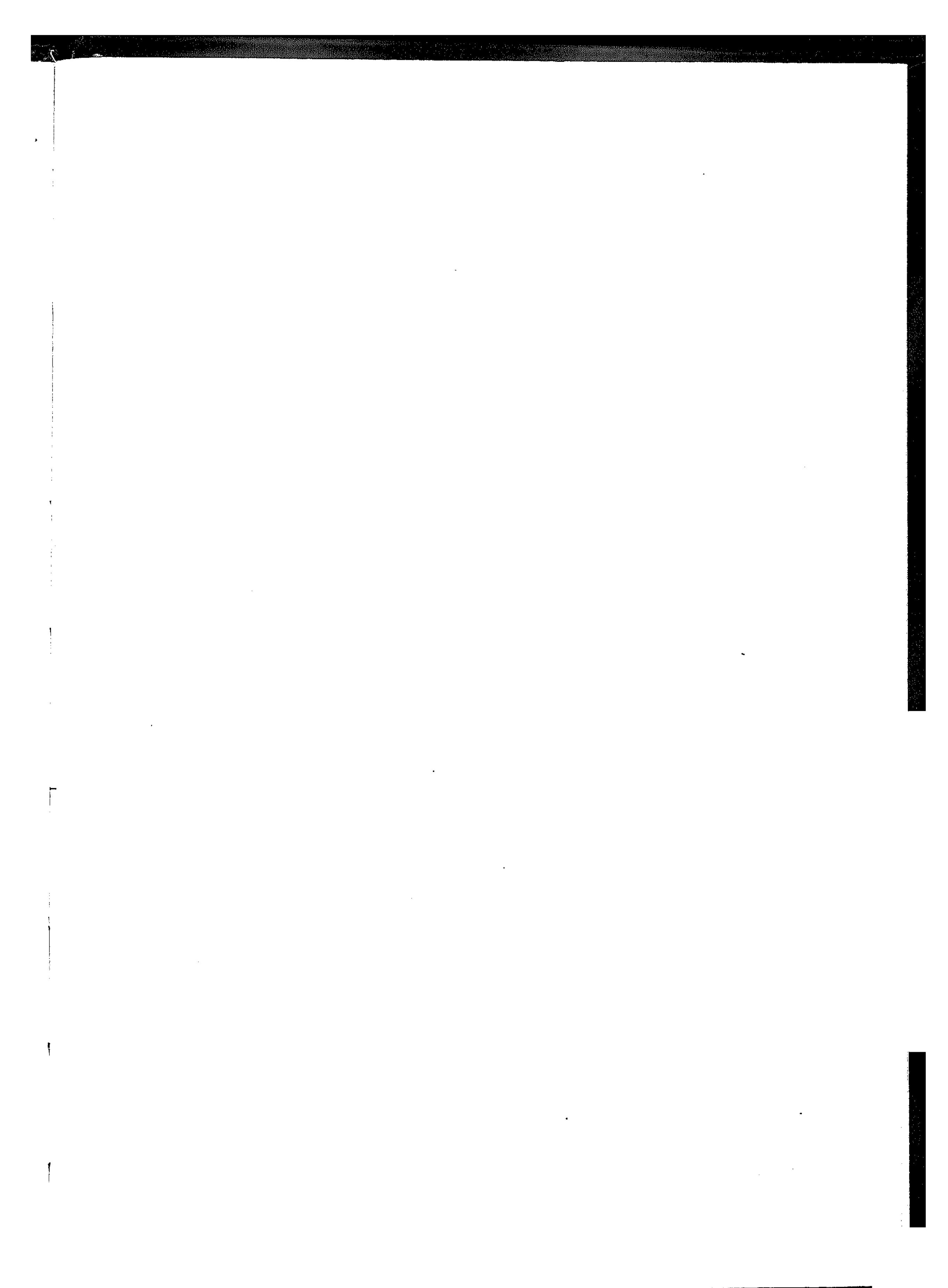
وأشهد أن لا إله إلا اللَّه الذي أحيا قلوب المؤمنين بالإيمان والقرآن وجعل منهم أئمة يهدون بأمره لما صبروا وكانوا بآياته يوقنون .

وأشهد أن محمدًا عبد اللَّه ورسوله ، وصفيه وخليله ، وحبيبه وأمينه ، بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وصان العهد ، وجاهد في اللَّه حق جهاده حتى أتاه اليقين اللهم صلِّ وسلم عليه ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد :

فهذا كتاب جامع لسير وأخلاق وأعمال وأفضال خير نخبة مشت على الأرض بعد الأنبياء والمرسلين ، وأجمعت الأمة على تسميتهم بالخلفاء الراشدين ، وأثنى اللَّه عليهم في كتابه الكريم ، وشهد لهم بالمكانة الممتازة ، والقيادة الحكيمة ، والمكانة السامية خير الأنبياء والمرسلين ، وهم أبو بكر الصديق ، وعمر الفاروق ، وعثمان ذو النورين ، وعلي الذي اختاره الرسول أخًا له في اللَّه رضي اللَّه عنهم وعن جميع الصحابة والتابعين لهم وخيار المؤمنين .

وأنا أعلم أن كل مسلم في عصرنا هذا يحب أن يعلم كيف سارت سفينة الأمة الإسلامية بقيادة هؤلاء الأربعة ومن شابههم بعد موت رسول اللَّه ﷺ ، وانقطاع الوحي واكتمال الدين ؟ وكيف استطاع هؤلاء الأئمة الخلفاء ، والحكام الورعون الأتقياء ، أن يكملوا المسيرة بعد موت رسول اللَّه ﷺ ، وأن يحافظوا على العهد ، وأن ينطلقوا في جنبات الأرض يرفعون لواء الحق والعدل والرحمة والخير والأمن ، وأن يكتسحوا الظلام والظلم والخيانة والغدر والاستعباد والكفر من كل بقعة مشت عليها ركائبهم ؟ ونادى في ربوعها مؤذنهم ، يعلن اسم اللَّه ، ويمحو أسماء كل معبود سواه ، وسطعت في الأرض أنوار الحق ، وانقشعت ظلمات الباطل ، واتصلت الأرض بالسماء ، وهتف الهاتفون قائلين : الآن وجد الإنسان كرامته ، ونال كل مستعبد حريته ، وعرف الجميع الطريق إلى حياة سعيدة ، مليئة بالأمن والعدل والحب والإخاء والرحمة ، فرضي اللَّه عن هؤلاء وأمثالهم ، ووفقنا اللَّه لكي نعمل مثل أعمالهم ، مهتدين بكتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ .

حسن أيوب



الصديق أبو بكر رضي الله عنه

الأحداث الجسام ليس لها إلا عظماء الرجال ، وعظمة الإنسان في صفاته النبيلة وأخلاقه الكريمة وعزيمته الصادقة ورؤيته البعيدة وشفافية روحه ، وثبات جنانه ، وصلابة معدنه أمام الأحداث الجسام ، والأهوال المفزعة ، والعواصف المدمرة .

وعلى مدى التاريخ الإنساني كله تجد رجالًا ونساء كانوا في الظلمات أنوارًا ساطعة ، وفي الليالي الحوالك نجومًا لامعة ، يهتدي بهم الحائرون ، و يسترشد بهم الضالون ، وعلى أيديهم تسود الأمم ، وتخطو في سبيل المجد خطوات ثابتة ، وتقف أمام العالم برؤوس شامخة ، وترسل أشعة أنوارها إلى غيرها ، وتلهم الإنسانية إلهامات تنير عقولها ، وتسعف مرضاها ، وتعالج عللها .

سار في هذا الدرب رسل وأنبياء وصديقون وشهداء ، وعالمون وحكماء ، لولاهم ما وجد الناس بروق آمال ، ولا عرفوا الطريق إلى سعادة في الحال أو في المآل .

هؤلاء يعرفهم الناس عند الشدائد ، ويجدهم الإنسان وقت الزلازل ، يمدون أيديهم لإنقاذ الغارقين ، وينتشلون من الضياع جموع الحائرين .

وقد كان أشد ما أصاب الإنسانية في عهد الرسالة المحمدية موت صاحب الرسالة محمد ﷺ أعظم رسول جاء بأعظم رسالة إلى أفضل أمة .

إن موته ﷺ زلزل نفوس أتباعه ففزعت قلوب وطاشت عقول وحارت أفهام ، وبكت عيون ، واضطربت أمورهم ، وهاجت الغوغاء من حولهم ، وارتد كثيرون عن دينهم ، وعادوا إلى جاهليتهم العمياء ، وإلى فواحشهم الشنعاء ، وأرادوا فتنة كاسحة ، وظلمة كالحة ، وعودة إلى الحياة بغير نظام ، وإلى فوضى تزرع الشر وتنبت الآثام .

وأرادوا أن يقضوا على ثلاثة وعشرين عامًا نزل فيها الوحي من عند اللّه لهداية العالمين ، وتطهير البشرية من الظلم والبغي والفحش وعبث العابثين ،ووضع نظام وأحكام ومنهج كله عدل ورحمة وسعادة وخير للناس أجمعين . وهنا ظهر أبو بكر الصديق فوقف مواقف كل واحد منها يحتاج إلى جيش من الصديقين ، فهتف في جموع المهاجرين والأنصار معلنًا أن النبي محمدًا قد مات ، ولكن نبوته لم تمت .

فقد جاء بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وأوضح معالم شريعة كاملة لا نقص فيها ولا عيب يعتريها ، وعلمنا وربانا ، وهذب

نفوسنا ووجداننا ، وغرس فينا كل صفات الكمال والجلال والجمال .

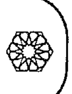
فنحن على العهد باقون ، وبمنهجه متمسكون ، وعلى طريقه سائرون ، ولن نحيد قيد شعرة ، أو ننحرف مقدار أنملة ، وفي ذلك عزنا وشرفنا فيه صلاح العالم وسعادته ، وهداية الأمم وفلاحها ، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] . ثم حمل كتاب اللّه في يد وسيفه في اليد الأخرى ونادى في الجمع الحائر « **من أراد النجاة على طريق رسول اللّه ﷺ فليتبعني** » فتبعوه جميعًا لم يتخلف من أهل المدينة أحد .

وبرق النور ، وشرحت الصدور ، وقويت العزائم ، وظهرت في أصحاب محمد ﷺ شجاعة لم تر الأمم مثلها .

وساروا في طريق الإيمان الصادق ، والإخلاص الوافر ، والشجاعة الفريدة وراء القائد الملهم ، ورجل الأزمات والشدائد ، يجاهدون في سبيل نصرة الإسلام بدون وهن ولا تخاذل حتى عادت العرب إلى دينها ، واعتصمت بحبل ربها ، وصارت الجزيرة العربية في سنة ونصف تعج بالتكبير والتهليل كلها ،وارتفع صوت المؤذن في كل مكان ، وهلك حزب الشيطان ونادى على نفسه بالخزي والخسران ، ثم انطلقت جحافل الإيمان . وجنود الرحمن في عهد الصديق إلى أعظم دولتين ، فهزت أركانهما ، وزلزلت كيانهما ، ودخل الناس في دين اللّه أفواجًا وهم آمنون ، وذاقت الإنسانية طعم الحياة الطيبة الجميلة بفضل اللّه ورحمته على أيدي هؤلاء الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه ، وكانوا كما قال اللّه فيهم : ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ .

فإلى أبي بكر ﷺ في سيرته وأخلاقه وأعماله وما حدث أثناء خلافته رضي اللّه عنه وأرضاه .

* * *



التعريف بأبي بكر الصديق رضي الله عنه
اسمه ونسبه وصفته وإسلامه

اسمه : عبد اللَّه بن عثمان بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن لؤي .

واسم أمه : أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر ، ماتت مسلمة .

وفي تسميته بعتيق ثلاثة أقوال :

أحدهما : ما روى عن عائشة رضي الله عنها : أنها سئلت : لمَ سُمِّي أبو بكر عتيقًا ؟ فقالت : نظر إليه رسول اللَّه ﷺ فقال : « **هذا عتيق اللَّه من النار** » [رواه الترمذي بسند ضعيف وله شواهد تقويه] .

وعن عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : إني لفي بيت رسول اللَّه ﷺ وأصحابه في الفناء وبيني وبينهم الستر إذ أقبل أبو بكر ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « **من سره أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى هذا** » قالت : وإن اسمه الذي سماه به أهله لعبد اللَّه بن عثمان بن عامر بن عمرو ولكن غلب عليه عتيق . [أخرجه سعيد ابن منصور. اهـ . من الطبقات لابن سعد] .

والثاني : أنه اسم سمته به أمه ، قاله موسى بن طلحة .

والثالث : أنه سمي به لجمال وجهه ، قاله الليث بن سعد .

أقول : ولا منافاة بين هذه الأقوال فهو عتيق من النار وكان يوصف بأنه عتيق لجماله .

وقال ابن قتيبة : لقبه النبي ﷺ بذلك لجمال وجهه ، وسماه النبي ﷺ صدِّيقًا وقال : « **يكون بعدي اثنا عشر خليفة ، أبو بكر الصديق لا يلبث إلا قليلًا** » [أخرجه البيهقي وأبو نعيم] .

وكان علي بن أبي طالب يحلف باللَّه أن اللَّه تعالى أنزل اسم أبي بكر من السماء (الصديق) . [أخرجه الطبراني ورجاله ثقات] .

كان أبو بكر الصديق ﷺ نحيفًا خفيف العارضين معروق الوجه ، ناتئ الجبهة غائر العينين ، لا يستمسك إزاره ، يسترخي عن حقويه (خاصريه) عاري الأشاجع (مفاصل الأصابع) ، يخضب بالحناء والكَتَم (نبت يصبغ به الشعر أسود) .

وعن قيس بن حازم قال : دخلت مع أبي على أبي بكر وكان رجلًا نحيفًا خفيف اللحم ، أبيض .

وقال حسان بن ثابت ، وابن عباس ، وأسماء بنت أبي بكر ، وإبراهيم النخعي : أول من أسلم أبو بكر (أي من الرجال) .

وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها **قالت** : ما عقلتُ أبويَّ إلَّا وهما يدينان الدين ، وما مرَّ علينا يومٌ قطُّ إلا ورسول اللَّه يأتينا فيه بكرة وعشية . [اهـ من الطبقات] .

وعن هشام بن عروة قال : أخبرني أبي قال : « **أسلم أبو بكر يوم أسلم وله أربعون ألف درهم** » [اهـ من الطبقات لابن سعد] .

* * *

ذكر أولاده

كان له من الولد : عبد اللَّه ، وأسماء (ذات النطاقين) ، وأمهما قتيلة . وعبد الرحمن وعائشة ، وأمهما أم رومان . ومحمد ، وأمه أسماء بنت عميس ، وأم كلثوم ، وأمها حبيبة بنت خارجة بن زيد ، وكان أبو بكر لما هاجر إلى المدينة نزل على « **خارجة** » فتزوج ابنته .

فأما عبد اللَّه : فإنه شهد الطائف .

وأما أسماء : فتزوجها الزبير فولدت له عدة (عددًا من الأولاد) ثم طلقها ، فكانت مع ابنها عبد اللَّه إلى أن قتل ، وعاشت مائة سنة .

وأما عبد الرحمن : فشهد يوم بدر مع المشركين ثم أسلم .

وأما محمد : فكان من نساك قريش إلا أنه أعان على عثمان يوم الدار ، ثم ولَّاه علي ابن أبي طالب مصر فقتله هناك صاحب معاوية .

وأما أم كلثوم : فتزوجها طلحة بن عبيد اللَّه ﷺ .

* * *

الذين أسلموا بدعوة أبي بكر

قال محمد بن إسحاق : لما أسلم أبو بكر وأظهر إسلامه دعا إلى اللَّه ﷻ ، وكان أبو بكر رجلًا مَألفًا لقومه مُحَبَّبًا سهلًا ، وكان أنسب قريش لقريش [1] وأعلم قريش بما كان فيها من خير وشر . وكان رجلًا تاجرًا ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر : لعلمه وتجارته وحسن مجالسته . فجعل يدعو إلى الإسلام

(١) أي أعلم الناس بأنسابهم .

من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه فأسلم على يديه فيما بلغني : الزبير بن العوام ، وعثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن ابن عوف ﭬ . فانطلقوا إلى رسول الله ﷺ ومعهم أبو بكر . فعرض عليهم الإسلام وقرأ عليهم القرآن وأنبأهم بحق الإسلام فآمنوا ، وكان هؤلاء النفر الذين سبقوا في الإسلام صدقوا رسول الله ﷺ وآمنوا بما جاء من عند الله تعالى .

وقال محمد بن عمرو الواقدي : حدثني الضحاك بن عثمان عن مخرمة ابن سليمان الوالبي عن إبراهيم بن محمد بن أبي طلحة قال : قال طلحة بن عبيد الله : حضرت سوق بصرى فإذا راهب في صومعته يقول : سلوا أهل الموسم ، أفيهم رجل من الحرم ؟ قال طلحة : قلت : نعم أنا ، فقال هل ظهر أحمد بعد ؟ قلت : ومن أحمد ؟ قال : ابن عبد الله بن عبد المطلب ، هذا شهره الذي يخرج فيه ، وهو آخر الأنبياء ، مخرجه من الحرم ، ومهاجره إلى نخل وحرة وسباخ ، فإياك أن تُسْبَقَ إليه . قال طلحة : فوقع في قلبي ما قال ، فخرجت سريعًا حتى قدمت مكة فقلت : هل كان من حديث ؟ قالوا : نعم . محمد بن عبد الله الأمين قد تنبأ ، وقد اتبعه أبو بكر بن أبي قحافة . قال : فخرجت حتى قدمت على أبي بكر وقلت : اتبعت هذا الرجل ؟ قال : نعم ، فانطلق إليه فادخل عليه فاتبعه فإنه يدعو إلى الحق ، فأخبره طلحة بما قال الراهب . فخرج أبو بكر فدخل به على رسول الله ﷺ فأسلم طلحة ، وأخبر رسول الله ﷺ بما قال الراهب فسر بذلك . فلما أسلم أبو بكر وطلحة أخذهما نوفل بن خويلد بن العدوية - وكان يدعى : أسد قريش - فشدهما في حبل واحد ، ولم يمنعهما بنو تيم ؛ فلذلك سمي أبو بكر وطلحة « **القرينين** » ، وقال النبي ﷺ : « **اللهم اكفنا شر ابن العدوية** » [رواه البيهقي] .

* * *

تحمله الإيذاء في سبيل الله

عن عائشة ﭫ **قالت** : لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلًا ألحَّ أبو بكر على رسول الله ﷺ في الظهور ، فقال : « **يا أبا بكر إنا قليل** » فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ وتفرق المسلمون في نواحي المسجد ، كل رجل في عشيرته ، وقام أبو بكر في الناس خطيبًا ورسول الله ﷺ جالس ، فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسول الله ﷺ ، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين ، فضربوا في نواحي المسجد ضربًا شديدًا ، ووُطِئَ أبو بكر وضُرب ضربًا شديدًا ، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل

يضربه بنعلين مخصوفتين ، ويحرفهما لوجهه ، ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه ، وجاء بنو تيم يتعادون ، فأجْلَت المشركين عن أبي بكر ، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون في موته ، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا : و اللَّه لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة ، فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب ، فتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول اللَّه ﷺ ؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه (لاموه) ثم قاموا وقالوا لأمه - أم الخير - : انظري أن تطعميه شيئًا أو تسقيه إياه ، فلما خلت به ألحت عليه ، وجعل يقول : مافعل رسول اللَّه ﷺ ؟ فقالت : و اللَّه ما لي علم بصاحبك . فقال : اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل ، فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد اللَّه ؟ فقالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد اللَّه ، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ؟ قالت : نعم ، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعًا دنفًا ، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح ، وقالت : واللَّه إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر ، وإني لأرجو أن ينتقم اللَّه لك منهم . قال : فما فعل رسول اللَّه ﷺ ؟ قالت : هذه أمك تسمع ، قال : فلا شيء عليك منها ، قالت : سالم صالح . قال : أين هو ؟ قالت : في دار ابن الأرقم ، قال : فإن للَّه عليَّ أن لا أذوق طعامًا ولا أشرب شرابًا أو آتي رسول اللَّه ﷺ . فأمهلتا حتى إذا هَدَأَت الرِّجْل وسكن الناس خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول اللَّه ﷺ ، قال : فأكب عليه رسول اللَّه ﷺ فقبله وأكب عليه المسلمون ، ورق له رسول اللَّه ﷺ رقة شديدة . فقال أبو بكر : بأبي وأمي يا رسول اللَّه ، ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي ، وهذه أمي برة بولدها ، وأنت مبارك فادعها إلى اللَّه وادع اللَّه لها عسى اللَّه أن يستنقذها بك من النار . قال : فدعا لها رسول اللَّه ﷺ ، ودعاها إلى اللَّه فأسلمت ، وأقاموا مع رسول اللَّه ﷺ في الدار شهرًا وهم تسعة وثلاثون رجلًا . [اهـ . من البداية والنهاية] .

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها **قالت** : جاء الصريخ (المستغيث) إلى أبي بكر فقيل له : أَدْرِكْ صاحبك . فخرج من عندنا وإن له غدائر ، فدخل المسجد وهو يقول : ويلكم ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [غافر : ٢٨] قال : فَلَهَوا عن رسول اللَّه ﷺ وأقبلوا إلى أبي بكر (يضربونه ويشدون شعره) فرجع إلينا أبو بكر ، فجعل لا يَمَسُّ شيئًا من غدائره إلا جاء معه ، وهو يقول : تباركت يا ذا الجلال و الإكرام . (الغدائر خصلات مثل الضفائر) .

* * *

خروج أبي بكر إلى الحبشة مهاجرًا وقصته مع ابن الدُّغُنَّة

أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها **قالت** : لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين ولم يمرَّ علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول اللَّه ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية . فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجرًا نحو أرض الحبشة حتى إذا بلغ بَرْكَ الغِماد (اسم موضع باليمن) لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة (قبيلة مشهورة) . فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟! فقال أبو بكر : أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي . قال ابن الدغنة : فإن مثلك يا أبا بكر ! لا يَخرج ولا يُخرج ، إنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكَلَّ ، وتَقْري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ؟ فأنا لك جار ، ارجع واعبد ربك ببلدك ، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة فطاف ابن الدغنة عشيَّةً في أشراف قريش فقال لهم : إن أبا بكر لا يَخرج مثله ولا يُخرج ، أتُخرجون رجلًا يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقري الضيف ، ويعين على نوائب الحق ؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة ، وقالوا لابن الدغنة : مُرْ أبا بكر فليعبد ربه في داره ، فليصلِّ فيها وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلنُ به ، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا ؛ فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر . فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ، ولا يستعلن بصلاته ، ولا يقرأ في غير داره ، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدًا بفناء داره ، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن ، فيتقذَّف [١] عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلًا بكَّاءً ، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن . وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ؛ فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا : إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره ، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدًا بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن فسله أن يرد إليك ذمتك فإنا قد كرهنا أن نخفِرَك ، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان . قالت عائشة رضي الله عنها : فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر ، فقال : قد علمتَ الذي عاقدتُ لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن تُرجع إليَّ ذمتي فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرتُ (نُقِضَ عهدي) في رجل عقدت له . فقال أبو بكر : : فإني أرد إليك جوارك ، وأرضى بجوار اللَّه ﷻ .

وأخرجه أيضًا ابن إسحاق بنحوه ، وفي سياقه : فخرج أبو بكر مهاجرًا حتى إذا سار من مكة – يومًا أو يومين – لقيه ابن الدغنة ، وهو يومئذ سيد الأحابيش . فقال : إلى

---

(١) يقبل عليه .

أين يا أبا بكر ؟ قال : أخرجني قومي وآذوني وضيَّقوا عليَّ . قال : ولم ؟ فواللَّه ! إنك لتَزِين العشيرة ، وتُعين على النوائب ، وتفعل المعروف ، وتكسب المعدوم ، ارجع فإنك في جواري . فرجع معه حتى إذا دخل مكة قام معه ابن الدغنة فقال : يا معشر قريش ! إني قد أَجَرْتُ ابن أبي قحافة فلا يعرضْ له أحد إلا بخير . قال : فكَفُّوا عنه . وفي آخره فقال : يا أبا بكر ! إني لم أُجِرْكَ لِتُؤذِيَ قومك ، وقد كرهوا مكانك الذي أنت به وتأذوا بذلك منك ، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت . قال : أو أردُّ عليك جوارك وأرضى بجوار اللَّه . قال : فاردد عَلَيَّ جواري . قال : قد رددته عليك . قال فقام ابن الدغنة فقال : يا معشر قريش ! إن ابن أبي قحافة رد عليَّ جواري فشأنكم بصاحبكم . [كذا في البداية لابن كثير] .

وأخرج ابن إسحاق أيضًا عن القاسم قال : لقيه - يعني أبا بكر الصديق ﷺ حين خرج من جوار ابن الدغنة - سفيه من سفهاء قريش وهو عامدٌ إلى الكعبة فحثا على رأسه ترابًا ، فمر بأبي بكر الوليد بن المغيرة - أو العاص بن وائل - فقال له أبو بكر ﷺ : ألا ترى ما يصنع هذا السفيه ؟ فقال : أنت فعلت ذلك بنفسك . وهو يقول : أي رب ما أحلمك ! أي رب ما أحلمك ! أي رب ما أحلمك ! [كذا في البداية اهـ] .

* * *

هجرته مع رسول الله ﷺ

عن أنس ﷺ قال : لما كانت ليلة الغار قال أبو بكر : يا رسول اللَّه ، دعني أدخل قبلك ، فإن كان فيه حية أو شيء كانت لي قبلك . قال : ادخل . فدخل أبو بكر فجعل يلتمس بيديه ، كلما رأى جُحْرًا ، قال بثوبه (أي رفعه) فشقه ثم ألقمه الجُحْر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع . فبقي جُحْرٌ فوضع عقِبَه عليه ، ثم أَدْخَلَ رسول اللَّه ﷺ . فلما أصبح قال له النبي ﷺ : « **فأين ثوبك يا أبا بكر ؟** » فأخبره بالذي صنع ، فرفع رسول اللَّه ﷺ يديه وقال : « **اللهم اجعل أبا بكر معي في درجتي يوم القيامة** » فأوحى اللَّه ﷻ إليه : « **إن اللَّه تعالى قد استجاب لك** » . [أخرجه أبو نعيم في الحلية] .

وعن أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه قال : كان أبو بكر معروفًا بالتجارة ، ولقد بُعث النبي ﷺ وعنده أربعون ألف درهم فكان يعتق منها ويُقَوِّي المسلمين حتى قدم المدينة بخمسة آلاف درهم ثم كان يفعل فيها ما كان يفعل بمكة .

وعن هشام بن عروة عن أبيه أن رسول اللَّه ﷺ قال لأبي بكر الصديق : « **قد أُمِرتُ**

بالخروج » (يعني الهجرة) فقال أبو بكر : الصحُبةَ يا رسول الله ، قال : « **لك الصحبة** » . قال فخرجا حتى أتيا ثورًا فاختبيا فيه ، فكان عبد الله بن أبي بكر يأتيهما بخبر أهل مكة بالليل ، ثم يصبح بين أظهرهم كأنه بات بها ، وكان عامر بن فُهَيرة يرعى غنمًا لأبي بكر فكان يريحها عليهما فيشربان من اللبن ، وكانت أسماء تجعل له طعامًا فتبعث به إليهما فجعلت طعامًا في سُفْرَة فلم تجد شيئًا تربطها به ، فقطعت نطاقها فربطتها به فسميت « **ذات النطاقين** » . قال : ثم قال رسول الله ﷺ : « **إني قد أُمرت بالهجرة** » وكان لأبي بكر بعير ، واشترى رسول الله ﷺ بعيرًا آخر ، فركب رسول الله ﷺ بعيرًا وركب أبو بكر بعيرًا وركب آخر - فيما يعلم حماد عامرُ بن فُهَيرَة - بعيرًا ، فكان رسول الله ﷺ يَثْقُلُ على البعير فيتحول رسول الله ﷺ على بعير أبي بكر ، ويتحول أبو بكر على بعير عامر بن فهيرة ، ويتحول عامر بن فهيرة إلى بعير رسول الله ﷺ ، فيثقل بعير أبي بكر حين يركبه رسول الله ﷺ ، قال : فاستقبلتهما هدية من الشام من طلحة بن عبيد الله إلى أبي بكر فيها ثياب بياض من ثياب الشام فلبساها ، فدخلا المدينة في ثياب بياض » [ا هـ . من الطبقات لابن سعد] .

وعن عائشة رضي الله عنها **قالت** : كان خروج أبي بكر للهجرة إلى المدينة مع رسول الله ﷺ ومعهما عامر بن فهيرة ، ومعهما دليل يقال له : عبد الله بن أُريقط الدُّيَلِيُّ ، وهو يومئذ على الكفر ولكنهما أَمِنَاه .

وعن أنس رضي الله عنه **أن أبا بكر حدثه قال** : قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار : لو أن أحدهم ينظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه قال : فقال : « **يا أبا بكر ! ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟!** » [أخرجه البخاري ومسلم اهـ . من الطبقات لابن سعد] .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما **قال** : اشترى أبو بكر من عازب رَحْلًا بثلاثة عشر درهمًا فقال أبو بكر لعازب : مُرِ البراء ليحمل إليَّ الرحل ، فقال عازب : لا . حتى تحدثنا كيف صنعت أنت ورسول الله ﷺ حين خرجتما من مكة والمشركون يطلبونكما ؟ فقال : ارتحلنا من مكة فأحيينا - أو سرينا - ليلتنا ويومنا حتى أَظْهَرنا وقام قائم الظهيرة ، فرميت ببصري هل أرى من ظل نأوي إليه فإذا صخرة أتيناها فنظرت بقية ظل لها فسويته (أي سوى المكان الذي فيه الظل) ثم فرشت للنبي ﷺ فيه ثم قلت له : اضطجع يا نبي الله ، فاضطجع النبي ﷺ ثم انطلقت أنظر ما حولي : هل أرى من الطلب أحدًا ؟ فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة يريد منها الذي أردنا ، فسألته فقلت له : لمن أنت يا غلام ؟ فقال : لرجل من قريش سمَّاه فعرفته فقلت : هل في غنمك من لبن ؟ قال : نعم . فقلت : هل أنت حالبٌ لَنَا ؟ قال : نعم . فأمرته فاعتقل شاة من غنمه ثم أمرته أن ينفض

ضرعها من الغبار ثم أمرته أن ينفض كفيه . فنفض فحلب لي كُثْبة من لبن ، وقد جعلت لرسول الله ﷺ إداوة (إناء) على فمها خرقة فصببت على اللبن حتى برد أسفله فانطلقت به إلى النبي ﷺ فوافقته قد استيقظ فقلت : اشرب يا رسول الله ، فشرب حتى رضيت ثم قلت : قد آن الرحيل يارسول الله ؟ قال : « **بلى** » فارتحلنا والقوم يطلبوننا ، فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة بن مالك بن جُعْشُم على فرس له ، فقلت : هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله فقال : « **لا تحزن إن الله معنا** » [رواه البخاري ومسلم . ورياه أطول من هذا] .

* * *

اختيار الرسول أبا بكر لإمامة المسلمين في الصلاة

عن سهل بن سعد قال : كان قتالٌ في بني عمرو بن عوف فبلغ النبيَّ ﷺ فأتاهم بعد الظهر ليصلح بينهم ، وقال : « **يا بلال إن حضرت الصلاة ولم آت فَمُرْ أبا بكر فليصلِّ بالناس** » . فلما أن حضرت الصلاة أقام بلال العصر ثم أمر أبا بكر فتقدم بهم ، وجاء رسول الله ﷺ بعد ما دخل أبو بكر في الصلاة فلما رأوه صَفَّحُوا (صفقوا) وجاء رسول الله ﷺ يشق الناس حتى قام خلف أبي بكر . قال : وكان أبو بكر إذا دخل في الصلاة لم يلتفت ، فلما رأى التصفيح لا يمسك عنه التفت فرأى النبي ﷺ خلفه ، فأومأ إليه رسول الله ﷺ بيده أن امْضِهْ (استمر) فقام أبو بكر على هيئته فحمد الله على ذلك ثم مشى القهقرى . قال : فمضى (تقدم) رسول الله ﷺ فصلى بالناس ، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال : « **يا أبا بكر ، ما منعك إذ أَومَأْتُ إليك أن تكون مضيت ؟** » فقال أبو بكر : لم يكن لابن أبي قحافة أن يؤم رسول الله ﷺ ، فقال للناس : « **إذا نابكم شيء في صلاتكم فليسبِّح الرجال ولتُصَفِّح النساء** » [أخرجاه في الصحيحين] .

وعن عائشة رضي الله عنها **قالت** : لما ثَقُلَ رسول الله ﷺ (اشتد عليه المرض) جاء بلال يُؤْذِنُهُ بالصلاة فقال : « **مُروُا أبا بكر فليصل بالناس** » قالت : فقلت يا رسول الله ، إن أبا بكر رجل أَسِيفٌ (سريع البكاء) وإنه متى يقوم مقامك لا يُسْمِع ، فلو أمرت عمر . فقال : « **مروا أبا بكر فليصل بالناس** » قالت : فقلت لحفصة : قولي له. فقالت له حفصة : يا رسول الله إن أبا بكر رجل أَسِيفٌ ، وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس ، فلو أمرت عمر ، فقال : « **إنكن صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس** » . قالت : فأمروا أبا بكر فصلى بالناس ، فلما دخل في الصلاة وجد رسول الله ﷺ في نفسه خِفَّة ، فقام يُهَادي (يُسنَد) بين رجلين ورِجْلاه تَخُطَّان في الأرض ، حتى دخل المسجد ، فلما سمع أبو بكر حِسَّه ذهب يتأخر ،

فأومأ إليه رسول اللّه ﷺ أن قُمْ كما أنت ، فجاء رسول اللّه ﷺ حتى جلس عن يسار أبي بكر فكان رسول اللّه ﷺ يصلي بالناس جالسًا وأبو بكر قائمًا ، يقتدي أبو بكر بصلاة رسول اللّه ﷺ ، والناس يقتدون بصلاة أبي بكر . [أخرجاه في الصحيحين] .

وعن محمد بن قيس قال : اشتكى رسول اللّه ﷺ ثلاثة عشر يومًا فكان إذا وجد خِفَّة صلَّى ، وإذا ثقل صلى أبو بكر . [اهـ من الطبقات] .

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ لما جاء إلى أبي بكر وهو يصلي بالناس في مرضه أخذ من حيث كان بلغ أبو بكر من القراءة . [اهـ . من الطبقات] .

* * *

مكانة أبي بكر عند الله

عن أبي هريرة ﷺ **قال** : قال رسول اللّه ﷺ : « **ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر** » فبكى أبو بكر ، وقال : هل أنا ومالي إلا لك يارسول اللّه ؟ . [رواه أحمد] .

وعن ابن عمر قال : كنت عند النبي ﷺ وعنده أبو بكر الصديق ، وعليه عباءة قد خَلَّها (جمع بين طرفيها وشكها بخلال من عود أو حديد) في صدره بخلال فنزل عليه جبريل فقال : يا محمد ، ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلها في صدره ؟ فقال : « **ياجبريل أَنْفَق ماله عليَّ قبل الفتح** » قال : فإن اللّه ﷻ يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : قل له : أرَاضٍ أنت عني في فقرك هذا أم ساخط ؟ فقال رسول اللّه ﷺ : « **يا أبا بكر إن اللّه ﷻ يقرأ عليك السلام ويقول لك : أرَاضٍ أنت عني في فقرك هذا أم ساخط ؟** » فقال أبو بكر ﷺ : أسخط على ربي أنا عن ربي راضٍ ، أنا عن ربي راضٍ ، أنا عن ربي راضٍ » [حديث ضعيف جدًا] .

وعن أبي رجاء العُطاردي قال : دخلت المدينة فرأيت الناس مجتمعين ورأيت رجلًا يقبل رأس رجل ، ويقول: أنا فداء لك لولا أنت هلكنا ، فقلت :من المقبِّل ومن المقبَّل ؟ قالوا : ذاك عمر يقبل رأس أبي بكر في قتاله أهل الردة إذ منعوا الزكاة حتى أتوا بها صاغرين .

وعن محمد ابن الحنفية قال : قلت لأبي (علي بن أبي طالب) : أيُّ الناس خيرٌ بعد رسول اللّه ﷺ ؟ قال : أبو بكر ، قلت : ثم من ؟ قال : ثم عمر ، وخشيت أن أقول ثم من ؟ فيقول : عثمان ، فقلت : ثم أنت ؟ فقال : « **ما أبوك إلا رجل من المسلمين** » .

[انفرد بإخراجه البخاري] .

وعن **أبي هريرة** ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال : « **ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافَيناه ما خلا أبا بكر ، فإن له عندنا يدًا يكافيه اللَّه بها يوم القيامة ، وما نفعني مال قط مانفعني مال أبي بكر ، ولو كنت متخذًا خليلًا من الناس لاتخذت أبا بكر خليلًا ، ألا وإن صاحبكم خليل اللَّه** » [رواه الترمذي] .

وزاد رزين : « **وما عرضت الإسلام على أحد إلا وكانت له كبوة ، إلا أبا بكر ، فإنه لم يتلعثم في قوله** » .

وعنه ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال : « **من أنفق زوجين في سبيل اللَّه نودي من أبواب الجنة : يا عبد اللَّه ، هذا خير ، فمن كان من أهل الصلاة دُعِيَ من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان** » فقال أبو بكر : يا رسول اللَّه ، ما على أحد يدعى من تلك الأبواب من ضرورة ، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها ؟ قال ﷺ : « **نعم وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر** » [رواه الستة إلا أبا دواد] .

وعن **أبي هريرة** ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال : « **من أصبح اليوم منكم صائمًا ؟** » قال أبو بكر : أنا ، قال : « **فمن تبع اليوم منكم جنازة ؟** » قال أبو بكر : أنا ، قال : « **فمن أطعم اليوم منكم مسكينًا ؟** » قال أبو بكر : أنا ، قال : « **فمن عاد اليوم منكم مريضًا ؟** » قال أبو بكر : أنا ، قال ﷺ : « **ما اجتمعن في رجل إلا دخل الجنة** » [رواه مسلم] .

وعن **أبي سعيد الخدري** ﷺ أن النبي ﷺ جلس على المنبر فقال : « **إن عبدًا خيره اللَّه بين أن يؤتيه زهرة الحياة الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده** » فقال أبو بكر : فديناك يا رسول اللَّه بآبائنا وأمهاتنا ، فعجبنا ، فقال الناس : انظروا إلى هذا الشيخ ، يخبر النبي ﷺ عن عبد خيره اللَّه بين أن يؤتيه زهرة الحياة الدنيا وبين ما عنده ، وهو يقول : فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، قال : فكان ﷺ هو المخيَّر وأبو بكر أعلمنا به فقال ﷺ : « **إن أَمَنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا ، ولكن أخوة الإسلام لا تَبقَيَنَّ في المسجد خَوخَةٌ (فرجة) إلا خوخةُ أبي بكر** » [رواه الشيخان والترمذي بلفظه] .

وعن **الأسود بن هلال قال** : قال أبو بكر ﷺ لأصحابه : ما تقولون في هاتين الآيتين؟ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ ﴾ [فصلت : ٣] و ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام : ٨٢] . قال : قالوا : ربنا اللَّه ثم استقاموا ، فلم يُذْنِبوا ، ولم يلبسوا إيمانهم بظلم : بخطيئة ، قال : لقد حملتموها على غير المحمل ، ثم قال : قالوا

ربنا الله ثم استقاموا : فلم يلتفتوا إلى إله غيره ، ولم يلبسوا إيمانهم بشرك .

وعن عمر ﷺ **قال** : أمرنا النبي ﷺ أن نتصدق ووافق ذلك مني مالًا فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته ، فجئت بنصف مالي ، فقال ﷺ : « **ما أبقيت لأهلك ؟** » قلت : مثله ، وأتى أبو بكر بكل ما عنده ، فقال : « **يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك ؟** » قال أبقيت لهم الله ورسوله ، قلت : لا أسبقه إلى شيء أبدًا . [رواه أبو داود ، والترمذي وقال حديث صحيح] .

وعن أبي الدرداء ﷺ **قال** : كنت جالسًا عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذًا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبتيه ، فقال ﷺ : « **أما صاحبكم فقد غامر** (وقع في شدة) » فسلَّم ، فقال : يا رسول الله إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء فأسرعت إليه ثم ندمت ، فسألته أن يغفر لي فأبى عليَّ ، فأقبلت إليك ، فقال : « **يغفر الله لك يا أبا بكر ثلاثًا** » ، ثم إن عمر ندم وأتى منزل أبي بكر فقال : أَثَمَّ (أهنا) أبو بكر ؟ قالوا : لا ، فأتى إلى النبيِّ ﷺ فجعل وجهُ النبي ﷺ يَتَمَعَّر (يتغير) حتى أشفق أبو بكر فجثى على ركبتيه ، وقال : والله أنا كنت أَظْلَم ، مرتين ، فقال رسول الله ﷺ : « **إن الله بعثني إليكم فقلتم : كذبتَ ، وقال أبو بكر : صدق ، وواساني بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي ؟** - مرتين - **فما أوذي بعدها** » . [رواه البخاري] .

وعن ابن مسعود قال : لما قُبض رسول الله ﷺ قال الأنصار : منا أمير ومنكم أمير . فأتاهم عمر فقال : ألستم تعلمون أن النبي ﷺ قد أمر أبا بكر أن يصلي بالناس؟ فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر ؟ فقالوا : نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر . [رواه النسائي . اهـ . من جمع الفوائد] .

وعن ابن أبي مليكة قال : سمعتُ عائشة رضي الله عنها وسُئِلت : مَن كان رسول الله ﷺ مستخلفًا لو استخلفه ؟ قالت : أبو بكر ، فقيل لها : ثم مَنْ بعد أبي بكر ؟ قالت : عمر ، ثم قيل لها : مَنْ بعد عمر ؟ قالت : أبو عبيدة بن الجراح ، ثم انتهت إلى هذا - يعني وقفت على أبي عبيدة . وهذا دليل لأهل السنة في تقديم أبي بكر ثم عمر للخلافة مع إجماع الصحابة ، وفيه دلالة لأهل السنة أن خلافة أبي بكر ليست بنصٍّ من النبي ﷺ على خلافته صريحًا ، بل أجمعت الصحابة على عقد الخلافة له وتقديمه لفضيلته ، ولو كان هناك نص عليه أو على غيره لم تقع المنازعة من الأنصار وغيرهم أولًا ، ولَذَكَرَ حافظ النص ما معه ، ولرجعوا إليه ، لكن تنازعوا أولًا ولم يكن هناك نص ، ثم اتفقوا على أبي بكر واستقر الأمر . وأما ما تدعيه الشيعة من النص على عَلِيٍّ والوصية إليه فباطل لا أصل

له باتفاق المسلمين ، والاتفاق على بطلان دعواهم من زمن عَليٍّ ، وأول من كذبهم علي رضي الله عنه بقوله : ما عندنا إلا ما في هذه الصحيفة ... الحديث ، ولو كان عنده نص لَذَكَرَهُ ، ولم يُنقل أنه ذكره في يوم من الأيام ولا أن أحدًا ذكره له . والله أعلم .

وأما قوله ﷺ في الحديث الذي بعد هذا للمرأة حين قالت : يا رسول الله ، أرأيت إن جئتُ فلم أجدك قال : « **فإن لم تجديني فأْتي أبا بكر** » ؛ فليس فيه نص على خلافته وأَمْرٌ بها بل هو إخبار بالغيب الذي أعلمه الله تعالى به . والله أعلم .

وعن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه أن امرأة سألت رسول الله ﷺ شيئًا فأمرها أن ترجع إليه فقالت : يا رسول الله ، أرأيت إن جئتُ فلم أجدك ؟ - قال أبي : كأنها تعني الموت - قال : « **فإن لم تجديني فأْتي أبا بكر** » .

وعن عائشة رضي الله عنها **قالت** : قال لي رسول الله ﷺ في مرضه : « **ادْعِي لي أبا بكر أباك وأخاك حتى أكتب كتابًا ، فإني أخاف أن يتمنى مُتَمَنٍّ ويقول قائل : أنا أولى ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر** » [رواه مسلم] . في هذا الحديث دلالة ظاهرة لفضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وإخبار منه ﷺ بما سيقع في المستقبل بعد وفاته ، وأن المسلمين يأبون عقد الخلافة لغيره ، وفيه إشارة إلى أنه سيقع نزاع . ووقع كل ذلك .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « **لو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخي وصاحبي** » [رواه البخاري] .

وعن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل فأتيته فقلت : أي الناس أحب إليك ؟ فقال : « **عائشة** » . فقلت : من الرجال ؟ فقال : « **أبوها** » . فقلت : ثم مَن ؟ قال : « **ثم عمر بن الخطاب ، فعدَّ رجالًا** » [رواه البخاري ومسلم] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه **قال** : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **بينما راع في غنمه عدا عليه الذئب فأخذ منها شاة فطلبه الراعي فالتفت إليه الذئب فقال : مَن لها يوم السبُع يوم ليس لها راع غيري ، وبينما رجل يسوق بقرة قد حمل عليها فالتفتت إليه فكلمته فقالت : إني لم أُخلق لهذا ولكن خلقت للحرث** » فقال الناس : سبحان الله ! فقال النبي ﷺ : « **أؤمن بذلك وأبو بكر وعمر** » رواه البخاري ومسلم من طرق وفي بعضها : وما ثَمَّ أبو بكر وعمر . أي لم يكونا في المجلس فشهد لهما بالإيمان بذلك لعلمه بكمال إيمانهما .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما **قال** : قال رسول الله ﷺ : « **من جرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة** » فقال أبو بكر : إن أحد شِقَّي ثوبي يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه فقال رسول الله ﷺ : « **إنك لست تصنع ذلك خُيَلَاء** » [رواه البخاري . اهـ تهذيب الأسماء للنووي] .

علمه ﷺ

قال الإمام النووي : استدل أصحابنا على عِظم علمه بقوله ﷺ في الحديث الثابت في الصحيحين أنه قال : والله لأقاتلن مَن فرّق بين الصلاة والزكاة ، والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه . واستدل الشيخ أبو إسحاق بهذا وغيره في طبقاته على أن أبا بكر أعلم الصحابة ؛ لأنهم كلهم وقفوا عن فهم الحكمة في المسألة إلا هو ثم ظهر لهم بمباحثته لهم أن قوله هو الصواب فرجعوا إليه .

ورُوينا عن ابن عمر أنه سئل : مَن كان يفتي الناس في زمن رسول الله ﷺ ؟ فقال : أبو بكر وعمر ما أعلم غيرهما . وقد سبق قريبًا حديث أبي سعيد في الصحيحين ، قال : وكان أبو بكر أعلمنا .

وكان ﷺ **إذا مُدِح يقول** : اللهم أنت أعلم بي من نفسي ، وأنا أعلم بنفسي منهم ، اللهم اجعلني خيرًا مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون .

وقيل له في مرضه : ألا ندعو لك طبيبًا ؟ قال : قد نظر إليَّ ، قالوا : ما قال لك ؟ قال : قال : إني فَعَّال لما أريد . [اهـ . تهذيب الأسماء للنووي] .

* * *

خوف أبي بكر من الله تعالى

عن الحسن قال : قال أبو بكر الصديق ﷺ : يا ليتني شجرةٌ تُعْضَدُ (تقطع) ثم تؤكل .

وعن زيد بن أرقم قال : كان لأبي بكر الصديق ﷺ مملوك يُغِل عليه (يأتيه بمال مقدَّر عليه) فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة ، فقال له المملوك : مالك ؟ كنت تسألني كل ليلة ولم تسألني الليلة ؟ قال : حملني على ذلك الجوع ، من أين جئت بهذا ؟ قال : مررت بقوم في الجاهلية فَرَقَيْتُ لهم فوعدوني فلما أن كان اليوم مررتُ بهم فإذا عُرس لهم فأعطوني ، فقال : أُفٍّ لك كدت تهلكني فأدخل يده في حلقه فجعل يتقيأ وجعلتْ لا تخرج ، فقيل له : إن هذه لا تخرج إلا بالماء ، فدعا بِعُسٍّ (قدح كبير) ، من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها فقيل له : يرحمك الله ، كل هذا من أجل هذه اللقمة ؟ فقال : لو لم تخرج إلا مع نَفْسِي لأخرجتها ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **كل جسد نبت من سُحْتٍ فالنار أولى به ، فخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة** » [أخرجه الطبراني في الكبير ، وأبو نعيم في الحلية] .

وعن زيد بن أرقم أن أبا بكر – رضي الله تعالى عنه – استسقى (طلب شيئًا يشربه) فأتي بإناء فيه ماء وعسل ، فلما أدناه من فِيه بكى وأبكى مَن حوله ، فسكت وسكتوا ثم عاد فبكى حتى ظنوا أن لا يقدروا على مُساءلته ، ثم مسح وجهه وأفاق . فقالوا : ما هاجك على هذا البكاء ؟ قال : كنت مع النبي ﷺ وجعل يدفع عنه شيئًا ويقول : « **إليك عني ، إليك عني** » ولم أر معه أحدًا فقلت : يا رسول الله ، أراك تدفع عنك شيئًا ولا أرى معك أحدًا ؟ قال : « **هذه الدنيا تمثلت لي بما فيها ؟ فقلت لها : إليك عني فَتَنَحَّتْ وقالت : أما والله لئن انْفَلَتَّ مني لا ينفلت مني مَن بعدك ، فخشيت أن تكون قد لحقتني فذاك الذي أبكاني** » .

وعن صالح بن كيسان عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه قال : دخلت على أبي بكر ﷺ في مرضه الذي توفي فيه ، فسلمت عليه فقال : رأيتُ الدنيا قد أقبلت ولما تقبل ، وهي جائية وستتخذون ستور الحرير ، ونضائد الديباج ، وتألمون ضجائع الصوف الأزدي كأن أحدكم على حَسَك السعدان ، ووالله لأن يقدَّم أحدكم فيضربَ عنقه – في غير حد – خير له من أن يَسْبَحَ في غمرة الدنيا .

وعن ابن مُليكة قال : كان ربما سقط الخِطام من يد أبي بكر الصديق ، قال : فيضرب بذراع ناقته فينيخها فيأخذه . قال : فقالوا له : أفلا أمرتنا نُنَاوِلُكَه ؟ قال : إن حِبِّي ﷺ أمرني أن لا أسأل الناس شيئًا . [رواه الإمام أحمد] (١) . ا هـ .

* * *

ثباته يوم وفاة رسول الله ﷺ

عن ابن عباس أن أبا بكر ﷺ خرج حين توفى رسول الله ﷺ وعمر يكلم الناس فقال : اجلس يا عمر ، فأبى عمر أن يجلس ، فقال : اجلس يا عمر ، فتشهد فقال : أما بعد ، فمن كان منكم يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت ، إن الله تعالى قال : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] . قال : والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله ﷻ أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها (فتلاها) منه الناس كلهم ، فما نسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها .

قال ابن شهاب : أخبرني سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب ﷺ قال : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعُقِرت (قعدت) حتى ما تقلني رجلاي ، وحتى أهويت

(١) من صفة الصفوة جـ ١ .

إلى الأرض ، وعرفت حين سمعته تلاها أن رسول الله ﷺ قد مات .

* * *

خلافة أبي بكر رضي الله عنه

عن ابن عباس قال : قال عمر بن الخطاب : كان من خبرنا حين توفي رسول الله ﷺ أن عليًا و الزبير تخلفا في بيت فاطمة وتخلف عنا الأنصار بأجمعهم في سقيفة بني ساعدة واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر فقلت له : يا أبا بكر انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار فانطلقنا نؤمُّهم (نقصدهم) حتى لَقِيَنا رجلان صالحان ،فذكرا لنا الذي صنع القوم فقالا : أين تريدون يا معشر المهاجرين ؟ فقلت : نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار . فقالا : لا عليكم أن لا تقربوهم واقضوا أمركم ، قلت : والله لنأتينهم ، فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بني ساعدة فإذا هم مجتمعون ، وإذا بين ظهرانيهم رجل مُزَمَّل ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : سعد بن عبادة . فقلت : ما له ؟ قالوا : وَجِعٌ ، فلما جلسنا قام خطيبهم فأثنى على الله ﷻ بما هو أهله وقال : أما بعد ، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام ، وأنتم يا معشر المهاجرين رَهْطٌ منا وقد دَفَّت دافَّة منكم (سارت جماعة منكم في اتجاه معين) تريدون أن تختزلونا (تقتطعونا) من أصلنا وتحضنونا (تخرجونا) من الأمر .

فلما سكتَ أردتُ أن أتكلم وكنت قد زَوَّرْت (هيأت) مقالة أعجبتني أريد أن أقولها بين يدي أبي بكر ، وكنت أُداري منه بعض الحدة ، وهو كان أحلم مني وأوقر ، فقال أبو بكر : على رِسْلِكَ (مهلك) فكرهت أن أغضبه ، والله ماترك من كلمة أعجبتني في تزويري (إعدادي لها) إلا قالها في بديهته وأفضل حتى سكت . فقال : أما بعد ، فما ذكرتم من خير فأنتم أهله ، ولم تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش ، هم أوسط العرب نسبًا ودارًا ، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين أيهما شئتم . وأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح ، فلم أكره مما قال غيرها ، وكان والله أن أُقَدَّمَ فَتُضْرَبَ عنقي ، لا يُقَرِّبُنِي ذلك إلى إثم ، أحبُّ إليَّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر إلا أن تغير نفسي عند الموت . فقال قائل من الأنصار : أنا جُذَيلها المحكَّك ، وعُذَيقها المرجَّب (المعظم) (أي أنا الذي يحتاج الناس إلى رأيه) ، منا أمير ومنكم أمير ، فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى خشيتُ الاختلاف ، فقلت : ابسط يدك يا أبا بكر ، فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون ثم بايعه الأنصار . [رواه الإمام أحمد] .

وعن الحسن قال : قال علي رضي الله عنه : لما قُبض رسول الله ﷺ نظرنا في أمرنا فوجدنا النبي ﷺ

قد قدم أبا بكر في الصلاة فرضينا لدنيانا مَن رضي رسول الله ﷺ لديننا فقدَّمنا أبا بكر .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة عن داود بن عبد الله الأودي عن حميد بن عبد الرحمن قال : توفي رسول الله ﷺ وأبو بكر ﷺ في صائفة من المدينة . قال : فجاء فكشف عن وجهه فقبَّله وقال : فداك أبي وأمي ما أطيبك حيًّا وميتًا ، مات محمد ورب الكعبة . فذكر الحديث . قال فانطلق أبو بكر وعمر يتعادان حتى أتوهم فتكلم أبو بكر فلم يترك شيئًا أُنزل في الأنصار ولا ذكره رسول الله ﷺ من شأنهم إلا ذكره ، وقال : لقد علمتم أن رسول الله ﷺ قال : « **لو سَلَكَ الناس واديًا وسَلَكت الأنصار واديًا سَلَكْتُ وادي الأنصار** » ولقد علمتَ يا سعد أن رسول الله ﷺ قال وأنت قاعد : « **قريش وُلَاةُ هذا الأمر ، فَبَرُّ الناس تبع لِبَرِهِمْ ، وفاجرهم تابع لفاجرهم** » فقال له سعد : صدَقت ، نحن الوزراء وأنتم الأمراء .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني الزهري حدثني أنس بن مالك قال : لما بويع أبو بكر في السقيفة وكان الغد جلس أبو بكر على المنبر وقام عمر فتكلم قبل أبي بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أيها الناس إني كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت وما وجدتها في كتاب الله تعالى ، ولا كانت عهدًا عهدها إليَّ رسول الله ﷺ ، ولكني كنت أرى أن رسول الله ﷺ سَيُدَبِّرُ أمرنا ، وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي هدى به رسول الله ﷺ ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه الله له ، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم ، صاحب رسول الله ﷺ ، وثاني اثنين إذ هما في الغار فقوموا فبايعوه ، فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة .

ثم تكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : « **أما بعد ، أيها الناس إني قد وليت عليكم ولستُ بخيركم ، فإن أَحْسَنْتُ فأعينوني ، وإن أَسَأْتُ فقوِّموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قويٌّ عندي حتى أُزيح علته إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق إن شاء الله ، لا يَدَعُ قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا يشيع في قوم قط الفاحشة إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله** » : [وهذا إسناد صحيح] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا علي بن عباس الوليد بن مسلم أخبرني يزيد بن سعيد بن ذي عدوان العبسي عن عبد الملك بن عمير اللخمي عن رافع الطائي رفيق أبي بكر الصديق في غزوة « **ذات السلاسل** » قال – وسألته عما قيل في بيعتهم – فقال : وهو يحدثه عما تقاولت به الأنصار وما كلمهم به وما كلم به عمر بن الخطاب الأنصار وما

ذكرهم به من إمامتي إياهم بأمر رسول الله ﷺ في مرضه : فبايعوني لذلك وقبلتها منهم وتخوفت أن تكون فتنة بعدها رِدَّة . [وهذا إسناد جيد قوي] ومعنى هذا أنه ﷺ إنما قَبِل الإمامَة تخوفًا أن تقع فتنة أربَى من تركه قبولها ﷺ وأرضاه .

قال ابن كثير : قلت : كان هذا في بقية يوم الاثنين فلما كان الغد صبيحة يوم الثلاثاء اجتمع الناس في المسجد فتمت البيعة من المهاجرين والأنصار قاطبة وكان ذلك قبل تجهيز رسول الله ﷺ .

* * *

حقائق يجب أن تُعلم

من تأمل ما ذكرناه ظهر له إجماع الصحابة - المهاجرين منهم والأنصار - على تقديم أبي بكر ﷺ ، وظهر برهان قوله ﷺ : « **يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر** » . وظهر له أن رسول الله ﷺ لم ينصَّ على الخلافة عينًا لأحد من الناس ، لا لأبي بكر كما زعمه طائفة من أهل السنة ، ولا لعليٍّ ﷺ كما يقول طائفة من الرافضة ، لكن أشار إشارة قوية يفهمها كل ذي لبٍّ وعقلٍ إلى الصديق كما قدمنا وسنذكره ولله الحمد .

كما ثبت في الصحيحين من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن ابن عمر : أن عمر ابن الخطاب لما طُعِنَ قيل له : ألا تستخلف يا أمير المؤمنين ؟ فقال : إن أسْتَخْلف فقد اسْتَخْلَفَ من هو خير مني - يعني أبا بكر - وإن أترك فقد ترك من هو خير مني - يعني رسول الله ﷺ - قال ابن عمر : فعرفت حين ذكر رسول الله ﷺ أنه غير مستخلف .

وقال سفيان الثوري : عن عمرو بن قيس بن سفيان قال : لما ظهر عَلِيٌّ على الناس قال : يا أيها الناس إن رسول الله ﷺ لم يعهد إلينا في هذه الإمارة شيئًا ، حتى رأينا من الرأي أن نستخلف أبا بكر فأقام واستقام حتى مضى لسبيله .

وقد اتفق الصحابة ﷺ على بيعة الصديق في ذلك الوقت ، حتى علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ﷺ .

والدليل على ذلك : ما رواه البيهقي عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : قبض رسول الله ﷺ واجتمع الناس في دار سعد بن عبادة ، وفيهم أبو بكر وعمر ، قال : فقام خطيب الأنصار ، فقال : تعلمون أنا أنصار رسول الله ﷺ فنحن أنصار خليفته كما كنا أنصاره ، قال : فقام عمر بن الخطاب ﷺ فقال : صدق قائلكم . ولو قلتم غير هذا لم نبايعكم فأخذ بيد أبي بكر وقال : هذا صاحبكم فبايعوه ، فبايعه عمر ، وبايعه المهاجرون والأنصار ،

وقال : فصعد أبو بكر المنبر فنظر في وجوه القوم فلم ير الزبير ، قال : فدعا الزبير فجاء قال : قلت : ابن عمة رسول الله ﷺ أردت أن تشق عصا المسلمين ، قال : لا تثريب يا خليفة رسول الله فقام فبايعه ، ثم نظر في وجوه القومِ فلم ير عليًا ، فدعا بعلي ابن أبي طالب ، قال : قلت : ابن عم رسول الله ﷺ وختنه على ابنته ، أردت أن تشق عصا المسلمين ، قال : لا تثريب يا خليفة رسول الله فبايعه ، هذا أو معناه .

وقال الحافظ أبو علي النيسابوري : سمعتُ ابن خزيمة يقول : جاءني مسلم بن الحجاج فسألني عن هذا الحديث فكتبته له في رقعة وقرأت عليه فقال : هذا حديث يساوي بدنة ، فقلت : يساوي بدنة ؟ . بل هذا يساوي بِدْرة (صرة من ذهب) [وقد رواه الإمام أحمد عن الثقة عن وهيب مختصرًا ، وأخرجه الحاكم في مستدركه من طريق عفان بن مسلم عن وهيب مطولًا كنحو ما تقدم] .

وقال موسى بن عقبة في مغازيه عن سعيد بن إبراهيم : حدثني أبي : أن أباه عبد الرحمن بن عوف كان مع عمر ، وأن محمد بن مسلمة كسر سيف الزبير ثم خطب أبو بكر واعتذر إلى الناس وقال : و الله ما كنت حريصًا على الإمارة يومًا ولا ليلة ، ولا سألتها الله تعالى في سرٍّ ولا علانية ، فقبل المهاجرون مقالته ، وقال عَلِيٌّ والزبير : ما تأخرنا إلا لأننا أُخِّرنا عن المشورة ، وإنا نرى أبا بكر أحق الناس بها إنه لصاحب الغار وإنا لنعرف شرفه وخيره ، ولقد أمره رسول الله ﷺ بالصلاة بالناس وهو حَيٌّ .

وهذا اللائق بعلي رضي الله عنه ، والذي تدل عليه الآثار من شهوده معه الصلوات وخروجه معه إلى ذي القَصَّة بعد موت رسول الله ﷺ كما سنورده ، وبذله له النصيحة والمشورة بين يديه ، وأما ما يأتي من مبايعته إياه بعد موت فاطمة رضي الله عنها وقد ماتت بعد أبيها – عليه الصلاة والسلام – بستة أشهر ، فذلك محمول على أنها بيعة ثانية أزالت ما كان قد وقع من وحشة بسبب الكلام في الميراث ومنعه إياهم ذلك بالنص عن رسول الله ﷺ اهـ . من البداية والنهاية .

وذكر الواقدي عن أشياخه أن أبا بكر بويع يوم قبض رسول الله ﷺ يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة إحدى عشرة من مهاجر رسول الله ﷺ .

* * *

عطاء أبي بكر رضي الله عنه

عن عطاء بن السائب قال : لما استخلف أبو بكر أصبح غاديًا إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتَّجر بها ، فلقيه عمر وأبو عبيدة ، فقالا له : أين تريد يا خليفة رسول الله ؟ قال : السوق . قالا : تصنع ماذا وقد وُلِّيتَ أمر المسلمين ؟ قال : فمن أين أُطْعِمُ عيالي ؟ قالا

له : انطلق حتى نفرض لك شيئًا . فانطلق معهما ففرضوا له كل يوم شطر شاة ومَاكَسُوهُ (المماكسة : انتقاص الثمن) في الرأس والبطن .

وعن حميد بن هلال قال : لما ولي أبو بكر الخلافة قال أصحاب رسول الله ﷺ : افرضوا لخليفة رسول الله ﷺ ما يغنيه . فقالوا : نعم . بُرْدَاه إذا أخلقها وضعهما وأخذ مثلهما ، وظَهْره (الدابة التي تركب) إذا سافر ونفقته على أهله ، كما كان ينفق قبل أن يستخلَف . فقال أبو بكر ﷺ : رضيت .

وعن عمير بن إسحاق قال : خرج أبو بكر وعلى عاتقه عَباءة له ، فقال له رجل : أرني أكفك ، فقال : إليك عني لا تغرني أنت وابن الخطاب عن عيالي .

قال علماء السير : وكان أبو بكر يحلب للحي أغنامهم ، فلما بويع قالت جارية من الحي : الآن لا يَحْلُب لنا منائح دارنا (الغنائم ذوات اللبن) فسمعها ، فقال : بلى لأحلبنها لكم ، وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه عن خُلُق كنت فيه فكان يحلب لهم . [اهـ من صفة الصفوة لابن الجوزي] .

* * *

أعمال أبي بكر

حرص أبي بكر على تنفيذ بعث أسامة :

قال سيف بن عمر التميمي عن أبي ضمرة عن أبيه عن عاصم بن عدي ، قال : نادى منادي أبي بكر من الغد من مُتوفَّى رسول الله ﷺ ليتم بعث أسامة : ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جيش أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجُرف ، وقام أبو بكر في الناس فحمد الله ، وأثنى عليه ، وقال : أيها الناس إنما أنا مثلكم وإني لعلكم تُكَلِفُونَني ما كان رسول الله ﷺ يُطيق ، إن الله تعالى اصطفى محمدًا على العالمين وعصمه من الآفات ، وإنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن استقمت فبايعوني ، وإن زُغْتُ فقوموني ، وإن رسول الله ﷺ قُبض وليس أحد من هذه الأمة يطلبهُ بمظلمة : ضربة سوط فما دونها ، وإن لي شيطانًا يعتريني فإذا أتاني فاجتنبوني .. إلخ ثم أمر بخروج الذين كانوا قد أمرهم رسول الله ﷺ بالمسير إلى تخوم البلقاء من الشام حيث قُتِل زيد بن حارثة ، وجعفر ، وابن رواحة فيُغيروا على تلك الأراضي ، فخَرجوا إلى الجُرف فخيموا به ، وكان بينهم عمر بن الخطاب ، ويقال : وأبو بكر فاستثناه رسول الله ﷺ منهم للصلاة ، فلما ثقل رسول الله ﷺ أقاموا هنالك ، فلما مات عظم الخطب واشتد الحال ونجم النفاق بالمدينة ، وارتد من ارتد من أحياء العرب

حول المدينة ، وامتنع آخرون من أداء الزكاة إلى الصديق ، ولم يبقَ للجمعة قيام في بلد سوى مكة والمدينة ، وكانت (جُوَاثا) من البحرين أول قرية أقامت الجمعة بعد رجوع الناس إلى الحق كما في صحيح البخاري عن ابن عباس كما سيأتي .

وقد كانت ثقيف بالطائف ثبتوا على الإسلام لم يفروا ولم يرتدوا .

والمقصود : أنه لما وقعت هذه الأمور أشار كثير من الناس على الصديق أن لا ينفذ جيش أسامة لاحتياجه إليه فيما هو أهم ، لأن ما جهز بسببه في حال السلامة ، وكان من جملة مَن أشار بذلك عمر بن الخطاب فامتنع الصديق من ذلك وأبى أشد الإباء ، إلا أن ينفذ جيش أسامة وقال : و اللّه لا أحل عقدة عقدها رسول اللّه ﷺ ، ولو أن الطير تَخَطَّفنا والسباع من حول المدينة ، ولو أن الكلاب جَرَتْ بأرجل أمهات المؤمنين ؛ لأجَهزَنَّ جيش أسامة وآمر الحرس يكونون حول المدينة .

فكان خروج الجيش في ذلك الوقت من أكبر المصالح والحالة تلك ، فصاروا لا يمرون بحي من أحياء العرب إلا أُرْعِبوا منهم ، وقالوا : ما خرج هؤلاء من قوم إلا وبهم منعة شديدة ، فأقاموا أربعين يومًا ، ويقال : سبعين يومًا ، ثم أتوا سالمين غانمين ، ثم رجعوا فجهزهم حينئذ مع الأحياء الذين أخرجهم لقتال المرتدة ، ومانعي الزكاة على ما سيأتي تفصيله .

* * *

تصدي الصديق لقتال المرتدين ومانعي الزكاة

إن رسول اللّه ﷺ لما توفي ارتد أحياء كثيرة من الأعراب ، ونجم النفاق بالمدينة ، وانحاز إلى مسيلمة الكذاب بنو حنيفة وخلق كثير باليمامة ، والتفت على طُلَيحَةَ الأسدي بنو أسد وطيئ ، وبشر كثير أيضًا ، وادعى النبوة أيضًا كما ادعاها مسيلمة الكذاب ، وعظم الخطب واشتد الحال ، ونفذ الصديق جيش أسامة ، فقل الجند عن الصديق ، فطمعت كثير من الأعراب في المدينة ، وراموا أن يهجموا عليها ، فجعل الصديق على أنقاب المدينة حُرَّاسًا يبيتون بالجيوش حولها ، فمن أمراء الحرس : علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد اللّه ، وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد اللّه بن مسعود ، وجعلت وفود العرب تقدم المدينة ، يقرون بالصلاة ويمتنعون عن أداء الزكاة ، ومنهم من امتنع من دفعها إلى الصديق ، وذكر أن منهم من احتج بقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣] قالوا : فلسنا ندفع زكاتنا إلا إلى مَنْ صلاتُه سكن لنا وأنشد بعضهم :

أطعنا رسول الله إذا كان بيننا فوا عجبًا ما بال ملك أبي بكر

وقد تكلم الصحابة مع الصديق في أن يتركهم وماهم عليه من منع الزكاة ويتألفهم حتى يتمكن الإيمان في قلوبهم ، ثم هم بعد ذلك يُزَكُّونَ ، فامتنع الصديق من ذلك وأباه .

وقد روى الجماعة في كتبهم سوى ابن ماجه عن أبي هريرة أن عمر بن الخطاب قال لأبي بكر : عَلَام تُقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : « **أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ؟** » فقال أبو بكر : والله لو منعوني عَنَاقًا – وفي رواية : عِقَالًا – كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعها ، إن الزكاة حق المال ، والله لأُقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة ، قال عمر : فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال ، فعرفت أنه الحق ، قلت : وقد قال الله تعالى : ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة : ٥] .

وثبت في الصحيحين : « **بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان** » .

وقال محمد بن إسحاق : ارتدت العرب عند وفاة رسول الله ﷺ ما خلا أهل المسجدين مكة والمدينة ، وارتدت أسد ، وغطفان ، وعليهم طليحة ابن خويلد الأسدي الكاهن ، وارتدت كندة ومن يليها ، وعليهم الأشعث بن قيس الكندي ، وارتدت مَذْحج ومن يليها ، وعليهم الأسود بن كعب العنسي الكاهن ، وارتدت ربيعة مع المعرور بن النعمان بن المنذر ، وكانت حنيفة مقيمة على أمرها مع مسيلمة بن حبيب الكذاب ، وارتدت سليم مع الفجأة واسمه أنس بن عبد ياليل ، وارتدت بنو تميم مع سجاح الكاهنة .

وقال القاسم بن محمد : اجتمعت أسد وغطفان وطيئ على طُلَيحة الأسدي ، وبعثوا وفودًا إلى المدينة ، فنزلوا على وجوه الناس فأنزلوهم إلا العباس ، فجاءوا بهم إلى أبي بكر ، على أن يقيموا الصلاة ولا يؤتوا الزكاة فعزم الله لأبي بكر على الحق ، وقال : لو منعوني عقالًا لجاهدتهم ، فردهم فرجعوا إلى عشائرهم فأخبروهم بقلة أهل المدينة ، وأطعموهم فيها ، فجعل أبو بكر الحرس على أنقاب المدينة ، وألزم أهل المدينة بحضور المسجد وقال : إن الأرض كافرة وقد رأى وفدهم منكم قلة ، وإنكم لا تدرون ليلًا يأتون أم نهارًا ، وأدناهم منكم على بَريد ، وقد كان القوم يؤملون أن نقبل منهم ونوادعهم وقد أبينا عليهم ، فاستعدو وأعدوا ، فما لبثوا إلا ثلاثًا حتى طرقوا المدينة غارة ، وخلفوا نصفهم بذي حُسًى ليكونوا رِدْءًا لهم ، وأرسل الحرس إلى أبي بكر يخبرونه بالغارة ، فبعث إليهم

أن الزموا مكانكم وخرج أبو بكر في أهل المسجد على النواضح (النوق التي تحمل الماء) فانتكس العدو واتبعهم المسلمون على إبلهم ، حتى بلغوا ذا حسًى فخرج عليهم الردء فالتقوا مع الجمع فكان الفتح ونصر اللّه المسلمين عليهم .

وفي جمادى الآخرة ركب الصديق في أهل المدينة وأمراء الأنقاب ، إلى منَ حول المدينة من الأعراب الذين أغاروا عليها ، فلما تواجه هو وأعداؤه من بني عبس ، وبني مرة ، وذبيان ، ومن ناصب معهم من بني كنانة ، وأمدهم طليحة بابنه جبال ، فلما تواجه القوم كان الأعراب قد صنعوا مكيدة وهي أنهم عمدوا إلى أنحاء (مثل القرب) فنفخوها ثم أرسلوها من رؤوس الجبال ، فلما رأتها إبل أصحاب الصديق نفرت وذهبت كل مذهب ، فلم يملكوا من أمرها شيئًا إلى الليل ، وحتى رجعت إلى المدينة .

فلما وقع ما وقع ظن القوم بالمسلمين الوَهنَ ، وبعثوا إلى عشائرهم من نواحي أخَر ، فاجتمعوا ، وبات أبو بكر ﷺ قائمًا ليله يعبئ الناس ، ثم خرج على تعبئة من آخر الليل ، وعلى ميمنته النعمان بن مقرّن ، وعلى الميسرة أخوه عبد اللّه بن مقرّن ، وعلى الساقة أخوهما سويد بن مقرن ، فما طلع الفجر إلا وهم والعدو في صعيد واحد ، وما سمعوا للمسلمين حسًا ولا هَمْسًا، حتى وضعوا فيهم السيوف ، فما طلعت الشمس حتى ولَّوهم الأدبار ، وغلبوهم واستولوا على أكثر ركائبهم ، واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القَصَّة ، وكان ذلك أولَ الفتح ، وذلَّ به المشركون ، وعزَّ به المسلمون ، ووثب بنو ذبيان وعبس على من فيهم من المسلمين فقتلوهم، وفعل من وراءهم كفعلهم فحلف أبو بكر ليقتلن من كل قبيلة عدد من قتلوا من المسلمين وزيادة .

فكانت هذه الواقعة من أكبر العون على نصر الإسلام وأهله ، وذلك أنه عز المسلمون في كل قبيلة ، وذل الكفار في كل قبيلة ورجع أبو بكر إلى المدينة مؤيدًا منصورًا ، سالمًا غانمًا .

وطرقت المدينة في الليل صدقات عدي بن حاتم وصفوان ،والزبرقان ، إحداها في أول الليل والثانية في أوسطه ، والثالثة في آخره ، وقدم بكل واحدة منهن بشير من أمراء الأنقاب ، فكان الذي بَشَّر بصفوان سعد بن أبي وقاص ، والذي بشر بالزبرقان عبد الرحمن بن عوف ، والذي بشر بعدي بن حاتم عبد اللّه بن مسعود ، ويقال : أبو قتادة الأنصاري ﷺ وذلك على رأس ستين ليلة من مُتوفَّى رسول اللّه ﷺ .

* * *

معركة الرَّبَذَة

قَدِمَ أسامة بن زيد بعد ذلك بليال فاستخلفه أبو بكر الصديق على المدينة ، وأمرهم أن يريحوا ظهرهم (ركائبهم) ، ثم ركب أبو بكر في الذين كانوا معه في الوقعة المتقدمة ، إلى ذي القصة ، فقال له المسلمون : لو رجعت إلى المدينة وأرسلتَ رجلًا ، فقال : و اللَّه لا أفعل ، ولأواسينكم بنفسي ، فخرج في تعبئة إلى ذي حُسًى وذي القَصَّة ، والنعمان وعبد اللَّه وسويد بنو مقرن على ما كانوا عليه ، حتى نزلوا على أهل الربذة بالأبرق وهناك جماعة من بني عبس وذبيان ، وطائفة من بني كنانة ، فاقتتلوا فهزم اللَّه الحارث وعوفًا ، وأُخِذَ الحُطَيئَةُ أسيرًا فطارت بنو عبس وبنو بكر ، وأقام أبو بكر ﷺ على الأبرق أيامًا وقد غلب بني ذبيان على البلاد وقال : حرام على بني ذبيان أن يتملكوا هذه البلاد ، إذ غَنَّمَنَاهَا اللَّهُ ، وحمى الأبرق لخيول المسلمين وأرعى سائر بلاد الربذة (أي جعلها مراعي لأنعام المسلمين) ولما فرت عبس وذبيان صاروا إلى مؤازرة طليحة وهو نازل على بُزاخة .

* * *

خروجه إلى ذي القَصَّة وعقد ألوية الأمراء

وبعد أن استراح جيش أسامة ، ركب الصديق أيضًا في الجيوش الإسلامية شاهرًا سيفه مسلولًا ، من المدينة إلى ذي القصة ، وهي من المدينة على مرحلة ، وعلي بن أبي طالب يقود راحلة الصديق ﷺ ، كما سيأتي فسأله الصحابة ، منهم عليٌّ وغيره ، وألحوا عليه أن يرجع إلى المدينة ، وأن يبعث لقتال الأعراب غيره ممن يؤمره من الشجعان الأبطال ، فأجابهم إلى ذلك ، وعقد لهم الألوية لأحد عشر أميرًا ، على ما سنفصله قريبًا إن شاء اللَّه .

وعن عائشة ﵂ قالت : خرج أبي شاهرًا سيفه راكبًا على راحلته إلى وادي القصة ، فجاء علي بن أبي طالب فأخذ بزمام راحلته فقال : إلى أين يا خليفة رسول اللَّه ؟ أقول لك ما قال رسول اللَّه ﷺ يوم أُحُد : « **شِمْ سيفك فواللَّه لئن أُصبنا بك لا يكون للإسلام بعدك نظام أبدًا** » فرجع وأمضى الجيش .

وقال سيف بن عمر عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد : لما استراح وجنده ، وقد جاءت صدقات كثيرة تفضل عنهم ، قطع أبو بكر البعوث ، وعقد الألوية : فعقد أحد عشر لواءً .

عقد لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد ، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح إن أقام له .

ولعكرمة بن أبي جهل وأمره بمسيلمة .

وبعث شرحبيل بن حَسَنة في أثره إلى مسيلمة الكذاب ثم إلى بني قُضاعة .

وللمهاجر بن أبي أمية ، وأمره بجنود العنسي ومعونة الأبناء على قيس ابن مكشوح - قلت : وذلك لأنه كان قد نزع يده من الطاعة على ما سيأتي .

قال : ولخالد بن سعيد بن العاص إلى مشارف الشام .

ولعمرو بن العاص إلى جماع قضاعة ووديعة والحارث .

ولحذيفة بن محصن الغطفاني وأمره بأهل « دبا » وبعرفجة وهرثمة وغير ذلك .

ولطرفة بن حاجب ، وأمره ببني سليم ومن معهم من هوزان .

ولسويد بن مقرن وأمره بتهامة اليمن .

وللعلاء بن الحضرمي وأمره بالبحرين ﷺ .

وقد كتب لكل أمير (كتاب) عهده على حدته ، ففَصَل كل أمير بجنده من ذي القصة ، ورجع الصديق إلى المدينة .

واللّه إنها لكرامات تشبه المعجزات . حيث عقد أبو بكر لأحد عشر قائدًا في وقت واحد ليحاربوا جميع المرتدين على كثرة هؤلاء المرتدين وقلة أعداد جيوش المسلمين .

* * *

مسيرة الأمراء من ذي القَصَّة على ما عوهدوا عليه

وكان سيد الأمراء ورأس الشجعان الصناديد أبو سليمان خالد بن الوليد .

روى **الإمام أحمد** من طريق وحشي بن حرب ، أن أبا بكر الصديق لما عقد لخالد بن الوليد على قتال أهل الردة ، قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **نعم عبد اللَّه وأخو العشيرة خالد بن الوليد ، سيف من سيوف اللَّه سله اللَّه على الكفار والمنافقين** » . ولما توجه خالد من ذي القصة وفارق الصديق ، واعده أنه سيلقاه من ناحية خيبر بمن معه من الأمراء - وأظهروا ذلك ليرعِبوا الأعراب - وأمره أن يذهب أولًا إلى طليحة الأسدي ، ثم يذهب بعده إلى بني تميم .

وكان طليحة بن خويلد في قومه بني أسد ، وفي غطفان ، وانضم إليه بنو عبس ، وذبيان ، وبعث إلى بني جَديلة ، والغوث وطيئ يستدعيهم إليه فبعثوا أقوامًا منهم بين أيديهم ، ليلحقوهم على أثرهم سريعًا .

وكان الصديق قد بعث عدي بن حاتم قبل خالد بن الوليد ، وقال له : أدرك قومك لا يلحقوا بطليحة ، فيكون دمارهم ، فذهب عدي إلى قومه بني طيئ فأمرهم أن يبايعوا الصديق وأن يراجعوا أمر اللَّه ، فقالوا : لا نبايع أبا الفضل أبدًا - يعنون أبا بكر ﷺ - فقال : واللَّه ليأتينكم جيش فلا يزالون يقاتلونكم حتى تعلموا أنه أبو الفحل الأكبر ، ولم يزل عدي يفتل لهم في الذروة والغارب (يجادلهم بالحكمة) حتى لانوا ، وجاء خالد في الجنود وعلى مقدمة الأنصار الذين معه ثابت بن قيس بن شَمَّاس ، وبعث بين يديه ثابت بن أقرم ، ، وعُكَّاشة بن مِحْصَن طليعة ، فتلقاهما طليحة وأخوه سلمة فيمن معهما ، فلما وجدا ثابتًا وعكاشة تبارزوا فقتل عكاشة جبال بن طليحة وقيل : بل كان قتل جبالًا قبل ذلك وأخذ ما معه وحمل عليه طليحة ، فقتله ، وقتل هو وأخوه سلمةُ ثابتَ بنَ أقرم ، وجاء خالد بمن معه فوجدهما صريعين ، فشق ذلك على المسلمين .

ومال خالد على بني طيئ ، فخرج إليه عدي بن حاتم فقال : أنظرني ثلاثة أيام ، فإنهم قد استنظروني حتى يبعثوا إلى من تعجل منهم إلى طليحة حتى يرجعوا إليهم ، فإنهم يخشون إن تابعوك أن يقتل طليحة من سار إليه منهم ، وهذا أحب إليك من أن يعجلهم إلى النار .

فلما كان بعد ثلاث جاءه عدي في خمسمائة مقاتل ممن راجع الحق ، فانضافوا إلى جيش خالد وقصد خالد بني جَديلة فقال له : يا خالد أجلْني أيامًا حتى آتيهم فلعل اللَّه أن ينقذهم كما أنقذ طيئًا ، فأتاهم عدي فلم يزل بهم حتى تابعوه ، فجاء خالدًا بإسلامهم ، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب .

فكان عدي خير مولود وأعظمه بركة على قومه ﷺ .

قالوا : ثم سار خالد حتى نزل بأجأ وسلمى ، وعبأ جيشه هنالك والتقى مع طليحة الأسدي بمكان يقال له (بُزَاخة) ، ووقفت أحياء كثيرة من الأعراب ينظرون على من تكون الدائرة ، وجاء طليحة فيمن معه من قومه ومن التف معهم وانضاف إليهم ، وقد حضر معه عيينة بن حصن في سبعمائة من قومه ، بني فزارة ، واصطف الناس وجاء طليحة ملتفًّا في كساء له يتنبأ لهم ينظر ما يوحي إليه - فيما يزعم - وجعل عيينة يقاتل ما يقاتل ، حتى إذا ضجر من القتال يجيء إلى طليحة وهو ملتف في كسائه فيقول : أجاءك جبريل ؟ فيقول : لا ، فيرجع فيقاتل ، ثم يرجع فيقول له مثل ذلك فيرد عليه مثل ذلك ، فلما كان في الثالثة قال له : هل جاءك جبريل ؟ قال : نعم ، قال : فما قال لك ؟ قال : قال لي : إن لك رحاءً كرحاه ، وحديثًا لا تنساه ، قال : يقول عيينة : أظن أن قد علم اللَّه أنه سيكون لك حديث لا تنساه . ثم قال : يا بني فزارة انصرفوا ، وانهزموا ،وانهزم الناس عن طليحة ، فلما جاءه المسلمون ركب على فرس كان قد أعدها لنفسه ، وأركب امرأته النوار على بعير له ، ثم انهزم بها إلى الشام وتفرق جمعه ، وقد قتل اللَّه طائفة ممن كان معه ، فلما أوقع اللَّه بطليحة وفزارة ما أوقع ، قالت بنو عامر وسليم وهوزان : ندخل فيما خرجنا منه ، ونؤمن باللَّه ورسوله ، ونسلم لحكمه في أموالنا وأنفسنا .

قلت : وقد كان طليحة الأسدي ارتد في حياة النبي ﷺ فلما مات ﷺ قام بمؤازرته عيينة بن حصن ، وارتد عن الإسلام ، وقال لقومه : واللَّه لنبي من بني أسد أحب إليَّ من نبيٍّ من بني هاشم .

* * *

وقعة أخرى مع جيش سلمى بنت مالك

كان قد اجتمع طائفة كثيرة من الفلال يومَ بُزاخةَ من أصحاب طليحة من بني غطفان فاجتمعوا إلى امرأة يقال لها : أم زمل - سلمى بنت مالك ابن حذيفة - وكانت من سيدات العرب كأمها أم قرفة ، وكان يضرب بأمها المثل في الشرف لكثرة أولادها وعزة قبيلتها وبيتها فلما اجتمعوا إليها هيجتهم لقتال خالد ، فهاجوا لذلك ، وانضم إليهم آخرون من بني سليم وطيئ وهوزان وأسد ، فصاروا جيشًا كثيفًا وتفحل أمر هذه المرأة ، فلما سمع بهم خالد بن الوليد صار إليهم واقتتلوا قتالاً شديدًا ، وهي راكبة على جمل أمها الذي كان يقال له : من يمس جملها فله مائة من الإبل وذلك لعزها ،

فهزمهم خالد ، وعقر جملها وقتلها ، وبعث بالفتح إلى الصديق ﷺ .

* * *

قصة الفجاءة وسبب إحراقه بالنار

واسمه إياس بن عبد الله بن عبد ياليل بن عميرة بن خفاف من بني سليم ، قال ابن إسحاق : وقد كان الصديق حرق الفجاءة بالبقيع في المدينة ، وكان سببه أنه قدم عليه فزعم أنه أسلم ، وسأله أن يجهز معه جيشًا يقاتل به أهل الردة ، فجهز معه جيشًا فلما سار جعل لا يمر بمسلم ولا مرتد إلا قتله وأخذ ماله ، فلما سمع الصديق بعث وراءه جيشًا فرده ، فلما أمكنه بعث به إلى البقيع ، فجمعت يداه إلى قفاه وألقي في النار فحرقه وهو مقموط (مقيد) .

* * *

قصة سجاح وبني تميم

كانت بنو تميم قد اختلفت آراؤهم أيام الردة ، فمنهم من ارتد ومنع الزكاة ، ومنهم من بعث بأموال الصدقات إلى الصديق ، ومنهم من توقف لينظر في أمره ، فبينما هم كذلك إذا أقبلت سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان التغلبية من الجزيرة ، وهي من نصارى العرب ، وقد ادعت النبوة ومعها جنود من قومها ومن التف بهم ، وقد عزموا على غزو أبي بكر الصديق ، فلما مرت ببلاد بني تميم دعتهم إلى أمرها ، فاستجاب لها عامتهم ، وكان ممن استجاب لها مالك بن نويرة التميمي ، وعطارد بن حاجب ، وجماعة من سادات أمراء بني تميم ، وتخلف آخرون منهم عنها ، ثم اصطلحوا على أن لا حرب بينهم إلا أن مالك بن نويرة لما وادعها ثناها عن عَوْدها ، وحرضها على بني يربوع ، ثم اتفق الجميع على قتال الناس ، وقالوا : بمن نبدأ ؟ فقالت لهم - فيما تسجعه - : أعدوا الركاب ، واستعدوا للنهاب ، ثم أغيروا على الرباب ، فليس دونهم حجاب .

ثم إن سجاح قصدت بجنودها اليمامة ، لتأخذها من مسيلمة بن حبيب الكذاب ، فهابه قومها ، وقالوا إنه استفحل أمره وعظم ، فقالت لهم فيما تقوله : عليكم باليمامة ، دفوا دفيف الحمامة ، فإنها غزوة صرامة ، لا تلحقكم بعدها ملامة ، قال : فعمدوا لحرب مسيلمة ، فلما سمع بمسيرها إليه خافها على بلاده ، وذلك أنه مشغول بمقاتلة ثُمامة بن أُثال الذي ساعده عكرمة بن أبي جهل بجنود المسلمين ، وهم نازلون ببعض

بلاده ينتظرون قدوم خالد كما سيأتي ، فبعث إليها يستأمنها ويضمن لها أن يعطيها نصف الأرض الذي كان لقريش لو عدَلَت ، فقد رده اللَّه عليك فحباك به ، وراسلها ليجتمع بها في طائفة من قومه ، فركب إليها في أربعين من قومه وجاء إليها فاجتمعا في خيمة فلما خلا بها وعرض عليها ما عرض من نصف الأرض قبلت ذلك .

وقد كان مسيلمة - لعنه اللَّه - شرع لمن اتبعه أن الأعزب يتزوج فإذا ولد له ذكر فإنه يحرم عليه النساء حينئذ إلا أن يموت ذلك الولد الذكر فتحل له النساء حتى يولد له ذكر. هذا مما اقترحه - لعنه اللَّه - من تلقاء نفسه .

ثم انثنت سجاح راجعة إلى بلادها وذلك حين بلغها دُنوُّ خالد من أرض اليمامة فكرّت راجعة إلى الجزيرة بعد ما قبضت من مسيلمة نصف خراج أرضه ، فأقامت في قومها بني تغلب إلى زمان معاوية فأجلاهم منها عام الجماعة .

* * *

مالك بن نويرة اليربوعي التميمي

كان مالك قد صانع سجاح حين قدمت من أرض الجزيرة ، فلما اتصلت بمسيلمة - لعنهما اللَّه - ثم ترحلت إلى بلادها ندم مالك بن نويرة على ما كان من أمره ، وتلوم في شأنه وهو نازل بمكان يقال له : البطاح ، فقصدها خالد بجنوده ، وتأخرت عنه الأنصار ، وقالوا : إنا قضينا ما أمرنا به الصديق ، فقال لهم خالد : إن هذا أمر لابد من فعله ، وفرصة لا بد من انتهازها وإنه لَما يأتني فيها كتاب ، وأنا الأمير وإليّ ترد الأخبار ، ولست بالذي أجبركم على المسير ، وأنا قاصد البطاح . فسار يومين ثم لحقه رسول الأنصار يطلبون منه الانتظار ، فلحقوا به ، فلما وصلوا البطاح وعليها مالك بن نويرة ، بثَّ خالد السرايا في البطاح يدعون الناس ، فاستقبله أمراء بني تميم بالسمع والطاعة ، وبذلوا الزكوات ، إلا ما كان من مالك بن نويرة فإنه متحير في أمره متنح عن الناس ، فجاءته السرايا فأسروه وأسروا معه أصحابه ، واختلفت السرية فيهم ، فشهد أبو قتادة - الحارثُ بن رِبْعي الأنصاري - أنهم أقاموا الصلاة ، وقال آخرون : إنهم لم يؤذِّنوا ولا صلوا ، فيقال: إن الأسارى باتوا في كُبولهم (قيودهم) في ليلة شديدة البرد ، فنادى منادي خالد : أن أدفئوا أسراكم فظن القوم أنه أراد القتل فقتلوهم ، وقَتَل ضرار بن الأزور مالك بن نويرة ، فلما سمع الداعية خرج وقد فرغوا منهم، فقال : إذا أراد اللَّه أمرًا أصابه ، واصطفى خالد امرأة مالك بن نويرة ، وهي أم تميم ابنة المنهال ، وكانت جميلة ، فلما حَلَّتْ بنى بها ، ويقال :

بل استدعى خالد مالك بن نويرة فأنَّبه على ما صدر منه من متابعة سجاح ، وعلى منعه الزكاة ، وقال ألم تعلم أنها قرينة الصلاة ؟ فقال مالك : إن صاحبكم كان يزعم ذلك ، فقال : أهو صاحبنا وليس بصاحبكم ؟ : يا ضرار اضرب عنقه ، فضربت عنقه .

والمقصود : أنه لم يزل عمر بن الخطاب ﷺ يحرض الصديق على عزل خالد عن الأمر فيقول : إن في سيفه لرهقًا ، حتى بعث الصديق إلى خالد بن الوليد فقدم عليه في المدينة ، وقد لبس درعه التي من حديد وقد صدئت من كثرة الدماء ، وغرز في عمامته النشاب المضمخ بالدماء ، فلما دخل المسجد قام إليه عمر بن الخطاب فانتزع الأسهم من عمامة خالد فحطمها وقال : أرياءً قتلت امرأً مسلمًا ثم نزوت على امرأته ؟!! والله لأرجمنك بالجنادل ، وخالد لا يكلمه ، ولا يظن إلا أنَّ رَأى الصديق فيه كرأي عمر حتى دخل على أبي بكر فاعتذر إليه فعذره ، وتجاوز عنه فيما كان منه في ذلك ، ودفع دية مالك بن نويرة ، فخرج من عنده وعمر جالس في المسجد ، فقال خالد : هلم إليَّ يا ابن أم شملة ، فلم يرد عليه ،وعرف أن الصديق قد رضي عنه ، واستمر أبو بكر بخالد على الإمرة ، وإن كان قد اجتهد في قتل مالك بن نويرة وأخطأ في قتله ، كما أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى أبي جذيمة فقتل أولئك الأسارى الذين قالوا : صبأنا صبأنا ، ولم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فوداهم رسول الله ﷺ حتى رد إليهم ميلغة الكلب ، ورفع يديه وقال : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالدًا ومع هذا لم يعزل خالدًا عن الإمرة .

* * *

مقتل مسيلمة الكذاب لعنه الله

لما رضي الصديق عن خالد بن الوليد وعذره بما اعتذر به ، بعثه إلى قتال بني حنيفة باليمامة ، وأوعب معه المسلمون ، وعلى الأنصار ثابت بن قيس بن شماس ، فسار لا يمر بأحد من المرتدين إلا نكل بهم ، وقد اجتاز بخيول لأصحاب سجاح فشردهم وأمر بإخراجهم من جزيرة العرب ، وأردف الصديقُ خالدًا بسرية لتكون رِدْءًا له من ورائه ، وقد كان بعث قبله إلى مسيلمة عكرمة بن أبي جهل ، وشرحبيل بن حسنة ، فلم يقاوما بني حنيفة ؟ لأنهم في نحو أربعين ألفًا من المقاتلة ، فعجِلَ عكرمة قبل مجيء صاحبه شرحبيل فناجزهم فنُكب ، فانتظر خالدًا فلما سمع مسيلمة بقدوم خالد عسكر بمكان يقال له : « عَقْربَا » في طرف اليمامة والريف وراء ظهورهم ، وندب الناس وحثهم ، فحشد له أهل اليمامة ، وجعل على مجنبتي جيشه المحكم بن الطفيل ، والرَّجال بن

عُنفُوة بن نهشل ، وكان الرَّجَّال هذا صديقه الذي شهد له أنه سمع رسول اللّٰه ﷺ يقول إنه قد أشرك معه مسيلمة بن حبيب في الأمر ، وكان هذا الملعون من أكبر ما أضل أهل اليمامة ، حتى اتبعوا مسيلمة - لعنهما اللّٰه - وقد كان الرَّجَّال هذا قد وفد إلى النبي ﷺ وقرأ البقرة ، وجاء زمنَ الردة إلى أبي بكر فبعثه إلى أهل اليمامة يدعوهم إلى اللّٰه ويثبتهم على الإسلام فارتد مع مسيلمة وشهد له بالنبوة .

قال سيف بن عمر عن طلحة عن عكرمة عن أبي هريرة : كنت يومًا عند النبي ﷺ في رهط معنا الرجال بن عنفوة ، فقال : إن فيكم لرجلًا ضرسه في النار أعظم من أُحُد ، فهلك القوم وبقيت أنا والرجال وكنت متخوفًا لها ، حتى خرج الرجال مع مسيلمة وشهد له بالنبوة فكانت فتنة الرجال أعظم من فتنة مسيلمة . [رواه ابن إسحاق عن شيخ عن أبي هريرة] .

وقرب خالد وقد جعل على المقدمة شرحبيل بن حسنة ،وعلى المجنبتين زيدًا وأبا حذيفة ، وقد مرت المقدمة في الليل بنحو من أربعين - وقيل ستين - فارسًا ، عليهم مَجَاعَةُ ابن مرارة ، وكان قد ذهب لأخذ ثأر له في بني تميم وبني عامر وهو راجع إلى قومه فأخذوهم فلما جاء بهم خالد عن آخرهم فاعتذروا إليه فلم يصدقهم ، وأمر بضرب أعناقهم كلهم ، سوى مجاعة فإنه استبقاه مقيدًا عنده ؛ لعلمه بالحرب والمكيدة ، وكان سيدًا في بني حنيفة ، شريفًا مطاعًا ، ويقال : إن خالدًا لما عرضوا عليه قال لهم : ماذا تقولون يا بني حنيفة ؟ قالوا : نقول : منا نبي ومنكم نبي ، فقتلهم إلا واحدًا اسمه سارية ؟ هذا الرجل - يعني مجاعة بن مرارة - فاستبقاه خالد مقيدًا ، وجعله في الخيمة مع امرأته ، وقال : استوصي به خيرًا .

فلما توجه الجيشان قال مسيلمة لقومه : اليوم يوم الغيرة ، اليوم إن هزمتم تستنكح النساء سبيات ، وينكحن غير حظيات ، فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نسائكم . وتقدم المسلمون حتى نزل بهم خالد على كثيب يشرف على اليمامة فضرب به عسكره ،وراية المهاجرين مع سالم مولي أبي حذيفة ، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس ، والعرب على راياتها ، ومجاعة بن مرارة مقيد في الخيمة مع أم تميم امرأة خالد ، فاصطدم المسلمون والكفار فكانت جولة وانهزمت الأعراب حتى دخلت بنو حنيفة خيمة خالد بن الوليد وهموا بقتل أم تميم ، حتى أجارها مجاعة ، وقال : نعمت الحرة هذه .

وقد قُتِل الرَّجَّال بن عنفوة - لعنه اللّٰه - في هذه الجولة ، قتله زيد بن الخطاب ، ثم تلاوم الصحابة بينهم ، وقال ثابت بن قيس بن شماس : بئس ما عودتم أقرانكم ، ونادوا من كل جانب : أخلصنا يا خالد ، فخلصت ثلة من المهاجرين والأنصار ، وحميَ البراء

ابن معرور ، وكان إذا رأى الحرب أخذته العرواء (الرعشة) فيجلس على ظهر الرحال ، ثم يثور كما يثور الأسد ، وقاتلت بنو حنيفة قتالًا لم يعهد مثله ، وجعلت الصحابة يتواصون بينهم ، ويقولون : يا أصحاب سورة البقرة ، بطل السحر اليوم وحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض إلى أنصاف ساقيه وهو حامل لواء الأنصار بعدما تحنط وتكفن فلم يزل ثابتًا حتى قُتِلَ هناك .

وقال المهاجرون لسالم مولى أبي حذيفة : أتخشى أن نؤتى من قِبَلِك ؟ فقال : بئس حامل القرآن أنا إذًا .

وقال زيد بن الخطاب : أيها الناس عَضُّوا على أضراسكم واضربوا في عدوكم وامضوا قُدُمًا ، وقال : والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحجتي ، فقتل شهيدًا ﷺ .

وقال أبو حذيفة : يا أهل القرآن : زينوا القرآن بالفعال ، وحمل فيهم حتى أبعدهم وأصيب ﷺ .

وحمل خالد بن الوليد حتى جاوزهم وصار تجاه مسيلمة وجعل يترقب أن يصل إليه فيقتله ، ثم رجع ثم وقف بين الصفين ودعا البراز ، وقال : أنا ابن الوليد العود ، أنا ابن عامر وزيد ، ثم نادى بشعار المسلمين - وكان شعارهم يومئذ يا محمداه - وجعل لا يبرز له أحد إلا قتله ، ولا يدنو منه شيء إلا أكله ، ودارت رحى المسلمين ثم اقترب من مسيلمة فعرض عليه النصف والرجوع إلى الحق ، فجعل شيطان مسيلمة يلوي عنقه لا يقبل منه شيئًا ، وكلما أراد مسيلمة أن يقارب من الأمر صرفه عنه شيطانه ، فانصرف عنه خالد ، وقد ميز خالد المهاجرين من الأنصار من الأعراب ، وكل بني أب على رايتهم ، يقاتلون تحتها ، حتى يعرف الناس من أين يُؤْتَوْنَ ؟ وصبرت الصحابة في هذا الموطن صبرًا لم يعهد مثله ، ولم يزالوا يتقدمون إلى نحور عدوهم حتى فتح الله عليهم ، وولى الكفار الأدبار ، واتبعوهم يقتلون في أقفائهم ، ويضعون السيوف في رقابهم حيث شاءوا ، حتى ألجئوهم إلى حديقة الموت ، وقد أشار عليكم مُحَكِّم اليمامة - وهو محكم ابن الطفيل لعنه الله - بدخولها ، فدخلوها وفيها مسيلمة عدو الله ، وأدرك عبد الرحمن بن أبي بكر محكم بن الطفيل فرماه بسهم في عنقه وهو يخطب فقتله ، وأغلقت بنو حنيفة الحديقة عليهم ، وتحصنوا بها ، وأحاط بهم الصحابة ، وقال البراء بن مالك : يا معشر المسلمين ، ألقوني عليهم في الحديقة ، فاحتملوه فوق الجُحَف ورفعوها بالرماح حتى ألقوه عليهم من فوق سورها ، فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحه ، ودخل

المسلمون الحديقة من حيطانها وأبوابها يقتلون من فيها من المرتدة من أهل اليمامة حتى خلصوا إلى مسيلمة - لعنه الله - وإذا هو واقف في ثلمة جدار كأنه جمل أورق وهو يريد يتساند ، لا يعقل من الغيظ ، وكان إذا اعتراه شيطانه أزبد حتى يخرج الزبد من شدقيه ، فتقدم إليه وحشي بن حرب مولى جبير بن مطعم - قاتل حمزة - فرماه بحربته فأصابه وخرجت من الجانب الآخر ، وسارع إليه أبو دُجانة سِماك بن خَرَشة ، فضربه بالسيف فسقط ، فنادت امرأة من القصر : وا أمير الوضاءة ، قتله العبد الأسود فكان جملة مَن قتلوا في الحديقة وفي المعركة قريبًا من عشرة آلاف مقاتل ، وقيل : أحد وعشرون ألفًا ، وقتل من المسلمين ستمائة ، وقيل : خمسمائة ، فاللّٰه أعلم .

وفيهم من سادات الصحابة وأعيان الناس عدد غير قليل ، وخرج خالد وتبعه مُجاعة ابن مُرارة يرسف في قيوده ، فجعل يريه القتلى ليعرفه بمسيلمة ، فلما مروا بالرجال بن عنفوة ، قال له خالد : أهذا هو ؟ قال : لا ، و اللّٰه هذا خير منه ، هذا الرجال بن عنفوة ، قال سيف بن عمر : ثم مروا برجل أصفر أخنس ، فقال : هذا صاحبكم ، فقال خالد : قبحكم اللّٰه على اتباعكم هذا ، ثم بعث خالد الخيول حول اليمامة يلتقطون ما حول حصونها من مال وسبي ، ثم عزم على غزو الحصون ولم يكن بقي فيها إلا النساء والصبيان والشيوخ الكبار ، فخدعه مجاعة فقال : إنها ملأى رجالًا ومقاتلة فهلمَّ فصالحني عنها ، فصالحه خالد لما رأى بالمسلمين من الجهد وقد كلُّوا من كثرة الحروب والقتال ، فقال : دعني حتى أذهب إليهم ليوافقوني على الصلح ، فقال : اذهب . فسار إليهم مجاعة فأمر النساء أن يلبسن الحديد ويبرزن على رؤوس الحصون ، فنظر خالد فإذا الشرفات ممتلئة من رؤوس الناس فظنهم كما قال مجاعة فانتظر الصلح ، ودعاهم خالد إلى الإسلام فأسلموا عن آخرهم ورجعوا إلى الحق ، ورد عليهم خالد بعض ماكان أخذ من السبي ، وساق الباقين إلى الصديق ، وقد تسرى علي بن أبي طالب بجارية منهم ، وهي أم ابنه محمد الذي يقال له : محمد ابن الحنفية .

* * *

ردة أهل البحرين وعودتهم إلى الإسلام

وكان من خبرهم أن رسول اللّٰه ﷺ كان قد بعث العلاء بن الحضرمي إلى ملكها ، المنذر بن ساوى العبدي ، فأسلم على يديه ، وأقام فيهم الإسلام والعدل ، فلما توفي رسول اللّٰه ﷺ توفي المنذر بعده بقليل ، وكان قد حضر عنده في مرضه عمرو بن

العاص ، فقال له : يا عمرو هل كان رسول الله ﷺ يجعل للمريض شيئًا من ماله ؟ قال : نعم ، الثلث ، قال : ماذا أصنع به ؟ قال: إن شئت تصدقت به على أقربائك ، وإن شئت على المحاويج ، وإن شئت جعلته صدقة من بعدك حبسًا محرمًا . فقال : إني أكره أن أجعله كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، ولكني أتصدق به ، ففعل ، ومات ، فكان عمرو بن العاص يتعجب منه ، فلما مات المنذر ارتد أهل البحرين وملّكوا عليهم الغرور ، وهو المنذر بن النعمان بن المنذر .

وقال قائلهم : لو كان مُحَمَّدٌ نبيًّا ما مات ، ولم يبق بها بلدة على الثبات سوى قرية يقال لها « جُوَاثا » ، وقد حاصرهم المرتدون وضيقوا عليهم حتى منعوا من الأقوات وجاعوا جوعًا شديدًا حتى فرج الله عنهم ، وقد قام فيهم رجل من أشرافهم – وهو الجارود بن المعلي ، وكان ممن هاجروا إلى رسول الله ﷺ – خطيبًا وقد جمعهم فقال : يا معشر عبد القيس ، إني سائلكم عن أمر فأخبروني إن علمتموه ، ولا تجيبوني إن لم تعلموه ، فقالوا : سل ، قال : أتعلمون أنه كان لله أنبياء قبل محمد ؟ قالوا : نعم ، قال : تعلمونه أم ترونه ؟ قالوا : نعلمه ، قال فما فعلوا ؟ قالوا : ماتوا ، قال : فإن محمدًا ﷺ مات كما ماتوا ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، فقالوا : ونحن أيضًا نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ،وأنت أفضلنا وسيدنا ، وثبتوا على إسلامهم ، وتركوا بقية الناس فيما هم فيه ، وبعث الصديق رضي الله عنه كما قدمنا إليهم العلاء بن الحضرمي ورحب بهم وأحسن إليهم ، وقد كان العلاء من سادات الصحابة العلماء العباد مجابي الدعوة .

وقد اتفق له في هذه الغزوة أنه نزل منزلًا فلم يستقر الناس على الأرض حتى نفرت الإبل بما عليها من زاد الجيش وخيامهم وشرابهم ، وبقوا على الأرض ليس معهم سوى ثيابهم – وذلك ليلًا – ولم يقدروا منها على بعير واحد ، فركب الناسَ من الهم والغم مالا يحدُّ ولا يوصف ، وجعل بعضهم يوصي إلى بعض ، فنادى منادي العلاء فاجتمع الناس إليه ، فقال : أيها الناس ألستم المسلمين ؟ ألستم في سبيل الله ؟ ألستم أنصار الله ؟ قالوا : بلى : فأبشروا فوالله لا يخذل الله من كان في مثل حالكم ، ونودي بصلاة الصبح حين طلع الفجر فصلى بالناس فلما قضى الصلاة جثا على ركبتيه وجثا الناس ، ونصب في الدعاء ورفع يديه وفعل الناس مثله حتى طلعت الشمس ، وجعل الناس ينظرون إلى سراب الشمس يلمع مرة بعد أخرى وهو يجتهد في الدعاء فلما بلغ الثالثة إذا قد خلق الله إلى جانبهم غديرًا عظيمًا من الماء القَراح ،فمشى ومشى الناس إليه فشربوا واغتسلوا ، فما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل من كل فج بما عليها ، لم يفقد

الناس من أمتعتهم سلكًا ، فسقوا الإبل عَلَلًا بعد نَهَل (مرة بعد أخرى) . فكان هذا مما عاين الناس من آيات اللّه بهذه السرية ، ثم لما اقترب من جيوش المرتدة وقد حشدوا وجمعوا خلقًا عظيمًا نزل ونزلوا ،وباتوا متجاورين في المنازل ، فبينما المسلمون في الليل إذ سمع العلاء أصواتًا عالية في جيش المرتدين ، فقال : من رجل يكشف لنا خبر هؤلاء؟ فقام عبد اللّه بن حذف ، فدخل فيهم فوجدهم سكارى لا يعقلون من الشراب ، فرجع إليه فأخبره ، فركب العلاء من فوره والجيش معه فكبسوا أولئك فقتلوهم قتلًا عظيمًا ، وقلَّ من هرب منهم ، واستولى على جميع أموالهم وحواصلهم وأثقالهم ، فكانت غنيمة عظيمة جسيمة ، وكان الحَطَم بن ضبيعة – أخو بني قيس بن ثعلبة – من سادات القوم نائمًا ، فقام دهشًا حين اقتحم المسلمون عليهم فركب جواده ، فانقطع ركابه فجعل يقول : مَن يصلح لي ركابي ؟ فجاء رجلٌ من المسلمين في الليل فقال : أنا أصلحها لك ، ارفع رجلك ،فلما رفعها ضربه بالسيف فقطعها مع قدمه ، فقال له : أَجْهِزْ عليَّ ، فقال : لا أفعل ، فوقع صريعًا كلما مرَّ به أحد يسأله أن يقتله فيأبى ، حتى مرَّ به قيس بن عاصم فقال له : أنا الحطم فاقتلني فقتله ، فلما وجد رجله مقطوعة ندم على قتله وقال : واسوأتاه لو أعلم ما به لم أحركه ، ثم ركب المسلمون في آثار المنهزمين يقتلونهم بكل مرصد وطريق ، وذهب من فر منهم وأكثرهم في البحر إلى « **دارين** » ركبوا إليها السفن ، ثم شرع العلاء بن الحضرمي في قسم الغنيمة ونقل الأثقال وفرغ من ذلك وقال للمسلمين : اذهبوا بنا إلى دارين لنغزو من بها من الأعداء ، فأجابوا إلى ذلك سريعًا ، فسار بهم حتى أتى إلى ساحل البحر ليركبوا في السفن ، فرأى أن الشقة بعيدة لا يصلون إليهم في السفن حتى يذهب أعداء اللّه ، فاقتحم البحر بفرسه وهو يقول : يا أرحم الراحمين ، يا حكيم يا كريم ، يا أحد يا صمد ، يا حي يا محيي ، يا قيوم ، يا ذا الجلال والإكرام ، لا إله إلا أنت يا ربنا ، وأمر الجيش أن يقولوا ذلك ويقتحموا ، ففعلوا ذلك فأجاز بهم الخليج بإذن اللّه يمشون على مثل رملة دَمِثَة فوقها ماء لا يغمر أخفاف الإبل ، ولا يصل إلى ركب الخيل ، ومسيرته بسير السفن يوم وليلة فقطعه إلى الساحل الآخر فقاتل عدوه وقهرهم واحتاز غنائمهم ثم رجع فقطعه إلى الجانب الآخر فعاد إلى موضعه الأول ، وذلك كله في يوم ، ولم يترك من العدو مخبرًا ، واستاق الذراري والأنعام والأموال ، ولم يفقد المسلمون في البحر شيئًا سوى عليقة فرس لرجل من المسلمين ومع هذا رجع العلاء فجاءه بها ، ثم قسم غنائم المسلمين فيهم ، فأصاب الفارس ألفين والراجل ألفًا مع كثرة الجيش وكتب إلى الصديق فأعلمه بذلك ، فبعث الصديق يشكره على ما صنع ، وقد قال رجل من المسلمين في مرورهم في البحر وهو عفيف بن المنذر :

ألم تر أن اللَّه ذَلَّل بَحْره وأنزل بالكفار إحدى الجلائل
دَعَونا إلى شَق البحار فجاءنا بأعجب من فَلَقِ البحار الأوائل

وقد ذكر سيف بن عمر التميمي أنه كان مع المسلمين في هذه المواقف والمشاهد التي رأوها من أمر العلاء ، وما أجرى اللَّه على يديه من الكرامات ، رجل من أهل هَجَر راهب فأسلم حينئذ ، فقيل له : ما دعاك إلى الإسلام ؟ فقال خشيت إن لم أفعل أن يمسخني اللَّه لما شاهدت من الآيات .

* * *

ذكر ردة أهل عُمان ومهرة اليمن

أما أهل عُمان : فنبغ فيهم رجل يقال له : ذو التاج ، لقيط بن مالك الأزدي ، وكان يسمى في الجاهلية الجَلَنْدي ، فادعى النبوة أيضًا ، وتابعه الجهلة من أهل عمان ، فتغلب عليها وقهر جيفرًا وعبادًا وألجأهما إلى أطرافها ، من نواحي الجبال والبحر ، فبعث جيفر إلى الصديق فأخبره الخبر ، واستجاشه (طلب منه جيشًا) ، فبعث إليه الصديق بأميرين هما : حذيفة بن مِحْصَن الحِمْيَري ، وعَرْفَجَة البارقي من الأزد ، وحذيفة إلى عُمان ، وعرفجة إلى مهرة ، وأمرهما أن يجتمعا ويتفقا ويبتدئا بعمان ، وحذيفة هو الأمير ، فإذا ساروا إلى بلاد مهرة فعرفجة الأمير . وقد قدمنا أن عكرمة بن أبي جهل لما بعثه الصديق إلى مسيلمة وأتبعه بشرحبيل بن حسنة ، عجل عكرمة وناهض مسيلمة قبل مجيء شرحبيل ليفوز بالظفر وحده ، فناله من مسيلمة قَرْحٌ والذين معه ، فتقهقر حتى جاء خالد بن الوليد ، فقهر مسيلمة كما تقدم ، وكتب إليه الصديق يلومه على تسرعه ، قال له : لا أَرَيَنَّك ولا أسمعنَّ بك إلا بعد بلاء ، وأمره أن يلحق بحذيفة وعرفجة إلى عمان ، وكل منكم أمير على جيشه وحذيفة ما دمتم بعمان فهو أمير الناس ، فإذا فرغتم فاذهبوا إلى مهرة ، فإذا فرغتم منها فاذهب إلى اليمن وحضرموت فكن مع المهاجر بن أبي أمية ، ومَن لقيته من المرتدة بين عمان إلى حضرموت فَنَكِّل به ، فسار عكرمة لما أمره به الصديق ، فلحق حذيفة وعرفجة قبل أن يصلا إلى عمان ، وقد كتب إليهما الصديق أن ينتهيا إلى رأي عكرمة بعد الفراغ من السير من عمان أو المقام بها ، فساروا فلما اقتربوا من عمان راسلوا جيفرا ، وبلغ لقيطَ بن مالك مجيء الجيش ، فخرج في جموعه فعسكر بمكان يقال له : « دبَا » ، وهي مصر تلك البلاد وسوقها العظمى ، وجعل الذراري والأموال وراء ظهورهم ليكون أقوى لحربهم ، واجتمع جيفر وعباد

بمكان يقال له : « **صحار** » ، فعسكرا به ، وبعثا إلى أمراء الصديق فقدموا على المسلمين ، فتقابل الجيشان هناك ، وتقاتلوا قتالًا شديدًا ، وابتلي المسلمون وكادوا أن يولوا ، فَمَنَّ اللَّه – بكرمه ولطفه – أن بعث إليهم مددًا في الساعة الراهنة من بني ناجية وعبد القيس في جماعة الأمراء ، فلما وصلوا إليهم كان الفتح والنصر ، فَوَلَّى المشركون مدبرين ، وركب المسلمون ظهورهم ، فقتلوا منهم عشرة آلاف مقاتل وسبوا الذراري وأخذوا الأموال والسوق بحذافيرها ، وبعثوا بالخمس إلى الصديق ﷺ مع أحد الأمراء وهو عرفجة ، ثم رجع إلى أصحابه .

وأما مهرة : فإنهم لما فرغوا من عمان كما ذكرنا ، سار عكرمة بالناس إلى بلاد مهرة ، بمن معه من الجيوش ومن أضيف إليها ، حتى اقتحم على مهرة بلادها ، فوجدهم جُنْدَين : على أحدهما – وهم الأكثر – أمير يقال له : المُصَبِّح ، أحد بني محارب ، وعلى الجند الآخر أمير يقال له : شخريت ،وهما مختلفان ، وكان هذا الاختلاف رحمة على المؤمنين ، فراسل عكرمة شخريت فأجابه وانضاف إلى عكرمة فقوي بذلك المسلمون ، وضعف جأش المصبح فبعث إليه عكرمة يدعوه إلى اللَّه وإلى السمع والطاعة ، فاغتر بكثرة من معه ، وبمخالفته لشخريت ، فتمادى على طغيانه فسار إليه عكرمة بمن معه من الجنود فاقتتلوا مع المصبح أشد من قتال « **دبا** » المتقدم ، ثم فتح اللَّه بالظفر والنصر ، ففر المشركون وقُتِل المصبح ، وقتل خلق كثير من قومه ، وغنم المسلمون أموالهم ، فكان في جملة ما غنموا ألفا بُخْتِيَّة (الناقة الممتازة) فخمَّس عكرمة ذلك كله وبعث بخمسه إلى الصديق مع شخريت ، وأخبره بما فتح اللَّه عليه ، وأرسل بالبشارة مع رجل يقال له : السائب ، من بني عابد من مخزوم .

* * *

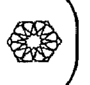
اليمن والأسود العنسي

لما أسلم أهل اليمن ولَّى عليهم رسول اللَّه ﷺ « **باذان** » الذي كان عاملًا لكسرى فلم يزل واليًا عليها حتى مات ، فجعل ﷺ ابنه « **شهرا** » واليًا على صنعاء ، وعيَّن ولاة آخرين على بقية بلاد اليمن حيث قسمها إلى عشر عمالات ، وكان معاذ بن جبل معلِّمًا ينتقل في هذه الولايات قبل وفاة رسول اللَّه ﷺ ، ثم قام رجل من عَنْس إحدى قبائل قحطان اسمه الأسود العنسي فتنبأ وتبعه قوم من أعراب اليمن فسار بهم إلى نجران فاستولى عليها لعشر من مخرجه ، ودخل معه عوام مذحج ثم جاء صنعاء وقاتل عاملها

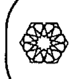
شهرا واستولى عليها وهزم الأبناء لخمس وعشرين ليلة من مخرجه ، فجعل أمره بعد ذلك يستطير استطارة الحريق ، وقد وصل الخبر بذلك إلى رسول الله ﷺ . وكان أهل اليمن في أمره قسمين : قسم يتقيه وهو على إسلامه ، وقسم تابعه وارتد عن دينه فأرسل ﷺ كتابًا على يد « **وبر بن يَحْنَس** » إلى مَنْ بِصَنْعاء من الأبناء يأمرهم فيه بالقيام على دينهم والنهوض إلى الحرب والعمل في أمر الأسود إما غِيلَة وإما مصادمة ، وأن يبلغوا عنه من رأوا أن عنده نجدة ودينًا ، وقد صادف ذلك أن تغير الأسود على رئيس جنده قيس بن عبد يغوث المرادي ، فهو يخافه خوفًا شديدًا ففاتحه الأبناء في أمر اغتيال الأسود ، فأجابهم إلى ذلك ، وصاروا يمهدون لذلك الأمر ، واتفقوا على ذلك مع امرأة « **شهر** » التي اغتصبها الأسود بعد قتل زوجها ، وبعد خطوب طويلة تمكن فيروز أحد الأبناء (الرؤساء) من قتل غِيلَة داخل منزله ، ولما طلع فجر تلك الليلة نادوا على القصر بشعار المسلمين وهو الأذان ولذلك خلصت صنعاء والجند من هذا الشر المستطير ، واتفق الناس أن يولوا أمرهم إلى معاذ بن جبل ، فكان يصلي بهم ، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ بالخبر ، فوصل الرسول إلى المدينة صبيحة اليوم الذي توفي فيه ﷺ ، وكان بين خروج الأسود ، مقتله نحو من أربعة أشهر .

ولما بلغ أهلَ اليمن موتُ رسول الله ﷺ ، عادوا إلى ماكانوا عليه من الخلاف ، وقادهم إلى ذلك بعض الرؤساء من المرتدين فبعث أبو بكر إلى من بقي على إسلامه من رؤوس اليمن يأمرهم بالوقوف حيال المرتدين حتى تصلهم النجدات ومازالوا كذلك حتى وصلتهم الجنود يقودها المهاجر بن أبي أمية فاستردت صنعاء وأسرت زعماء الفتنة قيس بن عبد يغوث ، وعمرو بن معد يكرب ، ثم ذهبت إلى كندة بحضرموت وكانت قد ارتدت أيضًا ، وهناك اجتمع جند المهاجر وجند عكرمة بن أبي جهل فحاربوا كندة حتى غلبوهم وأسروا الأشعث بن قيس سيد كندة وبعثوا إلى أبي بكر يبشرونه بالفتح . اهـ . [من تاريخ الأمم الإسلامية للخضري] .

* * *



الفتوحات في عهده
حالة الفرس والروم في أول عهد أبي بكر



١ - ظهور الدولة العربية :

مكثت الأمة العربية تلك الأزمنة الطويلة وهي محصورة في جزيرتها قانعة بصحرائها ومفاوزها ووديانها ، قُواهم متفانية في حروبهم بعضهم مع بعض ، بأسهم بينهم شديد ، والأمم المجاورة لهم قد ملكت عليهم أمرهم في أخصب بقاعهم ، وإن كان للعرب ملك أو رياسة فعلى أنهم عاملون لغيرهم من الفرس أو الروم حتى جاء الإسلام فتكونت منهم تلك الأمة العظيمة التي سلبت أقوى الأمم سلطانها وتغيرت الحال فصار المقهور قاهرًا ، والمسود سيدًا .

كان يجاور الأمة العربية دولتان عظيمتان تعترف العرب لهما بالسيادة والتغلب من قديم الأعصار ، وهما : دولة الفرس ودولة الرومان الشرقية .

٢ - نبذة عن دولة الفرس :

فأما دولة الفرس ويقال لها : دولة الأكاسرة فكانت قاعدتها « **المدائن** » وهي مدينة عظيمة كانت على شاطئ دجلة الشرقي و الغربي جنوبي بغداد في منتصف المسافة بينها وبين واسط ، ودور الأكاسرة هذه تكونت منذ وجد « **أزدشير بن بابك** » وغلب ملوكَ الطوائف على أمرهم ، واستبد بالأمر دونهم ، ووحد كلمة الفرس ثانية بعد أن كانت تفرقت على عهد إسكندر المقدوني ، وكان ظهور « **أزدشير** » سنة ٢٣٠ قبل الميلاد ، وأدخل في ملكه العراق وما يجاوره من بلاد العرب وجميع الممالك الفارسية المتفرقة ، وكان يسمى « **شاهنشاه** » أي ملك الملوك ، وأمراء الأقاليم يسمى واحدهم « **شاه** » ، ومازال بنوه يتوارثون ملك الفرس من بعده حتى كان « **كسرى أنوشروان** » الملقب بالملك العادل ، وهو الذي ولد لعهد رسول الله ﷺ ، وكان ملكًا عظيم الشأن واسع السلطان ثم جاء بعده «**هرمز** » ثم «**كسرى أبرويز** » وهو الذي أرسل إليه رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام فرأى ذلك أمرًا عظيمًا أن يدعوه عبد من عبيده ليكون خاضعًا لدينه ، فراسل عامله على اليمن يطلب منه أن يرسل ذلك الراعي (محمدًا) ليرى فيه رأيًا . وحصل عند ذلك أن قام عليه ابنه « **شيرويه** » فقتله ، واستلب منه تاج الملك ، ولكن « **شيرويه** » لم يمتع بالملك طويلًا ، بل مات بعد سنة وتسعة أشهر من ولايته بعد أن أساء كثيرًا إلى أهل بيته ، فولي من بعده ابنه « **أزدشير** » وهو صغير السن فكفله أحد

عظماء المملكة . وكان في ذلك الوقت من كبار القواد « **شهريراز** » وكان مرابطًا بجنده بثغور الروم ، فلما رأى أن وَلِيَ « **أزدشير** » من غير استشارته أقبل بجموعه إلى مدينة الملك فاستولى عليها وقتل « **أزدشير** » واستلب تاج الملك لنفسه ، ولم يكن من أهل بيت الملك ؛ لذلك لم يرق لبعض العظماء منهم، فأجمعوا أمرهم على قتله ، فقتلوه لأربعين يومًا من ولايته ، ثم ولوا أمرهم « **بوران** » بنت كسرى أبرويز ، أخت شيرويه ، ولها ذكر حسن في تاريخ الفرس وكانت ولايتها في آخر حياة رسول الله ﷺ واستمرت ملكة سنة وأربعة أشهر ، ثم ملك بعدها « **جشنسدة** » من بني عم أبرويز الأبعدين أقل من شهر ، وبعده وليت « **آزرميدخت** » بنت كسرى أبرويز . أخت « **بوران** » وهي التي جاءها رستم وقتلها لقتلها أباه «**فزخهر** » من «**أصبهبد**» خراسان ، وعظيم فارس ، وولى بدلها رجلًا من عقب أزدشير بن بابك يقال له : « **كسرى بن مهرجشنس** » ولكنه لم يبق ملكًا إلا أيامًا ، ومازال حالهم في اختلاف حتى ملك « **يزدجرد بن شهريار** » وهو آخرهم .

٣ - نبذة عن الدولة الرومانية :

كانت الدولة الرومانية هي الدولة الثانية العظمى في العالم والتي توازي دولة الفرس في سعة الملك وقوة السلطان ، وكانت عاصمتها الكبرى « **رومية** » ، أدخلت تحت نيرها أكثر الأمم الشرقية ، وفي مقدمتها مصر وسوريا ، ولم يزالوا على تلك العظمة حتى انقسمت دولتهم إلى قسمين : الشرقية وقاعدتها قسطنطينية ، والغربية وقاعدتها رومية في زمن القيصر « **تيودثيوس** » الذي ولي أمر الرومان إلى سنة ٣٩٥ م ، وجزَّأ المُلك بين ولديه ، وكان المشرق من نصيب ابنه « **رقاديوس** » الذي ولي من سنة ٣٩٥ إلى سنة ٤٠٨ م ، وما زالت الملوك تتوالى على هذا الكرسي حتى كان ملكهم لأول العهد الإسلامي « **هرقل** » الذي كان قبل أن يتولى الملك واليًا في إفريقية ثم خرج على الملك « **فوقا** » فقتله وتوج بالملك بدله سنة ٦١٠ ، واستمر ملكًا حتى ٦٤١ وهو الملك الذي سقطت على يده سوريا وملكها المسلمون .

وكانت الدولتان الفارسية والرومانية في نزاع دائم ، وكان ميدان النزاع بينهما بلاد العراق وسوريا ، حيث كانت نار الحرب لا تخمد في هذه البقاع وكانت الحرب بينهما سجالاً ؛ فمرة يغلب الفرس فيمتد سلطانهم حتى يصل إلى شواطئ بحر الروم ، ومرة يطغى عليهم الجيش الروماني فيستلب منهم بلاد الجزيرة ويملك النهرين : دجلة والفرات ، وما يسقيان من تلك الأراضي الخصيبة الجميلة .

وأقرب تلك الوقائع إلى العهد الإسلامي ما حصل أولًا من الحروب بين جنود « **فوقا** » ملك الرومان وجنود كسرى أنوشروان ملك الفرس ، وقد انتصرت فيها الفرس انتصارات متتابعة حتى أجلوا الروم عما كان لهم من الجزيرة في الشمال ، ومازالت جنود الفرس توالي فتوحها حتى وصلت إلى البسفور تسفك دماء من يقف في طريقها ، وشنوا غاراتهم على فينقيا وفلسطين وفعلوا بتلك البلاد الأفاعيل ، ثم أعادوا كراتهم في عهد هرقل الذي خلف « **فوقا** » على سرير الملك وأخذوا من أورشليم خشبة الصليب المقدسة وأتلفوا كثيرًا من الآثار المسيحية ، ثم زحفوا سنة ٦١٦ إلى مصر. فأخذوا إسكندرية . وقد أشار الكتاب إلى هذه الواقعة في أول سورة الروم التي نزلت بمكة إبان هذه الحروب ، قال تعالى : ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ثم قال تعالى مخبرًا عمن تكون له العاقبة فقال : ﴿ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ ﴾ ثم أخبر بعد ذلك عما يصادف انتصار الروم من انتصار المسلمين على أعدائهم من المشركين فقال : ﴿ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الروم : ٤-٦] ، وقد حصل ذلك فعلًا فإن هرقل قد تنبه من غفلاته سنة ٦١٢ بعد عشر سنين من ولايته وتهيأ لحرب الفرس وأعد لذلك عدته ورتب جنوده وهاجم الفرس هجمات المستقتل فانتصر عليهم في الوقت الذي كان المسلمون فرحين بانتصارهم في بدر ، وقد كانت بدر في مارس من سنة ٦٢٤ والروم في ذلك يذيقون الفرس ما ذاقوه منهم قبلًا ، ولم يزل الأمر على ذلك حتى تولى الفرس شيرويه بعد أن قبض على أبيه ثم قتله فصالح الروم سنة ٦٢٨ ورد جميع النصارى الذين كان أخذهم أسرى وخشبة الصليب المقدسة ، فنال هرقل بذلك منتهى الفخار وذهب إلى أورشليم ليشكر اللَّه على ما آتاه من النصر وهذه السنة هي التي راسل فيها رسول اللَّه ﷺ الملوك يدعوهم إلى الإسلام وكان ممن راسله هرقل وهو في ذلك الوقت بأورشليم (أول يناير سنة ٦٢٩ م ، ٢٩ شعبان سنة ٧ من الهجرة) وطرد في ذلك الوقت اليهود من أورشليم وأمر أن يستمروا بعيدين عنها ثلاثة أميال ، وبعد ذلك عاد هرقل إلى حمص وكانت منزله ؛ لأنها كانت مكان لهو وترف .

* * *

غزو الدولة الفارسية

انتدب أبو بكر أعظم قواده خالد بن الوليد بعد أن انتهى من حروب الردة ليغزو بلاد الفرس وأمره أن يبدأ بثغر الهند وهو الأُبُلَّة ، وانتدب عياض بن غنْم ليغزو الفرس من الشمال ويبدأ بالـمُصَيَّخِ وهو شمال العراق ، وأمرهما أن يستنفرا من قاتل أهل الردة وأن لا يستعينا بمرتد ، وقد وصل لخالد كتاب التعيين وهو باليمامة فكتب لصاحب الثغر وهو « **هرمز** » كتاب إنذار يقول له فيه : أما بعد ، فأسلم تسلم أو اعقد لنفسك ولقومك الذمة وإقرارًا بالجزية وإلا فلا تلومن إلا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة .

ثم فرق جيشه ثلاث فرق واتعدوا جميعهم الـحُفَير (ماء بالقرب من البصرة) ليصادموا به عدوهم . فلما بلغ الكتاب هرمز بعث إلى كسرى به .

ثم تعجل الكواظم وهي من جادة اليمامة فبلغه أن الجنود العربية قد اتخذت طريقها إلى الـحُفَير فعرج يبادرهم إليه وهناك عبأ جيشه ، ولما أتى خالدًا الخبر أن هرمز بالحفير عدل عنه إلى كاظمة فلحقه هرمز بها ، وكان هرمز هذا من أسوأ أمراء ذلك الثغر جوارًا للعرب ؛ فكل العرب عليه مغيظ ، وقد كانوا ضربوه مثلًا للخبث .

تزاحف الجيشان وكان كل من خالد وهرمز في مقدمة جيشه فتبارزا فقتل خالد هرمز ، فلم يكن للعجم بعده ثبات فانهزموا .

ثم أمر خالد بالرحيل وسار حتى بلغ قريبًا من موضع البصرة ، والبصرة لم تُبْنَ إذ ذاك ، وكان كسرى قد أمد هرمز بجند تحت قيادة قارن بن قريانس وبينا هو قادم إذ بلغته هزيمة هرمز فتوقف بالمذار (شمال البصرة على بعد أربعة أيام) وعسكر به فسار خالد إليه على تعبئة فتقاتل الجيشان على حنق وحفيظة ولم يطل الأمر حتى هزمهم خالد وقتل قائدهم ، فعبروا إلى الجهة الشرقية ، وضموا إليهم السفن فلم يتمكن المسلمون من طلبهم وقتل من الفرس عدد جسيم قدره الطبري بثلاثين ألفًا .

بلغت الهزيمةُ ملكَ الفرس فبعث جندًا كثيفًا يقوده الأندرزغر ففصل عن المدائن حتى أتى الوَلَـجَةَ (شمال المذار) ثم أتبعه كسرى جندًا آخر يقوده « **بهمن جاذويه** »، وقد انضم إلى صفوف الفرس كثير من العرب المتنصرة ،ولما بلغ خالدًا خبرُ تجمعهم أذن بالرحيل إليهم على تعبئة بعد أن ترك خلفه حامية تحمي خط رجعته ، ولما وصل الوَلَـجَة رتب الهجوم على عدوه من ثلاث جهات وصادمهم هو من إحداها ولم يلبث الفريقان الآخران أن خرجا على الفرس من مكمنهما فلم يلبث الفرس أن انهزموا ومضى قائد الجيش في هزيمته حتى مات في طريقه عطشًا وقتل في هذه الوقعة كثير من بكر بن وائل

الذين أعانوا الفرس ، فغضب لهم نصارى قومهم ، فكاتبوا الأعاجم وصاروا معهم يدًا على حرب المسلمين واجتمعوا بأُلّيس (قرية من قرى الأنبار) وقائد الجميع (بهمن جاذويه) فسار إليهم خالد وأوقع بهم موقعة كبيرة قتل مقتلة عظيمة ، ولما فرغ من أليس نهض إلى أمغيشيا ، وهي بالقرب من أُلّيس وكان فرات باذقلى ينتهي إليه ، فلما وصلها خالد أمر بهدمها وكانت مصرًا كالحيرة ،ولما علم مرزبان الحيرة بما كان من خالد في أمغيشيا علم أنه غير متروك فتهيأ لحرب خالد ، وقدم ابنه أمامه ، وكان مما فعله أن فجر الأنهار الآخذة من الفرات فقل الماء فيه حتى لم يعد يحمل السفن لتسير فيه ، وكان خالد قد حمل الرجال في السفن مع الأنفال والأثقال فلم يفجأه إلا والسفن جوانح فسأل عن السبب فَأُعْلِمَ به ، فتعجل خالد نحو ابن الأزادبة حتى لقيه هو وجنده على فم فرات باذقلي فهزمهم وفجر الفرات وسد الأنهار ، فسلك الماء سبيله ثم سار خالد حتى عسكر بالخورنق مشرفًا على الحيرة وأهلها متحصنون بقصورها ، فحاصرها خالد ، ولما رأى أهل الحيرة أن لا طاقة لهم بحرب خالد مالوا إلى الصلح - وأول من طلبه منهم عمرو ابن عبد المسيح الملقب ببلقية ، ثم تبعه بقية الرؤساء ، فصالحه على ١٩٠ ألف درهم وأهدوا له الهدايا ، فاعتدها من الجزية بأمر أبي بكر ، وكتب لهم خالد كتابًا هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عديًّا وعمرًا ابني عدي ، وعمرو بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة ، وحيري بن أكال وهم نقباء أهل الحيرة ورضي بذلك أهل الحيرة وأمروهم به : عاهدهم على ١٩٠ ألف درهم تقبل كل سنة جزاءً عن أيديهم في الدنيا ، رهبانهم وقسيسهم إلا من كان منهم على غير ذي يد حبيسًا عن الدنيا تاركًا لها ، وعلى المنعة وإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم ، وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة ، كتب في شهر ربيع الأول سنة ١٢ هـ .

ومما يستطرف ذكره أن رجلًا من الأعراب اسمه شُوَيل كان أسلم على يد النبي ﷺ فسمعه ذات مرة يبشر المسلمين بأن ستفتح عليهم قصور الحيرة فسأله أن يعطى من سبيهم « **كرامة بنت عبد المسيح** » فقال ﷺ : « **هي لك** » ، فلما أراد خالد صلحهم جعل من شروط الصلح أن يسلموا إليه « **كرامة** » ليسلمها إلى شويل تحقيقًا لوعد النبي ﷺ فأعظموا ذلك لخطرها ، فقالت لهم كرامة : دعوه فإنه رجل أحمق ، رآني في شبيبتي فظن أن الشباب يدوم ، فأسلموني له فإني سأفتدي منه ، فلما وصلت إلى الرجل قالت : ما أَرَبُكَ من عجوز كما ترى ، فَادِنِي (خذ مني فديتي واتركني) قال : لا إلا على حكمي ، قالت : فلك حكمك ، فقال : فلست لأم شويل إن نقصتك عن ألف درهم فاستكثرت ذلك لتخدعه ، ثم أتته بها ورجعت إلى أهلها فتسامع الناس

بذلك فعنفوه قال : ماكنت أرى أن عددًا يزيد على ألف ، فأبوا عليه إلَّا أن يخاصمهم فقال : كانت نيتي غاية العدد ، وقد ذكروا أن العدد يزيد على ألف ، فقال خالد : أردت أمرًا وأراد اللَّه غيره نأخذ بما يظهر وندعك ونيتك .

ولما صالح أهل الحيرة خرج « **صلوبا بن نسطونا** » صاحب قس الناطف فصالحه على بانِقيا وبارُوسْما ، وضمن له ما عليهما وعلى أراضيهما من شاطئ الفرات على عشرة آلاف وكتب لهم كتابًا هذا نصه : بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه ، إني عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذي يد بانِقيا وربارُوسْما جميعًا على عشرة آلاف دينار سوى الخرْزَة ، القوي على قدر قوته والمقل على قدر إقلاله في كل سنة ، وأنك نقيب على قومك وأن قومك قد رضوا بك . وقد قبلت ومن معي من المسلمين ورضيت ، ورضي قومك ، فلك الذمة والمنعة فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا حتى نمنعكم .

ولما رأى دهاقين البلاد ما تم لخالد من الظفر أتوه فصالحوه على ما بين الفلاليج (القرى التي في السواد) إلى هرمز جرد على ألفي درهم ،وكتب لهم بذلك كتابًا . ثم بعث خالد عماله ومسالحه . منهم عمال الخراج لجبايته. ومنهم أمراء الثغور . وكتب في مقامه بالحيرة كتابين أحدهما إلى ملك الفرس والآخر وإلى مرازبة الفرس : (رؤسائهم) .

وصورة الأول – بسم الله الرحمن الرحيم – : من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس أما بعد : فالحمد للَّه الذي حل نظامكم ، ووهن كيدكم ، وفرق كلمتكم ، ولو لم يفعل ذلك بكم لكان شرًّا لكم فادخلوا في أمرنا ندعكم في أراضيكم ونجوزكم إلى غيركم ، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب على أيدي قومٍ يحبون الموت كما تحبون الحياة .

وصورة الثاني – بسم الله الرحمن الرحيم – من خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس ، أما بعد : فأسلموا تسلموا وإلا فاعتقدوا مني الذمة وأدوا الجزية وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبْون شرب الخمر .

وكان أهل فارس في ذلك الوقت في ارتباك داخلي بشأن من يتولى الملك فيهم ولم يكن منهم في ذلك الوقت إلا المدافعة عن (بَهُرَ سِير) وهي إحدى المدائن التي سميت بها مدائن كسرى ، وكانت في الغربي من دجلة أمام الإيوان الذي كان في الجهة الشرقية منها . فلما جاءتهم كتب خالد أرادوا أن ينهوا أمر اختلافهم فاختاروا رجلًا يولونه الملك وليس من بيته إلى أن يجدوا من آل كسرى من يولونه وهو الفرخذاذ بن البندوان .

ولما استقام لخالد أمره أراد أن يسير لإغاثة عياض بن غنم الذي أرسل ليفتح العراق من

شماليه ويلتقي بخالد فاستخلف خالد على الحيرة القعقاع ابن عمرو وخرج حتى وصل إلى الأنبار (مدينة على الفرات غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ)، وقد تحصن أهلها وخندقوا على أنفسهم وأشرفوا من أعالي الحصون ، فأمر خالد جنده أن يرشقوهم بالنبل ففعلوا و أصابوا في عدوهم ثم انتهى الأمر بأن طلب قائد جند الأنبار الصلح على أن يخليه ويلحقه بمأمنه في جزيرة خيل ليس معهم من والمتاع والأموال شيء ،فأجابه إلى ذلك خالد وتسلم الأنبار وصالح من حولها ، ثم استخلف عليها الزبرقان بن بدر ، وقصد عين التمر (بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة) وبها يومئذ مهران بن هرام جويين في جمع عظيم من الفرس ، وعقة بن أبي عقة في جمع عظيم من العرب من النمر وتغلب وإياد ومن لف لفهم ، فلما سمعوا بقدوم خالد قال له : صدقت لعمري أنتم أعلم بقتال العرب ، وإنكم لمثلنا في قتال العجم . فلزم مهران عين التمرة ، وخرج عقة على تعبئة يريد مقابلة خالد بالطريق فقدم عليه خالد في تعبئة ،واقتتل الجندان فأسر خالد عقة ، ولم يكن إلا قليل قتال حتى انهزم جنده ، ولما وصل خبر الهزيمة إلى مهران هرب في جنده تاركًا الحصن ، أما فلول جند عقة من العرب والعجم فإنهم رجعوا إلى الحصن واعتصموا به حتى جاءهم خالد فاستنزلهم من حصنهم بدون أمان وقتل معظمهم ، ووجد في بيتهم أربعين غلامًا يتعلمون الإنجيل ، منهم نصير أبو موسى بن نصير ، وسيرين أبو محمد بن سيرين ، وخمران مولى عثمان وغيرهم ، فقسمهم خالد في الناس وكان من عقب هؤلاء علماء أجلاء ، وجاء خالد وهو بمقامه كتاب من عياض بن غنم يستنجده وهو محاصر دومة الجندل وأهلها محاصروه ، فأرسل إليه خالد هذا الكتاب .

من خالد إلى عياض : إياك أريد .

وهو أخصر كتاب فيما نعرف . ثم سار إلى دومة وقد تجمعت بها طوائف كثيرة من العرب المنتصرة . ولما بلغهم دنو خالد قال لهم أحد رؤسائهم « **أكيدر بن عبد الملك** » : أنا أعلم الناس بخالد ، لا أحد أيمن طائرًا منه ، ولايرى وجهَ خالدٍ قومٌ أبدًا قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه ، فأطيعوني وصالحوا القوم ، فأبوا عليه ، فقال : لن أمالئكم على حرب خالد فشأنكم ، فخرج لطيته ، وقد قتل في خرجته هذه .

ثم سار خالد حتى نزل بدومة وعلى من فيها من الجودي بن ربيعة ورؤساء القبائل التي جاءت لنجدتهم فناهدهم خالد بجنوده هو من جهة ، وعياض من جهة ، فكانت الهزيمة على أهل دومة ، ولم ينج منهم من قُتل إلا بنو كلب ؛ لأنهم كانوا حلفاء تميم فأجارهم عاصم بن عمرو التميمي ، وبعد أن أقام خالد قليلًا عاد إلى الحيرة لما بلغه من

تحرك العجم لإعادة الكرة على المسلمين ، وأرسل سريتين إلى الحصيد (موضع في أطراف العراق من جهة الجزيرة) والخنافس فأوقعتا بمن تجمع بهما من العدو ، ثم سار خالد حتى أتى المصيَّخ وهناك وافته سراياه - كما أمر - فكانت لهم واقعة مع العرب المتجمعين هناك أذاقوهم فيها نكالًا ، ثم كانت له وقائع بالثني (موضع بالجزيرة قرب الرصافة) والزميل ثم في الفراض وهي تخوم ما بين الشام والعراق والجزيرة ، وكان ذلك في رمضان ، وفي الفِراض اجتمع عليه الروم والفرس والعرب فانتصر عليهم خالد جميعًا ، وكانت هذه الواقعة في منتصف ذي القعدة ثم أقام بها عشرًا ، وبعد ذلك أذن في الرجوع إلى الحيرة لخمس بقين من ذي القعدة سنة ١٢هـ وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالجند وأظهر أنه في الساقة (مؤخرة الجيش) ولكنه خرج من الفِراض حاجًّا ومعه عدة من أصحابه يعتسف البلاد حتى أتى مكة فأدى المشاعر ، ثم عاد خفية ، فما وصل إلى الحيرة آخر جنده حتى وافاهم مع صاحب الساقة ، فقدما معًا وخالد وأصحابه ملحقون لم يعلم بحجه إلا من أفضى بذلك إليه من الساقة ، ولم يعلم أبو بكر بذلك إلا بعد ، فعتب عليه ، ووافاه كتاب أبي بكر يصرفه إلى الشام منصرفه من حجه إلى الحيرة .

وهذا هو الكتاب الذي أرسله إليه أبو بكر : « **سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شجوا وأشجوا ، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت فإنه لم يشج الجموع من الناس بعون اللّه شجيك ، ولن ينزع الشجي من الناس نزعك ، فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة ، فأتمم يتم اللّه لك ، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ، وإياك أن تدل بعمل فإن اللّه له المن وهو ولي الجزاء** » وكانت مدة خالد بالعراق سنة وشهرين : من المحرم بدء السنة الثانية عشرة إلى صفر من السنة ١٣ ، وقد فعل في هذه السنة ما لم يفعله قائد جيش .

اقتطع من بلاد العجم حوض نهر الفرات من شمال الأبلة إلى الفِراض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة في شرق الفرات وصادم جنود الفرس والعرب والروم في عدة مواقع لم يقهر فيها مرة ، وكان اسمه يسبقه إلى كل موقعة أرادها ، وكان في كل عمله فاتحًا لا مغيرًا ، فإنه كان يعد حماة طريقه ليأمن أن يؤتى من خلفه ، وكان إذا افتتح بلدًا أقام فيه أميرًا من قبله ينظر شؤونه، وآخر يجبي الخراج من أهل الذمة . ومن أحسن ما يؤثر عنه أنه لم يكن يتعرض للفلاحين بسوء ، بل كان يعاملهم بالرأفة ويمنعهم من عدوهم حتى صاروا يفضلون حكمه على حكم الفرس الذين كان عظماؤهم يستعبدونهم ويذلونهم ، وعلى نسبة رأفته بهؤلاء كانت شدته على المقاتلين وأهل الحرب ، وكان لا يصبر على الميدان إذا رأى الجنود ينظر بعضها بعضًا ، بل سرعان ما يخرج طالبًا رئيس القوم للمبارزة وفيها القضاء على خصمه ، فلا يطول أمر الحرب بعده . وعلى الجملة فهذه السنة كانت لخالد غرة في جبين تاريخه .. اهـ .

غزو الروم وموقعة اليرموك

كان إرسال الجيوش لافتتاح بلاد الشام متأخرًا عن إرسال خالد لافتتاح العراق فإن أبا بكر في أواخر سنة ١٢ من الهجرة اختار من قواد المسلمين أربعة من كبار القواد وهم : عمرو بن العاص ، ويزيد بن أبي سفيان ، أبو عبيدة بن الجراح ، وشرحبيل بن حسنة . والثلاثة الأولون قرشيون والرابع قحطاني ، وتخير لكل منهم جنده وأمر كل واحد أن يسير بجنده من طريق سماه له ، وعين لكل منهم الولاية التي يتولاها بعد الفتح ، فجعل لعمرو فلسطين ، وليزيد بن أبي سفيان دمشق ، ولشرحبيل الأردن ، ولأبي عبيدة ولاية حمص ، فسارت هذه الجيوش من الطريق التي عينها لهم يتبع بعضهم بعضًا ، وكان عدد جميع الجنود التي سيرت قبل أن يأتيهم مدد خالد بن الوليد ستة وثلاثين ألفًا .

لما علم الروم بمسير الجنود الإسلامية إليهم اهتم بالأمر « **هرقل** » وكان نازلًا لحمص وكان قد علم تفرق جنود المسلمين على أربعة من القواد ، فأراد أن يقاتلهم متفرقين ؛ لأن العدد عنده كثير ؛ فيمكنه أن يشغل كل أمير بأضعاف ما معه ، ولما علم بذلك الرؤساء الأربعة تكاتبوا ، وسألوا عمرو بن العاص : ما الرأي ؟ فراسلهم أن الرأي الاجتماع وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة ، وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدد يقارن بمن استقبلنا وأعد لكل طائفة منا ، فاستحسنوا الرأي واتعدوا اليرموك ليجتمعوا به ، وكتبوا إلى أبي بكر بمثل ما كاتبوا به عمرًا ، فجاءهم كتابه بمثل رأي عمرو ، وأمرهم أن يجتمعوا باليرموك متساندين وأن يصلي كل رجل بأصحابه .

بلغ ذلك هرقل فكتب إلى قواده أن اجتمعوا وانزلوا بالروم منزلًا واسع العطن ، واسع المطرد ، ضيق المهرب ، فنزلوا بالوَاقُوصَة وهي على ضفة اليرموك ، وصار الوادي خندقًا لهم وهو فسيح لا يدرك ، وقد أراد رؤساء الروم أن تستفيق الجنود ، ويأمنوا من خوفهم من المسلمين ، وترجع إليهم أفئدتهم عن طيرتها ، وقد وافتهم الجنود الإسلامية هناك فنزلوا بحذائهم على طريقهم ، وليس للروم طريق إلا عليهم ، فصاروا كأنهم محصورون ، ودام الأمر على ذلك شهر صفر من سنة ١٣ وشهري ربيع لا يقدرون من الروم على شيء ولا يخلصون إليهم .

ولما رأى المسلمون مطاولة الروم استمدوا أبا بكر ، فكتب إلى خالد يأمره بالمسير إليهم والحث ، وأن يأخذ نصف الناس ويستخلف على النصف الآخر المثنى بن حارثة الشيباني ، ولا يأخذن مَن فيه نجدة إلا ويترك عند المثنى مثله ، وإذا فتح اللَّه عليهم رجع خالد وأصحابه إلى العراق ، فاستأثر خالد بأصحاب النبي ﷺ على المثنى ، وترك للمثنى

عدادهم من أهل القناعة ممن ليس له صحبة ثم قسم الجند نصفين فقال المثنى : « **و اللّه لا أقيم على إنفاذ أمر أبي بكر (كله في استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف) وباللّه ما أرجو النصر إلا بأصحاب النبي ﷺ (فأنى تعريني عنهم)** ؟ » . فلما رأى خالد ذلك أرضاه (ومضى لوجهه وشيعه المثنى إلى قُراقِر ثم رجع إلى الحيرة في المحرم) .

قيل : سار خالد من العراق في ثمانمائة ، وقيل : في ستمائة ، وقيل : في خمسمائة ، وقيل : في عشرة آلاف ، وهو الأصح ، وقيل : إنما أمره أبو بكر أن يأخذ أهل القوة والنجدة فأتى حَدَوداء فقاتله أهلها فظفر بهم وأتى المصيَّخ وبه جمع من تغلب فقاتلهم وظفر بهم وسبى وغنم ، وكان من السبي (الصهباء بنت حبيب بن بجير) ، وهي أم عمر بن علي بن أبي طالب ، وقيل : سار خالد فلما وصل إلى قُراقِر - وهو ماء لكلب - أغار على أهلها وأراد أن يسير عنهم مفوِّزًا (يسير في المفازة وهي الصحراء) إلى سُوى وهو ماء لبهراء بينهما خمس ليال (فلم يهتد) فالتمس دليلًا فدُلَّ على رافع بن عميرة الطائي فقال له في ذلك فقال له رافع : إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال ، فواللّه إن الراكب المفرد يخافه على نفسه (وما يسلكها إلا مغرورًا إنها لخمس جياد لا يصاب فيها ماء مع مضلتها) . فقال خالد : ويحك إنه لا بد لي من ذلك لأخرج من وراء جموع الروم لئلا تحبسني عن غياث المسلمين .

فأمر صاحب كل جماعة أن يأخذ الماء للشعبة لخمس ، وأن يعطِّش من الإبل الشرف (المسنات من النوق) ما يكتفى به ثم يسقوها عللًا بعد نهل (ومراده أن يعطشوا الإبل ثم تشرب شربًا شرهًا حتى تتضلع) ، والعلل : الشربة الثانية ، والنهل : الأولى ، ثم يُصِرُّوا آذان الإبل ويشدوا مشافرها لئلَّا تجتر ، ثم ركبوا من قراقر ، فلما ساروا يومًا وليلة شقُّوا لعدَّة من الخيل بطون عشرة من الإبل فمزجوا ماءً في كروشها بما كان من الألبان وسقوا الخيل ، ففعلوا ذلك أربعة أيام ، فلما (خشي خالد على أصحابه في آخر يوم من المفازة قال لرافع بن عَميرة : ويحك يارافع ما عندك ؟ قال : أدركت الري إن شاء اللّه) . فلما دنا من العلمين قال للناس : انظروا هل ترون شجرة عَوسَج كقعدة الرجل ؟ فقالوا : ما نراها ، فقال : إنا للّه وإنا إليه راجعون . هلكتم و اللّه « إذًا » وهلكت معكم ، وكان أرمد فقال لهم : انظروا ويحكم . فنظروا فرأوها قد قطعت وبقي منها بقية ، فلما رأوها كبروا ، فقال رافع : احفروا في أصلها واستخرجوا عينًا فشربوا حتى روي الناس (فاتصلت بعد ذلك لخالد المنازل) . فقال رافع : واللّه ما وردت هذا الماء قط إلا مرة واحدة مع أبي وأنا غلام ، فقال شاعر من المسلمين :

للَّه عينا رافع أنى اهتدى فوّز من قُراقِر إلى سُوى
خمسًا إذا ما ساره الجيش بكى ما سارها قبلك إنسيٌّ يُرى

لما انتهى خالد إلى سُوى أغار على أهلها وهم بهراء (قبيل الصبح) وهم يشربون الخمر (في جفنة قد اجتمعوا إليها) ومغنيهم يقول :

ألا عللاني قبل جيش أبي بكر لعل منايانا قريبٌ ولا ندري
ألا عللاني بالزجاج وكَسّرًا على كميت اللون صافية تجري
ألا عللاني من سلافة قهوة تسلي هموم النفس من جيد الخمر
أظن خيول المسلمين وخالدًا ستطرقكم قبل الصباح مع النسر
فهل لكم في السير قبل قتالكم وقبل خروج المعصرات من الخدر

فقتل المسلمون مغنيهم وسال دمه في تلك الجفنة ، وأخذوا أموالهم ، وقتل حرقوص ابن النعمان البهراني ، ثم أتى « **أَرَك** » فصالحوه . ثم أتى « **تَدْمُر** » فتحصن أهله ثم صالحوه ، ثم أتى « **القريتين** » فقاتلهم فظفر بهم ، وغنم ، وأتى « **حُوَّارين** »فقاتل أهلها فهزمهم وقتل وسبى ، وأتى « **قُصَم** » فصالحه بنو مشجعة من قضاعة ، وسار فوصل إلى ثنية العقاب عند دمشق ناشرًا رايته وهي راية سوداء ، وكانت لرسول اللَّه ﷺ تسمى « **العقاب** » ،ثم سار فأتى « **مَرْجَ راهِط** » فأغار على غسان في يوم فِصْحِهم (عيدهم) فقتل وسبى وأرسل سرية إلى كنيسة بالغوطة فقتل الرجال ، وسبوا النساء ، وساقوا العيال إلى خالد ، ثم سار حتى وصل إلى بصرى فقاتل من بها فظفر بهم ، وصالحهم . فكانت بصرى أول مدينة فتحت بالشام على يد خالد ، وبعث بالأخماس إلى أبي بكر . ثم سار فطلع على المسلمين في ربيع الآخر .

فلما تكامل جمع المسلمين باليرموك ، وكانوا سبعة وعشرين ألفًا ، وقدم خالد في تسعة آلاف فصاروا ستة وثلاثين ألفًا سوى عكرمة فإنه كان ردءًا لهم ، وقيل : بل كانوا سبعة وعشرين ألفًا وثلاثة آلاف من فلال خالد بن سعيد ، وعشرة آلاف مع خالد بن الوليد فصاروا أربعين ألفًا سوى ستة آلاف مع عكرمة بن أبي جهل ، وقيل في عددهم غير ذلك ، واللَّه أعلم .

وكان فيهم ألف صحابي منهم نحو مائة ممن شهد بدرًا ، وكان الروم في مائتي ألف وأربعين ألف مقاتل ، منهم ثمانون ألف مقيد ، وأربعون ألف مسلسل للموت ، وأربعون ألفًا مربوطون بالعمائم لئلا يفروا ، وثمانون ألف راجل .

وكان قتال المسلمين لهم على تساند ، كل أمير على أصحابه لا يجمعهم أحد حتى قدم خالد بن الوليد من العراق ، وكان القسيسون والرهبان يحرضون الروم شهرًا ، ثم خرجوا إلى القتال الذي لم يكن بد منه في جمادى الآخرة فلما أحس المسلمون بخروجهم أردوا الخروج متساندين ، فسار فيهم خالد بن الوليد . فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال : « **إن هذا يوم من أيام اللّه لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي ، أخلصوا جهادكم وأرضوا اللّه بعملكم ، فإن هذا يوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قومًا على نظام وتعبئة ،وأنتم متساندون ، فإن ذلك لايحل ولا ينبغي ، وإن مَنْ وراءَكُم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبته** » . قالوا : هات فما الرأي . قال : إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر ، ولو علم بالذي كان ويكون لما جمعكم ، إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم ، وأنفع للمشركين من أمدادهم ، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم . فاللّهَ اللّهَ فقد أُفْرِدَ كل رجل منكم ببلد لا ينتقص منه إن دان للأمراء ، ولا يزيده عليه إن دانو له ، إن تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند اللّه ولا عند خليفة رسول اللّه ﷺ ، هلموا فإن هؤلاء قد تهيئوا ، وإن هذا يوم له مابعده إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها ، فهلموا فلنتعاور الإمارة ، فليكن بعضنا اليوم والآخر غدًا والآخر بعد غد حتى تتأمروا كلكم ودعوني أتأمر اليوم . فأمّروه وهم يرون أنها كخرجاتهم وأن الأمر لا يطول . فعبأ خالد الجيش تعبئة لم تُعَبّها العرب قبل ذلك . قسم الجيش إلى ثمانية وثلاثين كِرْدَوسًا (وهو المجموعة العظيمة من الخيل) ورتب القلب ثمانية عشر كردوسًا ، وأقام فيه أبا عبيدة ، وجعل الميمنة عشرة كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة ، وجعل الميسرة عشرة كراديس وعليها يزيد ابن أبي سفيان وجعل لكل كردوس رئيسًا يأتمر بأمر رئيس الميمنة أو الميسرة أو القلب وكان كل كردوس يزيد قليلًا عن الألف . وجعل للجيش قاصًا يذكرهم ، وكان القاص أبا سفيان ابن حرب فكان يقف على الكراديس ويقول : اللّهَ اللّهَ إنكم دارة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم دارة الروم وأنصار الشرك ، اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك . وقال رجل لخالد : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ، فقال خالد: ما أقل الروم وأكثر المسلمين ، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال ، واللّه لوددت أن الأشقر براء من توجيه (مرضه) وأنهم أضعفوا في العدد (الأشقر فرسه) .

وخرجت الروم في تعبئة لم ير مثلها ، فأمر خالد مجنبتي القلب أن ينشبا القتال وكان فيهما عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو ففعلا ، ونشب القتال والتحم

الناس وتطارد الفرسان وأمر خالد بالزحف العام ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيل الروم ورجالتهم وكان مكانهم واسع المطرد ضيق المهرب فلما وجدت خيلهم مذهبًا ذهبت ، وتركوا الرجالة في مصافهم وخرجت خيلهم تشتد بهم في الصحراء ، ولما رآها المسلمون كذلك أفرجوا لها ولم يحرجوها ، فذهبت فتفرقت في البلاد ، وأقبل خالد ومن معه على الرجالة فكأنما هدم بهم حائطًا ، فاقتحموا في خندقهم ، فاقتحمه عليهم فعمدوا إلى الوادي العميق من ورائهم حتى هوى فيه كثير منهم ، فقتل فيه كما يقول الطبري ١٢٠ ألفًا سوى من قتل في المعركة من الخيل والرجالة وكان القتال قد استمر طول النهار ومعظم الليل وأصبح خالد وهو في رواق رئيس جند الروم .

وكان لكثير من فرسان المسلمين في ذلك اليوم القدح المُعَلَّى في الثبات والصبر ، منهم عكرمة بن أبي جهل فإنه كان يقول : قاتلت رسول اللَّه ﷺ في كل موطن وأفر اليوم ؟! ثم ينادي من يبايع على الموت ، فبايعه أرباب النجدة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا جميعًا قدام فسطاط خالد وهو في وسط القلب ، حتى أثبتوا جميعًا جراحًا وقتلوا إلا من برأ منهم ، وأتى خالد عند المصبِّح بعكرمة جريحًا فوضع رأسه على فخذه وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسه على ساقه ، وجعل يمسح عن وجوههما ويقطر في حلوقهما الماء ويقول : زعم ابن الحنتمة أنا لا نستشهد (يريد عمر) ، وقاتل النساء في ذلك اليوم في جولة من الجولات ، وقتل من المسلمين في اليرموك نحو ثلاثة آلاف بينهم كثير من الوجوه والفرسان .

ولما بلغ الخبر هذه الموقعة هرقل وانهزام نخبة جيوشه هذه الهزيمة المنكرة وهو دون حمص ارتحل فجعل حمص بينه وبين الجنود الإسلامية وقال : سلام عليك يا سوريا سلامًا لا لقاء بعده .

وفي أثناء الموقعة جاء بريد المدينة وفيه خبر وفاة أبي بكر الصديق ﷺ وخلافة عمر بن الخطاب وعزل خالد عن إمارة الجيش وتولية أبي عبيدة قائدًا عامًّا مكانه ، فأخذ خالد الكتاب وأسره إلى أبي عبيدة ولم يذعه لئلا تهن به قوة الجنود ، وأخذ الكتاب فوضعه في كنانته حتى انتهت هذه الموقعة بهذا النصر ، فسلم الكتاب إلى أبي عبيدة وسلم عليه بالإمارة ، ومما يؤثر عن خالد في هذا اليوم قوله : الحمد اللَّه الذي قضى على أبي بكر بالموت وكان أحب إلي من عمر ، والحمد للَّه الذي ولى عمر وكان أبغض إلي من أبي بكر ثم ألزمني حبه .

عظة وعبرة

جيش عدته أربعون ألفًا يغلب جيشًا فيه خمسة أمثاله ، فما سبب ذلك الفوز مع أن العدد الكبير مدرب على الحروب وخوض المعامع وكان قريب عهد بالانتصار على الجنود الفارسية ؟

يقولون : إن ارتباك الدول التي حاربها المسلمون كان سببًا في فوزهم هذا الفوز السريع وهذا كان يمكن أن يكون سببًا لو كانت الارتباكات منعت تلك الدول عن حشد الجنود ومساعدة الثغور ، فكان في ذلك فرصة لمن يغزوهم ، أما وقد حشدوا ذلك العدد الجسيم مسلحًا منظمًا معبأ أعظم تعبئة فلا بد أن يكون هناك سبب وراء العدد والعدد .

والسبب : هو أن الجندي المسلم كان يخوض هذه المعامع وقلبه متأثر بأمرين :

الأول : ثقته بأن العاقبة له لما قرأه من الكتاب الكريم وما سمعه من الرسول ﷺ من التبشير بهذه الفتوح العظيمة . وهذه الثقة في قلبه بمنزلة مدد من اللّه يؤيده .

الثاني : أنه واثق بالعاقبة في الأخرى فهو إن قتل كان شهيدًا عاقبته الحسنى وزيادة ، وإن ظفر كان خيرًا فهو يرجو إحدى الحسنيين إما موت بعده سعادة لا توصف ، وإما فوز فيه فخر الدنيا ونصرة دينه ، أضف إلى ذلك ما وفقوا إليه من هؤلاء القواد العظماء الذين أعجزوا من بعدهم أن يقدم إقدامهم ، وقليل أمثالهم في تاريخ الشرق ، فرحم اللّه خالدًا فقد كان زينة في تاريخ أبي بكر .

وإلى هنا انتهت الأعمال الكبرى التي حدثت بين المسلمين وبين دولتي الروم والفرس في أيام أبي بكر وقطبها خالد بن الوليد المخزومي .

ويظهر لنا من هذا التاريخ القصير الذي لم يستمر أكثر من سنتين وأربعة أشهر ما وصفنا به أبا بكر من صدق العزيمة ومضائها .

* * *

من روائع هذه المعركة

١ – **قال ابن جرير الطبري وغيره** : لما توجهت الجيوش نحو الشام أفزع ذلك الروم وخافوا خوفًا شديدًا ، وكتبوا إلى هرقل يعلمونه بما كان من الأمر فيقال : إنه كان يومئذ بحمص ، ويقال : كان حج عامه ذلك إلى بيت المقدس . فلما انتهى إليه الخبر قال لهم: ويحكم إن هؤلاء أهل دين جديد ، وإنهم لا قبل لأحد بهم ، فأطيعوني

وصالحوهم بما تصالحونهم على نصف خراج الشام ويبقى لكم جبال الروم ، وإن أنتم أبيتم ذلك أخذوا منكم الشام وضيقوا عليكم جبال الروم . فنخروا في ذلك نخرة حمر الوحش كما هي عاداتهم في قلة المعرفة و الرأي بالحرب .

٢ – كان القَيقُلان من قادة الروم قد بعث رجلًا من نصارى العرب يجس له أمر الصحابة فلما رجع إليه قال : وجدت قومًا رهبانًا بالليل فرسانًا بالنهار ،و اللّه لو سرق فيهم ابن ملكهم لقطعوه أو زنى لرجموه، فقال له القيقلان : و اللّه لئن كنت صادقًا لبطن الأرض خير من ظهرها .

٣ – روى أحمد بن مروان المالكي في المجالسة : حدثنا أبو إسماعيل الترمذي حدثنا أبو معاوية بن عمرو عن أبي إسحاق قال : كان أصحاب رسول اللّه ﷺ لا يثبت لهم العدو فواق ناقة عند اللقاء ، فقال هرقل وهو على أنطاكية لما قدمت منهزمة الروم : ويلكم أخبروني عن هؤلاء الذين يقاتلونكم أليسوا بشرًا مثلكم ؟ قالوا : بلى .قال : فأنتم أكثر أم هم ؟ ، قالوا : بل نحن أكثر منهم أضعافًا في كل موطن . قال : فما بالكم تنهزمون ؟ فقال شيخ من عظمائهم : من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار ، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويتناصفون بينهم ، ومن أجل أنا نشرب الخمر ، ونزني ونركب الحرام ، وننقض العهد ، ونغضب ونظلم ونأمر بالسخط وننهى عما يرضى اللّه ونفسد في الأرض ، فقال : أنت صدقتني .

٤ – كان أبو سفيان واعظ الجيش وكان يقف على كل كردوس ويقول : اللّهَ اللّهَ إنكم دارة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم دارة الروم وأنصار الشرك ، اللهم إن هذا يوم من أيامك اللهم أنزل نصرك على عبادك .

٥ – لما أقبل خالد بن الوليد من العراق قال رجل من نصارى العرب لخالد : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! فقال خالد : ويلك أتخوفني بالروم ؟ إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال ، و اللّه لوددت أن الأشقر برأ من توجعه وأنهم أضعفوا في العدد – وكان فرسه قد حفا واشتكى في مجيئه من العراق .

٦ – ذكر الوليد بن مسلم أن « ماهان » طلب خالدًا ليبرز إليه فيما بين الصفين فيجتمعا في مصلحة لهم ، فقال ماهان : إنا قد علمنا أن ما أخرجكم من بلادكم الجهد والجوع ، فهلموا إليَّ على أن أعطي كل رجل منكم عشرة دنانير وكسوة وطعامًا ، وترجعون إلى بلادكم ، فإذا كان من العام المقبل بعثنا لكم بمثلها . فقال خالد : إنه لم يخرجنا من بلادنا ما ذكرت ، غير أنا قوم نشرب الدماء ، وأنه بلغنا أنه لا دم أطيب من دم الروم ،

فجئنا لذلك ، فقال أصحاب ماهان : هذا و اللّٰه ما كنا نُحدَّث به عن العرب .

٧ - **ذكر الواقدي وغيره** : أن قومًا من المسلمين تبايعوا على الموت منهم عكرمة بن أبي جهل وضرار بن الأزور ، ولما صرعوا من الجراح استسقوا ماء ، فجيء إليهم بشربة ماء فلما قربت إلى أحدهم نظر إليه الآخر ، فقال : ادفعها إليه ، فلما دفعت إليه نظر إليه الآخر ، فقال : ادفعها إليه فتدافعوها كلهم من واحد إلى واحد حتى ماتوا جميعًا ولم يشربها أحد منهم رضي اللّٰه عنهم أجمعين .

٨ - **يقال** : إن أول من قُتل من المسلمين يومئذ شهيدًا رجل جاء إلى أبي عبيدة فقال : إني قد تهيأت لأمري فهل لك من حاجة إلى رسول اللّٰه ﷺ ؟ قال : نعم ، تقرئه عني السلام ، وتقول : يا رسول اللّٰه ، إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا . قال : فتقدم هذا الرجل حتى قتل رحمه الله .

٩ - خرج « جَرْجَةُ » أحد الأمراء الكبار من صفوف الروم واستدعى خالد بن الوليد فجاء إليه حتى اختلفت أعناق فرسيهما ، فقال جرجة : يا خالد ، أخبرني فاصدقني ولا تكذبني ، فإن الحر لا يكذب ، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل : باللّٰه هل أنزل اللّٰه على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاكه فلا تسلّه على أحد إلا هزمتهم ؟ قال : لا ، قال : فبم سميت سيف اللّٰه ؟ قال : إن اللّٰه تعالى بعث فينا نبيه فدعانا فنفرنا منه ونأينا عنه جميعًا ، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا كذبه ، وباعده ، فكنت فيمن كذبه وباعده ثم إن اللّٰه تعالى أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به وبايعناه ، فقال لي : أنت سيف من سيوف اللّٰه ، سله اللّٰه على المشركين . ودعا لي بالنصر ، فسميت سيف اللّٰه بذلك ، فأنا من أشد المسلمين على المشركين . فقال جرجة : ياخالد إلام تدعون ؟ قال : إلى شهادة أن لا إله إلا اللّٰه وأن محمدًا عبده ورسوله والإقرار بما جاء به من عند اللّٰه ﷻ قال : فمن لم يجبكم ؟ قال : فالجزية و نمنعهم . قال : فإن لم يعطها ؟ قال نؤذنه بالحرب ثم نقاتله ، قال : فما منزلة من يجيبكم ويدخل في هذا الأمر اليوم ؟ قال : منزلتنا واحدة فيما افترض اللّٰه علينا ،شريفنا ووضيعنا وأولنا وآخرنا . قال جرجة : فلمن دخل فيكم اليوم من الأجر مثل مالكم من الأجر والذخر ؟ قال : نعم وأفضل ، قال : وكيف يساويكم وقد سبقتموه ؟ فقال خالد : إنا قبلنا هذا الأمر عنوة وبايعنا نبينا وهو حي بين أظهرنا ، تأتيه أخبار السماء ، ويخبرنا بالكتاب ويرينا الآيات ، وحق لمن رأى ما رأينا ، وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع ، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا ، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج ، فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل

منا ، فقال جرجة : بالله لقد صدقتني ولم تخادعني ؟ قال : تالله لقد صدقتك وإن الله وَلِيّ ما سألت عنه . فعند ذلك قلب جرجة الترس ومال مع خالد وقال : علمني الإسلام ، فمال به خالد إلى فسطاطه فشن (صب) عليه قربة من ماء ثم صلى به ركعتين . وحملت الروم مع انقلابه إلى خالد وهم يرون أنها منه حيلة . فركب خالد ، وجرجة معه ، والروم خلال المسلمين ، فتنادى الناس وثابوا وتراجعت الروم إلى مواقفهم ، وزحف خالد بالمسلمين حتى تصافحوا بالسيوف فضرب فيهم خالد وجرجة من لدن ارتفاع الشمس إلى جنوح الشمس للغروب .وصلى المسلمون صلاة الظهر وصلاة العصر إيماء ،وأصيب جرجة رحمه الله ولم يصل لله إلا هاتين الركعتين .

١٠ – قتل في هذا اليوم من المسلمين ثلاثة آلاف منهم عكرمة وابنه عمرو ،وسلمة ابن هشام ، وعمرو بن سعيد ، وأبان بن سعيد ، وأثبت خالد بن سعيد فلا يدرى أين ذهب ، وضرار بن الأزور ، وهشام بن العاص ، وعمرو بن الطفيل بن عمرو الدوسي ، بينما قتل من الروم أكثر من مائة وخمسين ألفًا .

١١ – قال سعيد بن المسيب عن أبيه قال : هدأت الأصوات يوم اليرموك فسمعنا صوتًا يكاد يملأ العسكر يقول : يا نصر الله اقترب ، الثبات الثبات يامعشر المسلمين ، قال : فنظرنا فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد .

١٢ – لما وصل الخبر إلى هرقل ارتحل من حمص وجعلها بينه وبين المسلمين وقال هرقل : أما الشام فلا شام ، وويل للروم من المولود المشئوم .

* * *

إدارة البلاد في عهد أبي بكر

كانت الجزيرة العربية هي البلاد التي تحت الإدارة الإسلامية نهائيًا وكان أبو بكر قد جزأها إلى ولايات وعلى كل ولاية أمير من قبله وكان لهذا الأمير إقامة الصلاة والفصل في القضايا وإقامة الحدود ، فهو أمير وقاض ومنفذ ؛ لأن أبا بكر لم يعين قضاة يتولون القضاء دون الأمراء ، وهذه ولايات الجزيرة في عهده .

١ – **مكة** ، وأميرها عتاب بن أسيد وهو الذي ولاه الرسول ﷺ .

٢ – **الطائف** ، وأميرها عثمان بن أبي وقاص وهو الذي ولاه الرسول ﷺ .

٣ – **صنعاء** ، وأميرها المهاجر بن أبي أمية وهو الذي فتحها بعد الردة .

٤ – **حضرموت** ، وواليها زياد بن لبيد .

٥ – **خولان** ، وواليها يعلى بن أمية .

٦ – **زبيد ورفع** ، وواليهما أبو موسى الأشعري .

٧ – **الجند** ، وأميرها معاذ بن جبل .

٨ – **نجران** ، وواليها جرير بن عبد اللّٰه البجلي .

٩ – **جرش** ، وواليها عبد اللّٰه بن ثور .

١٠ – **البحرين** ، وواليها العلاء بن الحضرمي .

أما العراق والشام : فكانت لا تزال الحروب قائمة فيهما ، وكان أمراء الجند هم ولاة الأمر فيها ، ولم يكن لأبي بكر وزير ، وإنما كان عمر ﷺ يلي القضاء ، وأبو عبيدة أمينًا لبيت المال قبل أن يسيره إلى الشام .

وكان يكتب له زيد بن ثابت ، ويكتب له الأخبار عثمان بن عفان ، كما كان يكتب له من حضر .

* * *

جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر

في عهد أبي بكر الصديق ﷺ جمع القرآن الكريم لأول مرة في مصحف واحد يجمع سوره كلها ، وكان قبله محفوظًا مرتبًا في الصدور ومكتوبًا آيات وسورًا ليست مجتمعة عند الصحابة ، فلما حصلت حروب الردة وكان قد قتل فيها كثير من القراء رأى أبو بكر ﷺ أن يجمع القرآن ، واختار لذلك كاتب الوحي لرسول اللَّه ﷺ ، وأحد القراء الذين كانوا يستظهرون القرآن وهو زيد بن ثابت فقام بالأمر ، وجمع أول مصحف بملأ من أصحاب رسول اللَّه ﷺ والحفاظ منهم ووضع هذا المصحف عند أبي بكر ﷺ ، فأمر بوضعه عند حفصة أم المؤمنين فظل عندها إلى عهد عثمان ﷺ .. اهـ .

* * *

أرزاق الجند والولاة في عهد أبي بكر

كان الجند متطوعين لا يجمعهم ديوان ، وكانوا يأخذون أربعة أخماس الغنيمة يوزعها عليهم رئيس الجند غير ما يناله القاتل من سلب القتيل وغير ما ينفله رئيس الجند للممتازين ، وكان أبو بكر يسوي في العطاء لا يفضل أحدًا على أحد .

كان يرد لبيت المال خمس الغنائم وصدقات المسلمين وجزية أهل الذمة ومن ذلك كان يعطي الولاة أرزاقهم ويوزع مابقي على من عينوا في الكتاب لمصارف الزكاة .

* * *

مرض أبي بكر واستخلافه عمر بن الخطاب

قال ابن سعد في طبقاته : أخبرنا محمد بن عبد اللَّه عن الزهري عن عروة عن عائشة ﵂ قالت : كان أول بدء مرض أبي بكر أنه اغتسل يوم الاثنين لسبع خلون من جمادى الآخرة ، وكان يومًا باردًا ، فَحُمَّ خمسة عشر يومًا لا يخرج إلى صلاة ، وكان يأمر عمر بن الخطاب أن يصلي بالناس ، ويدخل الناس عليه يعودونه وهو يَثْقُلُ كل يوم وهو نازل يومئذ في داره التي قطع له النبي ﷺ وِجاهَ دار عثمان بن عفان اليوم ، وكان عثمان ألزمهم له في مرضه .

قال ابن سعد : ثبت أن أبا بكر الصديق ﷺ لما اشتد به المرض دعا عبد الرحمن بن عوف فقال : أخبرني عن عمر بن الخطاب ، فقال عبد الرحمن : ما تسألني عن أمر وأنت أعلم به مني ، فقال أبو بكر : وإن ، فقال عبد الرحمن : هو واللَّه أفضل من رأيك

فيه ، ثم دعا عثمان بن عفان فقال : أخبرني عن عمر ، فقال : أنت أخبرنا به ، فقال : على ذلك يا أبا عبد اللَّه ، فقال عثمان : اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته وأنه ليس فينا مثله ، فقال أبو بكر : يرحمك اللَّه لو تركته ما عَدَوتُك . وشاور معهما سعيد بن زيد أبا الأعور ، وأسيد بن الحضير وغيرهما من المهاجرين والأنصار ، فقال أسَيد : اللهم أعلمه الخيرة بعدك ، يرضى بالرضا ويسخط بالسخط الذي يسر خير من الذي يعلن ، ولم يل هذا الأمر أحد أقوى عليه منه ، وسمع بعض أصحاب النبي ﷺ بدخول عبد الرحمن وعثمان على أبي بكر وخلوتهما به فدخلوا على أبي بكر فقال له قائل منهم: ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك لعمر علينا وقد ترى غلظته ؟ فقال أبو بكر : أجلسوني ، أباللَّه تخوفني ؟ خاب من تزود من أمركم بظلم ، أقول : اللهم استخلفت عليهم خير أهلك . أبلغ عني ما قلت لك من وراءك . ثم اضطجع ودعا عثمان بن عفان فقال : اكتب ، بسم اللَّه الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجًا منها وعند أول عهده بالآخرة داخلًا فيها حيث يؤمن الكافر ويوقن الفاجر ويصدق الكاذب ، إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا ، وإني لم آلُ اللَّه ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيرًا ، فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه ، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب من الإثم ، والخيرَ أردت ولا أعلم الغيب ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، والسلام عليكم ورحمة اللَّه ، ثم أمر بالكتاب فختمه .

وقال بعضهم : لما أملى أبو بكر صدر هذا الكتاب ، بقي ذكر عمر فَذُهِبَ به قبل أن يسمي أحدًا ، فكتب عثمان : إني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، ثم أفاق أبو بكر فقال : اقرأ علي ما كتبت ، فقرأ عليه ذكر عمر فكبر أبو بكر وقال : أراك خفت إن أقبلت نفسي في غشيتي تلك يختلف الناس فجزاك اللَّه عن الإسلام وأهله خيرًا ، واللَّه إن كنت لها لأهلًا . ثم أمره فخرج بالكتاب مختومًا ومعه عمر بن الخطاب وأسيد بن سعيد القرظي فقال عثمان للناس : أتبايعون لمن في هذا الكتاب ؟ فقالوا : نعم ، وقال بعضهم : قد علمنا به ، قال ابن سعد : عليٌّ القائل : هو عمر ، فأقروا بذلك جميعًا ورضوا به وبايعوا ثم دعا أبو بكر عمر خاليًا فأوصاه بما أوصاه به ثم خرج من عنده فرفع أبو بكر يديه مدًّا فقال : اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم به واجتهدت لهم رأيي فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم ، وأحرصهم على ما أرشدهم ، وقد حضرني من أمرك ما حضر فاخلفني فيهم فهم عبادك ونواصيهم بيدك أصلح لهم واليهم واجعله من خلفائك الراشدين يتبع هدي نبي الرحمة وهدي الصالحين بعده وأصلح له رعيته .

وفاة أبي بكر رضي الله عنه

توفي أبو بكر رضي الله عنه مساء ليلة الثلاثاء لثمان ليالٍ بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من مهاجر النبي ﷺ ، فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال ، وكان أبو معشر يقول : سنتين وأربعة أشهر إلا أربع ليال ، وتوفي رضي الله عنه وهو ابن ثلاث وستين سنة ، مجمع على ذلك في الروايات كلها ، استوفى سن الرسول ﷺ وكان أبو بكر رضي الله عنه ولد بعد الفيل بثلاث سنين .

وعن ابن أبي مليكة : أن أبا بكر أوصى أن تغسله امرأته أسماء .

وعن صالح بن أبي حسان أن علي بن الحسين سأل سعيد بن المسيب : أين صُلِّي على أبي بكر ؟ فقال : بين القبر والمنبر ، قال : من صلى عليه ؟ قال : عمر ، قال : كم كبر عليه ؟ قال : أربعًا .

وعن هشام بن عروة قال : حدثني أبي أن عائشة رضي الله عنها حدثته قالت : توفي أبو بكر ليلًا فدفناه قبل أن نصبح .

وعن ابن عمر قال : حضرت دفن أبي بكر فنزل في حفرته عمربن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد اللَّه ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، قال ابن عمر : فأردت أن أنزل فقال عمر : كُفيت .

وعن عمر بن عبد اللَّه بن عروة أنه سمع عروة والقاسم بن محمد يقولان : أوصى أبو بكر عائشة أن يدفن إلى جنب الرسول ﷺ ، فلما توفي حفر له وجعل رأسه عند كتفي الرسول ﷺ ، وألصق اللحد بقبر رسول اللَّه ﷺ فقبر هناك .

وعن عامر بن عبد اللَّه بن الزبير قال : رأس أبي بكر عند كتفي الرسول ﷺ ، ورأس عمر عند حَقْوَي أبي بكر .

وعن المطلب بن عبد اللَّه بن حنطب قال : جعل قبر أبي بكر مثل قبر النبي ﷺ مسطحًا ورش عليه الماء .

وعن القاسم بن محمد قال : دخلت على عائشة فقلت : يا أمه اكشفي لي عن قبر النبي ﷺ وصاحبيه فكشفت لي عن ثلاثة قبور لا مشرفة ولا لاطئة مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء ، قال : فرأيت قبر النبي ﷺ مقدمًا ، وقبر أبي بكر عند رأسه ، ورأس عمر عند رجل النبي ، **قال عمرو بن عثمان :** فوصف القاسم قبورهم .

وعن عبد اللَّه بن دينار أنه قال : رأيت عبد اللَّه بن عمر يقف على قبر النبي ﷺ

فيصلي على النبي ﷺ ويدعو لأبي بكر وعمر .

* * *

ورثة أبي بكر

ورث أبا بكر الصديق ؓ أبوه - أبو قحافة - السدس وورثه معه ولده عبد الرحمن ومحمد وعائشة وأسماء وأم كلثوم بنو أبي بكر ، وامرأتاه أسماء بنت عميس ، وحبيبة ابنة خارجة بن زيد بن أبي زهير من بلحارث بن الخزرج ، وهي أم كلثوم . وعن إسحاق بن يحيى بن طلحة قال : سمعت مجاهدًا يقول : كلم أبو قحافة في ميراثه من أبي بكر ؓ فقال : قد رددت ذلك على ولد أبي بكر . قالوا : ثم لم يعش أبو قحافة بعد أبي بكر إلا ستة أشهر وأيامًا ، وتوفي في المحرم سنة أربع عشرة بمكة وهو ابن سبع وتسعين سنة [1] . ا . هـ .

* * *

(١) الطبقات جـ ٣ .

الفاروق عمر بن الخطاب

البداية :

كنا مع أبي بكر الصديق ﷺ في دراسة شخصيته الهادئة الوديعة الضعيفة جَسَدًا ، والقوية روحًا ومعنًى .وعزيمةً وشجاعةً وإيمانًا ، وقد وجدنا منه العجب العجاب ، والصرح الشامخ ، والمنار الهادي ، ورجل الشدائد الأهوال .

وها نحن أولاء مع أخيه العظيم القوي الأمين الملهم عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه وأرضاه ، وحشرنا في زمرتهم أجمعين .

وإذا كان أبو بكر قد وطد أركان الدولة الإسلامية ، وأعاد إليها رشدها ، وثبت أركانها وقوى دعائمها ، وأقامها على أصول أصيلة من الكتاب والسنة ، فإن عمر بن الخطاب ملك زمام هذه الدولة بعد أبي بكر ، وسار بسفينتها وسط الأعاصير والعواصف والرياح العاتية ، فكان خير ربان لهذه السفينة ، وأعظم قائد بعد أبي بكر الصديق لهذه الأمة ، حيث أمن الجميع واطمأنوا ، واستقرت حياتهم وسعدوا ،وجنوا ثمار جهادهم وعزوا ، وأذلوا رؤوس الجبابرة والأكاسرة حتى خضعوا واستكانوا ، وقادوا العالم إلى شواطئ النجاة ، وجمال الحياة ، وكمال النظام ، ورحمة الأحكام ، وتأكد للناس في عهده أن الأمل الذي كان عزيز المنال قد تحقق ، وأن العدل الشامل قد تأكد ، وأن الحياة الطيبة في ظل الإسلام قد شملت جميع الجوانب .

وانتشر نور الإسلام وشعاعه شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا بفضل القيادة العمرية التي لا عهد للبشرية بمثلها من غير النبيين .

ولقد كان إسلامه فتحًا ، وخلافته نصرًا ، وآراؤه حِكمًا ، وزهده مثالًا نادرًا ، وشجاعته وحزمه وعدله شيئًا يفوق الوصف .

وإليك صورًا من حياته وخلافته وحكمه ، وجميع جوانب حياته ، رضي اللَّه عنه وأرضاه .

* * *

التعريف بعمر ﷺ
نسبه ومولده ومكانته من قريش

عن ابن إسحاق قال : هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي ، وأمه خيثمة بنت هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم . [رواه الطبراني في الكبير] .

ولد عمر بن الخطاب ﷺ بعد الفيل بثلاث عشرة سنة وكان من أشراف قريش ، قالوا : وإليه كانت السفارة في الجاهلية فكانت قريش إذا وقعت الحرب بينهم ، أو بينهم وبين غيرهم بعثوه سفيرًا (أي رسولًا) ، ولما بُعث رسول الله ﷺ كان عمر ﷺ شديدًا عليه وعلى المسلمين ، ثم لطف الله تعالى به فأسلم قديمًا . أسلم بعد أربعين رجلًا وإحدى عشرة امرأة وقيل غير ذلك كما سيأتي . [اهـ تهذيب الأسماء للنووي] .

صفة عمر ﷺ :

كان أبيض أمهق تعلوه حمرة ، طوالًا أصلع أجلح (انحسر الشعر عن جانبي رأسه) شديد حمرة العين ، في عارضه خفة ، وقال وهب : صفته في التوراة : قِرن من حديد . أمير شديد .

أولاده ﷺ :

كان له من الولد : عبد الله ، وعبد الرحمن ، وحفصة ، وأمهم زينب بنت مظعون .

وزيد الأكبر ، ورقية : وأمهما أم كلثوم بنت علي .

وزيد الأصغر وعبيد الله : وأمهما أم كلثوم بنت جرول .

وعاصم : وأمه جميلة .

وعبد الرحمن الأوسط : وأمه لهية . أم ولد .

وعبدالرحمن الأصغر : وأمه أم ولد .

وفاطمة : وأمها أم حكيم بنت الحارث .

وعياض : وأمه عاتكة بنت زيد .

وزينب : وأمها فكيهة أم ولد .

* * *

سبب إسلام عمر وتسميته الفاروق

عن أنس بن مالك ﷺ قال : خرج عمر متقلدًا بالسيف فوجده رجل من بني زُهْرة فقال : أين تعمد يا عمر؟ قال : أريد أن أقتل محمدًا . قال: وكيف تأمن في بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمدًا ؟ فقال له عمر : ما أراك إلا قد صبأت (أسلمت) وتركت دينك الذي أنت عليه . قال : أفلا أدلك على العَجَب : ياعمر ؟ إن أختك وخَتَنَك (زوج أختك) قد صَبَوَا وتركا دينك الذي أنت عليه ، فمشى عمر ذمِرًا (متهددًا) حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خَبَّابٌ ، فلما سمع خَبَّاب حِسَّ عمرَ توارى في البيت ، فدخل عليهما فقال : ما هذه الهينمة (الكلام الخفي الذي لا يفهم) التي سمعتها عندكم ؟ قال : وكانوا يقرأون ﴿ طه ﴾ فقالا: ما عدا (ما تجاوز الأمر) حديثًا تحدثناه بيننا . قال : فلعلكما صبوتما فقال له خَتَنه : أرأيت يا عمر إن كان الحق في غير دينك ؟ فوثب عمر على ختَنه فوطئه وطئًا شديدًا ، فجاءت أخته فدفعته عن زوجها فنفحها (ضربها) نفحة بيده ، فَدَمِيَ وجهها (تلوث بالدم) ، فقالت وهي غضبى : أرأيت ياعمر إن كان الحق في غير دينك ؟ أشهد أن لا إله إلا اللّه وأشهد أن محمدًا رسول اللّه .

فلما يئس عمر قال : أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرأه – وكان عمر يقرأ الكتاب – فقالت أخته : إنك رجس ، ولا يمسه إلا المطهرون فقم فاغتسل أو توضأ ، فقام فتوضأ (غسل يديه) ثم أخذ الكتاب فقرأ ﴿ طه ﴾ حتى انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [طه : ١- ١٤] فقال عمر : دلوني على محمد فلما سمع خبابٌ قول عمر خرج من البيت فقال : أبشر ياعمر فإني أرجو أن تكون دعوة رسول اللّه ﷺ لك ليلة الخميس « **اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام** » قال : ورسول اللّه ﷺ في الدار التي في أصل الصفا ، فانطلق عمر حتى أتى الدار . قال : وعلى الباب حمزة وطلحة وناس من أصحاب رسول اللّه ﷺ ، فلما رأى حمزةُ وَجَلَ الناس (خوفهم) من عمر قال : نعم هذا عمر ، فإن يُرِدِ اللّهُ بعمرَ خيرًا يُسْلِم ويتَّبع النبي ﷺ ، وإن يُرِدْ غيرَ ذلك يكنْ قتله عَلَينا هيِّنًا ، قال : والنبي ﷺ داخل يُوحَى إليه . قال : فقام رسول اللّه ﷺ حتى أتى عمر فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف ، فقال : « **ما أنت منتهيًا يا عمر حتى يُنْزِل اللّه** (يعني بك) **من الخزي والنكال مانزل بالوليد بن المغيرة** ؟ (اللهم هذا عمر بن الخطاب) **اللهم أعِزَّ الدين بعمر بن الخطاب** » . فقال عمر : أشهد إنك لرسول اللّه . فأسلم ، وقال : اخرج يا رسول اللّه .

وعن ابن عباس ﷺ قال : سألت عمر بن الخطاب لأي شيء سُميت بالفاروق ؟ قال : أسلم حمزة قبلي بثلاثة أيام ، ثم شرح اللّٰه صدري للإسلام ، فقلت : اللّٰه لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى (أي قرأ من أول طه إلى هذه الآية كما سبق) ، فما في الأرض نسَمة أحبُّ إليَّ من نسمة رسول اللّٰه ﷺ . فقلت : أين رسول اللّٰه ؟ فقالت أختي : هو في دار الأرقم بن أبي الأرقم عند الصفا فأتيت الدار وحمزة في أصحابه جلوس في الدار ، ورسول اللّٰه ﷺ في البيت ، فضربت الباب فاستجمع القوم فقال لهم حمزة : مالكم ؟ قالوا : عمر بن الخطاب ، قال : فخرج رسول اللّٰه ﷺ – فأخذ بمجامع ثيابه ثم هزه هزة فما تمالك أن وقع على ركبتيه – فقال : « **ما أنت بمُنْتَه ياعمر؟** » قال : قلت : أشهد أن لا إله إلا اللّٰه وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، فكبَّر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد ، قال : فقلت : يا رسول اللّٰه ألسنا على حق إن مُتْنَا وإن حَيينا ؟ قال : « **بلى ، والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم وإن حَييتم** » . فقلت : ففيم الاختفاء ؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن ، فأخرجناه في صَفَّين ،حمزة في أحدهما وأنا في الآخر ، له كديد (غبار) ككديد الطحين ، حتى دخلنا المسجد . قال : فَنَظَرتْ إليَّ قريش وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها فسماني رسول اللّٰه ﷺ يومئذ الفاروق .

قال أهل السِّير : أسلم عمر وهو ابن ست وعشرين سنة بعد أربعين رجلًا .

وقال سعيد بن المسَّيب : بعد أربعين رجلًا وعشر نسوة .

وعن داود بن الحصين والزهري قالا : لما أسلم عمر نزل جبريل عليه السلام فقال : يا محمد استبشر أهل السماء بإسلام عمر .

وقال ابن مسعود : مازلنا أعزة منذ أسلم عمر .

وعن القاسم بن عبد الرحمن قال : قال عبد اللّٰه بن مسعود : كان إسلام عمر فتحًا وكانت هجرته نصرًا ، وكانت إمارته رحمة ، لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر ، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا .

وعن صالح بن كيسان قال : قال ابن شهاب : بلغنا أن أهل الكتاب كانوا أول من قال لعمر (الفاروق) ، وكان المسلمون يأثرون ذلك من قولهم ، ولم يبلغنا أن رسول اللّٰه ﷺ ذكر من ذلك شيئًا ، ولم يبلغنا أن ابن عمر قال ذلك إلا لعمرو فيما يذكر من مناقب عمر الصالحة ويثني عليه .

وعن أيوب بن موسى قال : قال رسول اللّٰه ﷺ . « **إن اللّٰه جعل الحق على لسان**

عمر وقلبه وهو الفاروق فرق اللّه به بين الحق والباطل » .

وعن أبي عمرو ذكوان قال : قلت لعائشة ﵂ : مَن سمى عمر الفاروق ؟ قالت : النبي ﷺ . وفي هذا رد على القول السابق [اهـ . من الطبقات] .

* * *

تحمله الشدائد حين أسلم

أخرج ابن إسحاق عن ابن عمر ﵄ قال : لما أسلم عمر ﵁ قال : أيُّ قريش أَنْقَل للحديث ؟ فقيل له : جَميل بن مَعْمرَ الجُمحِيُّ ، فغدا عليه ، قال عبد اللّه : وغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل - وأنا غلام أعقل كل ما رأيت - حتى جاءه فقال له : أعَلِمْتَ يا جميل إني أسلمت ودخلت في دين محمد ﷺ ؟ قال : فواللّه ؟! ماراجعه حتى قام يجر ردائه واتبعه عمر واتبعته أنا حتى قام على باب المسجد فصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ! - وهم في أنديتهم (مجالسهم) حول الكعبة - ألا إن ابن الخطاب قد صبأ . قال : يقول عمر من خلفه : كذب ، ولكني قد أسلمتُ وشهدتُ أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه ، وثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم . قال : وطَلَحَ (تعب) فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم ، فأحلف باللّه أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا . قال : فبينما هم على ذلك ؛ إذ أقبل شيخ من قريش عليه حُلَّةُ حِبَرَةَ (نوع من برود اليمن) وقميص مُوَشًّى (مخطط) حتى وقف عليهم . فقال : ما شأنكم ؟ فقالوا : صبأ عمر . قال : فَمَهْ ! رَجُلٌ اختار لنفسه أمرًا فماذا تريدون ؟ أترون بني عديّ يسلمون لكم صاحبهم هكذا ؟ خَلُّوا عن الرجل . قال : فواللّه ! لكأنما كانوا ثوبًا كُشِطَ عنه . قال : فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة : يا أبت ! مَن الرجلَ الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أَسْلَمْتَ وهم يقاتلونك ؟ قال : ذاك - أي بُنَيَّ - العاص بن وائل السهمي .

[وهذا إسناد جيد قوي ، كذا في البداية] .

وعند البخاري عن ابن عمر ﵄ قال : بينما هو في الدار خائفًا إذ جاءه العاص بن وائل السهمي - أبو عمرو - وعليه حلة حبرة وقميص مكفوف بحرير - وهو من بني سهم ، وهم حلفاؤنا في الجاهلية . فقال له : ما بالك ؟ قال : زعم قومك أنهم سيقتلونني أن أَسْلَمْتُ . قال : لا سبيل إليك . بعد أن قالها أَمِنْتُ . فخرج العاص فلقي الناس ، قد سال بهم الوادي . فقال : أين تريدون ؟ فقالوا : نريد هذا ابن الخطاب الذي

صبأ . قال : لا سبيل إليه ، فَكَرَّ الناس (رجعوا) . [اهـ . من حياة الصحابة] .

* * *

مشهود له بالجنة وملهم

عن سعيد بن زيد أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ﷺ قال :سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **أبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلي في الجنة ، وطلحة في الجنة ، والزبير في الجنة ، وسعد بن مالك – هو ابن أبي وقاص – في الجنة ، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة ، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة ، وسكت عن العاشر قالوا : من العاشر ؟ قال : سعيد بن زيد . يعني نفسه** » [رواه أبو داود ، والترمذي والنسائي وغيرهم . قال الترمذي : حديث حسن صحيح] .

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر : « **هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين** » [رواه الترمذي وقال : حديث حسن غريب] .

وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « **لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب** » . [رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح] .

وعن طارق بن شهاب قال : قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : كنا نتحدث أن ملكًا ينطق على لسان عمر . [اهـ . حلية الأولياء] .

ومن المشهورات من كرامات عمر ﷺ : أنه كان يخطب يوم الجمعة بالمدينة فقال في خطبته : يا ساريةُ بنَ زُنَيم ، الجبلَ الجبلَ . فالتفت الناس بعضهم إلى بعض فلم يفهموا مراده ، فلما قضى صلاته ، قال له علي ﷺ : ما هذا الذي قلته ؟ قال : وسمعته ؟ قال : نعم ، أنا وكل مَن في المسجد ، قال : وقع في خَلَدي أن المشركين هزموا إخواننا ، وركبوا أكتافهم ، وأنهم يمرون بجبل فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجدوه وظفروا ، وإن جاوزوه هلكوا فخرج مني هذا الكلام ، فجاء البشير بعد الشهر ، فذكر أنهم سمعوا في ذلك اليوم وتلك الساعة حين جاوزوا الجبل صوتًا يشبه صوت عمر يقول : ياسارية بن زنيم ، الجبلَ الجبل فعدلنا إليه ففتح الله علينا .

وعن ابن عمر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه** » **وقال ابن عمر** : مانزل أمر قط فقالوا ، وقال فيه عمر ، إلا نزل فيه القرآن على نحو ما قال فيه عمر . [رواه الترمذي] .

وعن عقبة بن عامر ﷺ مرفوعًا : « **لقد كان فيمن كان قبلكم ناس محدَّثون من غير أن**

يكونوا أنبياء ، فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر » [رواه الشيخان] .

* * *

هجرته وما فيها من عبر

أخرج ابن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن عمر ﵄ **قال** : اتَّعَدنْا لما أردت الهجرة إلى المدينة أنا وعيَّاشُ بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاص ﵄ التناضِب من أضاة بني غفار فوق سَرِف وقلنا : أيُّنا لم يصبح عندها فقد حُبس فليمضِ صاحباه . قال : فأصبحت أنا وعيَّاش عند التناضب وحُبس عنا هشام وفُتن فافتتن . فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقُباء . وخرج أبو جهل بن هشام ، والحارث بن هشام إلى عياش - وكانَ ابن عمهما وأخاهما لأمهما - حتى قدما المدينة و رسول اللَّه ﷺ بمكة فكلماه وقالا له : إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مُشط حتى تراك ولا تستظل من شمس حتى تراك . فرقَّ لها ، فقلت له : إنه - و اللَّه - إنْ يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم ، فواللَّه لو قد آذى أمَّك القملُ لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حرُّ مكة لاستظلَّت . قال : فقال : أبرُّ قَسَم أُمِّي ولي هنالك مال ، فآخذه . قال : قلت : واللَّه إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالًا ، فلك نصف مالي ، ولاتذهب معهما . قال : فأبى عليَّ إلا أن يخرج معهما . فلما أَبَى إلا ذلك قلت : أما إذ قد فعلت ما فعلت ، فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذَلول فالزم ظهرها ، فإن رابك من أمر القوم ريبٌ فانج عليها . فخرج عليها معهما حتى إذا كان ببعض الطريق قال له أبو جهل : يا أخي ! واللَّه ! لقد استغلظت بعيري هذا ، أفلا تعقبني على ناقتك هذه ؟ قال : بلى . فأناخ وأناخا ليتحول عليهما فلما استوَوا بالأرض عَدَوَا عليه فأوثقاه رباطًا ، ثم دخلا به مكة وفَتَنَاه فافْتُتِنَ . قال عمر ﵁ : فكنا نقول : لا يقبل اللَّه ممن افتُتن توبة : وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم حتى قدم رسول اللَّه ﷺ المدينة وأنزل اللَّه ﷻ : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الزمر : ٥٣- ٥٥] قال عمر : فكتبتها وبعثُ بها إلى هشام بن العاص . قال هشام : فلما أتتني جعلت أقرؤها بذي طُوى أُصَعِّد بها وأُصَوِّب ولا أفهمها حتى قلت : اللهم ؟! فهِّمْنيها ، فألقى اللَّه في قلبي أنها إنما أُنزلت

فينا وفيما كنا نقول في أنفسنا ، يقال فينا . قال فرجعت إلى بعيري فجلست عليه فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة . [كذا في البداية (ج ٣ ص ١٧٢) . وأخرجه أيضًا ابن السَّكن بسند صحيح عن ابن إسحاق بإسناده مطوّلًا كما أشار إليه الحافظ في الإصابة والبزار بطوله نحوه ، قال الهيثمي : ورجاله ثقات . اهـ من حياة الصحابة] .

وأخرج ابن عساكر عن علي بن أبي طالب ﷺ قال : ما علمت أحدًا هاجر إلا مختفيًا إلا عمرَ بنَ الخطاب ﷺ فإنه لما همَّ بالهجرة تقلَّد سيفَه وتنكَّب قوسه ، وانتضى في يده أَسْهُمًا ، وأتى الكعبة - وأشراف قريش بفنائها - فطاف سبعًا ، ثم صلى ركعتين عند المقام ، ثم أتى حلَقَهُم واحدة واحدة ، فقال : شاهت الوجوه ! من أراد أن تثكله أمه ، ويُؤتِّمَ ولده ، وتَرمُل زوجته ! فَلْيَلْقَنِي وراء هذا الوادي ؟ فما تبعه منهم أحد . [كذا في منتخب كنز العمال] .

* * *

هيبة عمر وخوف الشيطان منه

عن بريدة ﷺ قال : خرج النبي ﷺ في بعض مغازيه فلما انصرف جاءت جويرية سوداء ، فقالت : إني كنت نذرت إن ردك اللّه سالمًا أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنى ، فقال لها : إن كنت نذرتِ فاضربي وإلا فلا ، فقالت : نذرتُ وجعلتْ تضرب . زاد رزين وتقول :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا للّه داع

فدخل أبو بكر وهي تضرب ، ثم دخل عليٌّ وهي تضرب ، ثم دخل عثمان وهي تضرب ، ثم دخل عمر فألقت الدف تحت استها وقعدت عليه ، فقال ﷺ : « **إن الشيطان ليخاف منك يا عمر ، إني كنت جالسًا وهي تضرب ، فدخل أبو بكر وهي تضرب ، ثم دخل عليٌّ وهي تضرب ، ثم دخل عثمان وهي تضرب ، فلما دخلت أنت يا عمر ألقت الدف وجلست عليه** » [رواه الترمذي] .

وعن عائشة ﷺ ذكرت قصة لعب الحبشة وفيه : فقال ﷺ : « **إني لأنظر إلى شياطين الجن والإنس يفرون من عمر** » [رواه الترمذي] .

وعن سعد قال : استأذن عمر ﷺ على النبي ﷺ وعنده نسوة من قريش يكلمنه عاليةً أصواتهن على صوته ،فلما استأذن عمر عليه قُمن يَبْتَدِرْنَ الحجاب ، فأذن له فدخل وهو ﷺ يضحك ، فقال عمر: أضحك اللّه سِنَّك يا رسول اللّه ، بأبي وأمي ما أضحكك ؟ قال : « **عجبت من هؤلاء اللاتي كُنَّ عندي ، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب (أسرعن إليه)** » ، قال عمر : فأنت يارسول اللّه أحق أن يَهَبْنَ ، ثم قال عمر : أي عَدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول اللّه ﷺ ؟ قلن : نعم ، أنت أفظ وأغلظ من رسول اللّه ﷺ ، فقال ﷺ : « **إيه يا ابن الخطاب : والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكًا فجًا إلا سلك فجًا غير فجك** » [رواه البخاري ومسلم] .

وعن الأسود بن سريع قال : أتيت النبي ﷺ فقلت : قد حمدت ربي بمحامد ومدح وإياك . فقال : « **إن ربك ﷻ يحب الحمد** » فجعلت أُنشده ، فاستأذن رجل طويل أصلع فقال لي رسول اللّه ﷺ : « **اسكت** » فدخل فتكلم ساعة ثم خرج فأنشدته ثم جاء ، فسكَّتني النبي ﷺ فتكلم ثم خرج ، ففعل ذلك مرتين - أو ثلاثًا - فقلت : يا رسول اللّه : منَ هذا الذي أسْكَتَّني له ؟ فقال : « **هذا عمر ، رجل لا يحب الباطل** » .

قال الشيخ أبو نعيم الأصفهاني ﷺ : فالاستدعاء من النبي ﷺ رخصة وإباحةٌ لاستماع المحامد والمدائح ، فقد كان نشيده الثناء على ربه ﷻ والمدحَ لنبيه ﷺ . وإخباره – عليه الصلاة والسلام – أن عمر ﷺ لا يحب الباطل : أي مَن اتخذ التمدح حرفة واكتسابًا ، فيحمله الطمع في الممدوحين على أن يهيم في الأودية ويَشِين بفريته المحافلَ والأندية ، ويمدح من لا يستحقه ، ويضع من شأن من لا يستوجبه إذا حرمه نائله ، فيكون رافعًا لمن وضعه اللَّه ﷻ لطمعه ، أو واضعًا لمن رفعه اللَّه ﷻ لغضبه ، فهذا الاكتساب والاحتراف باطل ، فلهذا قال النبي ﷺ : « **إنه لا يحب الباطل** » . فأما الشعر المحكم الموزون فهو من الحكم الحسن المخزون ، يخص اللَّه تعالى به البارع في العلم ذا الفنون ، وقد كان أبو بكر ، وعمر وعلي رضي اللَّه تعالى عنهم يُشْعِرون .

وعن الحسن عن الأسود بن سريع قال : كنت أُنشده – يعني النبي ﷺ – ولا أعرف أصحابه حتى جاء رجل بعيد ما بين المناكب أصلعُ ، فقيل : اسكت اسكت ، قلت : واثكلاه من هذا الذي أسكت له عند النبي ﷺ ؟! فقيل : عمر بن الخطاب ، فعرفت و اللَّه بعد أنه كان يهون عليه لو سمعني أن لا يكلمني حتى يأخذ برجلي فيسحبني إلى البقيع .

قال الشيخ ﷺ : فكذا سبيل الأبرياء من الشرك والعناد ، الأصفياء بالمعرفة والوداد ، أن لا يلهيهم باطل من الفعال والمقال ، وأن لا يثنيهم في توجههم إلى الحق حال من الأحوال ، وأن يكونوا مع الحق على أكمل حال ، وأنعم بال ، كان ﷺ يلتمس بالذلة لمولاه القوة والتعزز ، ويترك في إقامة طاعته الرفاهية و التقزز . [اهـ من حلية الأولياء] .

* * *

أوليات عمر وشيء من سياسته

قالوا : إن رسول اللَّه ﷺ لما توفي واستُخلِف أبو بكر الصديق كان يقال له : خليفةُ رسول اللَّه ﷺ ، فلما توفي أبو بكر ﷺ ، واستُخْلِفَ عمر بن الخطاب قيل لعمر : خليفة خليفة رسول اللَّه ﷺ ، فقال المسلمون : فمن جاء بعد عمر قيل له : خليفة خليفة خليفة رسول اللَّه ﷺ فيطول هذا ، ولكن أجمعوا على اسم تدعون به الخليفة يُدْعَ به مَن بعده من الخلفاء ، فقال بعض أصحاب رسول اللَّه ﷺ : نحن المؤمنون وعمر أميرنا ، فَدُعِيَ عمر أمير المؤمنين ، وهو أول من سُمِّي بذلك .

وهو أول من كتب التأريخ في شهر ربيع الأول سنة ست عشرة : فكتبه من هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة .

وهو أول من سَنَّ الجماعة في قيام شهر رمضان : بأن جمع الناس على ذلك وكتب به إلى البلدان ، وذلك في شهر رمضان سنة أربع عشرة ، وجعل للناس بالمدينة قارئين ، قارئًا يصلي بالرجال ، وقارئًا يصلي بالنساء .

وهو أول من ضرب في الخمر ثمانين ، واشتد على أهل الرِّيَب والتُّهم وأحرق بيت رُويشد الثقفي وكان حانوتًا يباع فيه الخمر سرًّا . وغرَّب ربيعة بن أمية بن خلف وكان صاحب شراب ، فدخل أرض الروم فارتد .

وهو أول من عَسَّ (سهر في تفقد أحوال الرعية) في عمله بالمدينة ، وحمل الدِّرَّة (عصا صغيرة) ، ولقد قيل بعده: لَدِرَّةُ عمر أَهْيَبُ من سيفكم .

وهو أول من فتح الفتوح ، وهي الأرضون والكُوَر التي فيها الخراج والفيء ، فتح العراق كله : السواد و الجبال وأذربيجان ، وكوَرَ البصرة وأرضها ، وكُوَرَ (مدن) الأهواز وفارس ، وكور الشام ما خلا أجنادين فإنها فُتحت في خلافة أبي بكر الصديق ﷺ ، وفتح عمر ﷺ كور الجزيرة والموصل ومصر والإسكندرية ، وقُتل ﷺ وخيلُه على الرَّيِّ وقد فتحوا عامتها .

وهو أول من مسح السواد وأرض الجبل ووضع الخراج على الأرضين والجزية على جماجم أهل الذمة فيما فتح من البلدان ، فوضع على الغني ثمانية وأربعين درهمًا ، وعلى الوسط أربعة وعشرين درهمًا ، وعلى الفقير اثني عشر درهمًا في السنة وقال : لايُعْوِزُ رجلًا منهم درهمًا في شهر ، فبلغ خراجُ السواد والجبل على عهد عمر ﷺ مائة ألف ألف وعشرين ألف ألف وَاف (والواف : درهم ودانقان ونصف) .

وهو أول من مَصَّرَ الأمصار (بناها) : الكوفة والبصرة والجزيرة والشام ومصر والموصل وأنزلها العرب ، وخط الكوفة والبصرة خططًا للقبائل .

وهو أول من استقضى القضاة في الأمصار .

وهو أول من دَوَّنَ الديوان ، وكتب الناس على قبائلهم وفرض لهم الأعطية من الفيء ، وقسَم الْقُسُوم في الناس ، وفرض لأهل بدر ، وفَضَّلَهُمْ على غيرهم ، وفرض للمسلمين على أقدارهم وتقدُّمهم في الإسلام .

وهو أول من حمل الطعام في السفن من مصر في البحر ، حتى ورد الميناء ثم حمل من الميناء إلى المدينة .

وكان عمر ﷺ إذا بعث عاملًا له على مدينة كتب ماله وقد قاسم غير واحد منهم ماله ،

إذا عزله ، منهم سعد بن أبي وقاص وأبو هريرة . وإنما كان يكتب أموال الولاة ليعلم هل يزيد أم لا ، فيحاسبهم على الزيادة ، وكان يستعمل رجالًا من أصحاب رسول الله ﷺ مثل عمرو بن العاص ، ومعاوية بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ويَدَع من هو أفضل منهم مثل : عثمان وعَلِيّ وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف ونظرائهم ، لقوة أولئك على العمل والبَصَر به ، ولإشراف عمر عليهم وهيبتهم له ، وقيل له : مَالَكَ لا تُوَلِّي الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ ؟ فقال : أكره أن أُدَنِّسهُمْ بالعمل .

واتخذ عمر دار الدقيق ، فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يُحتاج إليه ، يُعين به المنقطع والضيف ينزل بعمر .

ووضع عمر في الطريق منازل ما بين مكة والمدينة فيها ما يصلحُ لمن ينقطع به يكفيه من ماء إلى ماء .

وهَدَمَ عمر رضي الله عنه **مسجد رسول الله ﷺ وزاد فيه** وأدخل دار العباس بن عبد المطلب فيما زاد ، ووسَّعه وبناه لما كثُر الناس بالمدينة .

وهو أخرج اليهود من الحجاز وأجلاهم من جزيرة العرب والشام .

وهو أخرج أهل نجران وأنزلهم ناحية الكوفة .

وعن الحسن : أن عمر بن الخطاب مصَّر الأمصار : المدينة ، والبصرة ، والكوفة والبحرين ، ومصر ، والشام ، والجزيرة .

وعن عبد الله بن إبراهيم قال : أول من ألقى الحصى في مسجد رسول الله ﷺ عمر ابن الخطاب ، وكان الناس إذا رفعوا رؤوسهم من السجود نفضوا أيديَهم فأمر عمر رضي الله عنه بالحصى فجيء به من العقيق ، فَبُسِطَ في مسجد النبي ﷺ . [اهـ من الطبقات] .

* * *

استخلاف أبي بكر عمر رضي الله عنهما

عن عائشة رضي الله عنها **قالت** : لما ثقل أبي دخل عليه فلان وفلان فقالوا :يا خليفة رسول الله ، ماذا تقول لربك إذا قَدِمت عليه غدًا وقد استخلَفْتَ علينا ابن الخطاب ؟ فقال : أجلسوني ، أبالله ترهبوني ؟ أقول : استخلفت عليهم خيرهم .

وعنها رضي الله عنها **قالت** : لما حضرت أبا بكر الوفاة استخلف عمر فدخل عليه عَليّ وطلحة فقالا : من استخلفتَ ؟ قال : عمر ، قالا : فماذا أنت قائل لربك ؟ قال : أبالله تُفرِّقاني

(تخوفاني) ؟ لأنا أعلم بالله وبعمر منكما ، أقول : استخلفت عليهم خير أهلك .

وعن الحسن ﷺ **قال** - فيما نظن : إن أول خطبة خطبها عمر ﷺ : حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فقد ابتليتُ بكم وابتليتم بي ، وخُلِّفت فيكم بعد صاحبيَّ ، فمن كان بحضرتنا باشرناه بأنفسنا ومهما غاب عنا ولينا أهلَ القوة والأمانة ، فمن يُحْسِن نَزِدْه حُسنًا ، ومن يُسئ نُعاقبْه ، ويغفر الله لنا ولكم .

وعن جامع بن شداد عن أبيه قال : كان أول كلام تكلم به عمر ﷺ حين صعد المنبر أن قال : اللهم إني شديد فَلَيِّنِّي ، وإني ضعيف فقوِّني ، وإني بخيلَ فسَخِّني .

وعن القاسم بن محمد قال : قال عمر بن الخطاب ﷺ : ليعلم من وَليَ هذا الأمر من بعدي أن سَيُرِيدُه عنه القريب والبعيد ، إني لأقاتل الناس على نفسي قتالًا ، ولو علمت أن أحدًا من الناس أقوى عليه مني لكنت أن أُقَدَّمَ فتضربَ عنقي أحبُّ إلى من أن أَلِيَهُ .

* * *

عطاء عمر في بيت المال وعفته وتضييقه على أهله

عن محمد بن سيرين عن الأحنف قال : كنا جلوسًا بباب عمر فمرت جارية فقالوا : سُرِّيَّة أمير المؤمنين ، فقالت : ما هي لأمير المؤمنين بِسُرِّيَّةٍ وما تحل له ، إنها من مال الله ، فقلنا : فماذا يحل له من مال الله ؟ فما هو إلا قدرُ أن بَلَغَتْ ، وجاء الرسول فدعانا فأتيناه فقال : ماذا قلتم ؟ قلنا : لم نقل بأسًا ، مرت جارية فقلنا : هذه سرية أمير المؤمنين ، فقالت : ما هي لأمير المؤمنين بسرية وما تحل له ، إنها من مال الله ، فقلنا : فماذا يحل له من مال الله ؟ فقال : أنا أُخبركم بما أستحل منه ، يحل لي حُلَّتان ؛ حلة في الشتاء وحلة في القيظ ، وما أَحجُّ عليه وأعتمر من الظَّهْر ، وقوتي وقوت أهلي كقوت رجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ، ثم أنا بعدُ رجل من المسلمين يُصيبُني ما أصابهم .

وعن حارثة بن مُضَرِّب قال : قال عمر بن الخطاب : إني أنزلت نفسي من مال الله منزلة مال اليتيم ، إن استغنيتُ استعفَفْتُ وإن افتقرت أكلتُ بالمعروف ، قال وكيع في حديثه : فإن أيسرتُ قضيت .

عن الأعمش عن أبي وائل قال : قال عمر : إني أنزلت مال الله مني بمنزلة مال اليتيم ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: ٦] .

وأخبرنا مسلم بن إبراهيم قال : أخبرنا سلام بن مسكين قال : أخبرنا عمران أن عمر ابن الخطاب كان إذا احتاج أتى صاحب بيت المال فاستقرضه (أخذ منه قرضًا) فربما

عَسُرَ فيأتيه صاحب بيت المال يتقاضاه فَيَلْزَمهُ فيحتال له عمر (يعمل حيلة ليتخلص بها منه) وربما خرج عطاؤه فقضاه .

وعن ابْنٍ للبراء بن معرور : أن عمر ﷺ خرج يومًا حتى أتى المنبر ، وقد كان اشتكى شكوى له فَنُعتَ (وصف) له العسل وفي بيت المال عُكَّة (إناء فيه عسل) فقال : إن أذِنْتُمْ لي فيها أخذتها ، وإلا فإنها عليَّ حرام ، فأَذِنُوا له فيها .

وعن عاصم بن عمر قال : أرسل إليَّ عمر يَرْفأ (غلامه) فأتيته وهو في مُصلاه عند الفجر أو عند الظهر ، قال فقال : واللَّه ما كنت أرى هذا المال يحلُّ لي من قبل أن أَلِيَهُ إلا بحقه ، وما كان قط أَحْرَمَ عليّ منه إذ ولِّيتُه فعاد أمانتي (أي فصار مال المسلمين أمانة عندي) وقد أنفقت عليك شهرًا من مال اللَّه ، ولست بزائدك ولكني مُعينُك بثمر مالي بالغابة فاجدده (اقطعه) فبعه ثم ائْتِ رجلًا من قومك من تجارهم فقم إلى جنبه ، فإذا اشترى شيئًا فاستشركه فاستنفق وأنفق على أهلك .

وأخبرنا مسلم بن إبراهيم قال : أخبرنا أبو عقيل قال الحسن : إن عمر بن الخطاب أَبَى إلا شدة وحَصْرًا (تضييقًا) على نفسه فجاء اللَّه بالسعة ، فجاء المسلمون فدخلوا على حفصة ، فقالوا : أَبَى عمر إلا شدة على نفسه وحصرًا ، وقد بسط اللَّه في الرزق فليبسط (يوسع على نفسه) في هذا الفيء فيما شاء منه وهو في حِلٍّ من جماعة المسلمين . فكأنها قاربتهم في هواهم (أي وافقتهم) ، فلما انصرفوا من عندها دخل عليها عمر ، فأخبرته بالذي قال القوم ، فقال لها عمر : يا حفصةُ بنت عمر ، نصحتِ قومك وغششتِ أباك ، إنما حق أهلي في نفسي ومالي ، فأما في ديني وأمانتي فلا .

وعن الأعمش عن إبراهيم : أن عمر بن الخطاب كان يتجر وهو خليفة ، **قال يحيى في حديثه** : وجهز عيرًا إلى الشام فبعث إلى عبد الرحمن بن عوف ، وقال الفضل ، فبعث إلى رجل من أصحاب النبي ﷺ ، قالا جميعًا : يستقرضه أربعة آلاف درهم ، فقال للرسول : قل له يأخذها من بيت المال ثم ليَرُدَّها ، فلما جاءه الرسول فأخبره بما قال شق ذلك عليه ، فلقيه عمر فقال : أنت القائل : يأخذها من بيت المال ؟ فإن مِتُّ قبل أن تجيء قلتم : أخذها أمير المؤمنين ، دعوها له ، وأُؤاخذ بها يوم القيامة ، لا ولكن أردت أن آخذها من رجل شحيح مثلِك فإن مت أخذها – قال يحيى – من ميراثي ، وقال الفضل : من مالي .

وعن يسار بن نمير قال : سألني عمر : كم أنفقنا في حجتنا هذه ؟ قلت : خمسة عشر دينارًا .

وعن يحيى بن سعيد عن شيخ لهم قال : خرج عمر بن الخطاب إلى مكة فما ضرب

فسطاطًا (لم ينصب خيمة) حتى رجع ، كان يستظل بالنِّطْع (فراش من جلد) .

وعن عبد اللَّه بن عامر بن ربيعة قال : صحبت عمر بن الخطاب من المدينة إلى مكة في الحج ثم رجعنا فما ضرب فسطاطًا ولا كان له بناء يستظل به إنما كان يُلقي نطعًا أو كساء على شجرة فيستظل تحته .

وعن جرير بن حازم قال : سمعت الحسن يحدث قال : قدم أبو موسى في وفد أهل البصرة على عمر ، قال : فقالوا : كنا ندخل كل يوم وله خُبز ثلاث فربما وافقناها مأدومة بزيت ، وربما وافقناها بسمن ، وربما وافقناها باللبن ، وربما وافقناها بالقدائد اليابسة قد دُقَّت ثم أُغلِي بها ، وربما وافقنا اللحم الغريض (الطري) وهو قليل . فقال لنا يومًا : أيها القوم إني واللَّه لقد أرى تعذيركم وكراهيتكم لطعامي ، وإني واللَّه لو شئت لكنت أطيبَكم طعامًا وأرفعكم عيشًا ، أما واللَّه ما أجهل عن كراكر وأَسنْمة وعن صلا وصناب وصلائق (أنواع من الطعام طيبة) ولكني سمعت اللَّه جل ثناؤه عَيَّر قومًا بأمر فعلوه فقال : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ [الأحقاف : ٢٠] .

* * *

حمايته أهلَه من الانتفاع بمال المسلمين بغير حق

كان عمر ﷺ يتحاشى أن ينتفع أحد من أهل بيته بشيء ليس له فيه حق .

روى مالك في الموطأ : أنه خرج عبد اللَّه وعبيد اللَّه ابنا عمر بن الخطاب في جيش إلى العراق فلما قفلا مَرَّا على أبي موسى الأشعري وهو أمير البصرة فرحَّب بهما وسهَّل ثم قال : لو أقدر لكما على أمر أنفعكما به ، ثم قال : بلى هاهنا مال من مال اللَّه أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين فأسلفكماه فتبتاعان (تشتريان) به متاعًا من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة ، فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين ويكون لكما الربح ، فقالا : وددنا ذلك ففعل وكتب إلى عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما المال ، فلما قدما باعا فأربحا فلما دفعا ذلك إلى عمر قال : أَكُلَّ الجيش أسلفه ؟ قالا : لا ، فقال عمر بن الخطاب : ابنا أمير المؤمنين فأسلفكماه ؟ أَدِّيا المال وربْحه . فأما عبد اللَّه فسكت ، وأما عبيد اللَّه فقال : ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين هذا ، لو نقص هذا المال أو هلك لضمنَّاه ، فقال عمر : أَدِّياه فسكت عبد اللَّه وراجعه عبيد اللَّه فقال رجل من جلساء عمر : يا أمير المؤمنين ، لو جعلته قِراضًا ، فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه ، وأخذ عبد اللَّه وعبيد اللَّه نصف ربح المال ، قالوا : هو أول قراض في الإسلام .

ولما ترك ملك الروم الغزو كاتب عمر وقاربه وسيَّر إليه عمر الرسل مع البريد فبعثت أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب إلى ملكة الروم بطيب ومشارب وأحفاش من أحفاش النساء ودَسَّته إلى البريد فأبلغه لها فأُخِذ منه وجاءت امرأة قيصر ، وجمعت نساءها وقالت : هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيهم وكاتبتها وأهدت لها وفيما أهدت لها عقدًا فاخرًا ، فلما انتهى به البريد أمر بإمساكه ودعا : « **الصلاةَ جامعةً** » ، فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين وقال : إنه لا خير في أمر أُبْرِم عن غير شورى من أموري ، قولوا في هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم فأهدت لها امرأة ملك الروم فقال قائلون : هو لها بالذي لها ، وليست امرأة الملك بذمة فتصانع به ، ولا تحت يدك فتتقيك ، وقال آخرون : قد كنا نهدي الثياب لنستثيب ونبعث بها لتباع ، ولنصيب شيئًا فقال : ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم والمسلمون عظموها في صدرها فأمر بردها إلى بيت المال ورد عليها بقدر نفقتها . اهـ .

* * *

حرصه على الاستشارة وقبول النصيحة

كان عمر إذا نزل به الأمر لا يبرمه قبل أن يجمع المسلمين ويستشيرهم فيه ويقول : لا خير في أمر أبرم من غير شورى ، وكان لشوراه درجات فيستشير العامة أول مرة ، ثم يجمع المشيخة من الصحابة من قريش وغيرهم فما استقر عليه رأيهم فعل به . ومن قوله في ذلك : يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم بين ذوي الرأي منهم ، فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر : ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيها تبعًا لهم .

وكثيرًا ما كان يرى الشيء فيبين له أصغر الناس وجه الحق فيرجع إلى رأيه .

رأى مرة مغالاة الرجال في مهور أزواجهن فعزم أن يجعل للمهر حدًّا لا يتجاوزه الناس ، فنادته امرأة من أُخريات المسجد : كيف وقد قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ [النساء: ٢٠] .

فقال : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

وكان يطلب من الناس أن يبلغوه نصائحهم ويبينوا له وجه الحق إذا رأوا منه انحرافًا عن القصد .

قال مرة في خطبته : أيها الناس إن أحسنت فأعينوني وإن صدفت فقوموني ، فقال له رجل من أخريات المسجد : لو رأينا اعوجاجًا لقوَّمناك بسيوفنا . فَسَرَّه ذلك .

رأيه في الاجتماعات

كان عمر ﷺ يميل إلى أن تكون مجتمعات الناس عامة يهوي إليها جميع الناس على اختلاف طبقاتهم ، وكان يكره اختصاص الناس بمجالس ؛ لأن ذلك يدعوهم إلى أن تكون لهم آراء متفرقة متباينة تنتهي بأحزاب متعادية .

روى ابن عباس : أن عمر قال لناس من قريش : بلغني أنكم تتخذون مجالس ، لا يجلس اثنان معًا حتى يقال : من صحابة فلان ، من جلساء فلان حتى تحوميت المجالس ، وايم الله إن هذا لسريع في دينكم سريع في شرفكم سريع في ذات بينكم ، ولكأني بمن يأتي بعدكم يقول : هذا رأي فلان قد قسموا الإسلام أقسامًا ، أفيضوا مجالسكم بينكم وتجالسوا معًا ؛ فإنه أدوم لألفتكم ، وأهْيَب لكم في الناس .

وفي الحق : إن ابتعاد الخاصة عن عامة الناس واختصاصهم بأفراد يجلسون إليهم مضيع كثيرًا لما ينتظر من تربية الخاصة للعامة ، واجتماعُهم مفيد فائدة كبرى وهي نقل أقوالهم غير محرفة ولا مشوبة بما يطمس حقيقتها ، ثم إن كثرة المجالس تدعو بدون ريب إلى كثرة الاختلاف في المسائل التي تعرض لهم فتكثر الأقوال المتباينة في الدين . والذي خافه عمر ﷺ على الناس وعلى مَن يأتي قد وقع فكثرت الآراء المنقولة من أفراد ذلك العصر ودعا ذلك إلى اختلاف الناس في الدين اختلافًا عظيمًا .

* * *

موافقات ربه

قال عمر : وافقتُ ربي في ثلاث : في مقام إبراهيم ، وفي الحجاب ، وفي أُسارى بدر .

موافقته في مقام إبراهيم :

قال عمر : يارسول الله أليس هذا مقام إبراهيم أبينا ؟ قال : بلى . قال عمر : فلو اتخذته مصلى ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : ١٢٥]

[الرياض النضرة وابن الجوزي] .

موافقته في الحجاب :

قالت عائشة : كان عمر يقول لرسول الله ﷺ : احجُبْ نساءك . قالت : فلم يفعل . وكان أزواج النبي ﷺ يخرجن ليلًا إلى ليل - قبل المَنَاصِعِ (وهو صعيد أفيح خارج المدينة) فخرجت سودة بنت زمعة (وكانت امرأة طويلة) فرآها عمر ، وهو في المجلس فقال : عرفناك ياسودة ! حرصًا على أن ينزل الحجاب . قالت : فأنزل الله ﷻ آية الحجاب . [البخاري] .

وفي رواية : قال عمر : قلت : يا رسول الله ، لو أمرت نساءك أن يحتجبن فإنه يكلمهن البَرُّ والفاجر ، فنزلت آية الحجاب . [البخاري] .

وعن ابن مسعود قال : أمر عمر نساء رسول الله ﷺ أن يحتجبن ، فقالت له زينب : وإنك علينا يا ابن الخطاب ، والوحي ينزل في بيوتنا ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ [الأحزاب : ٥٣] .

موافقته في أسرى بدر :

لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ : « **ما تقولون في هؤلاء الأسارى ؟** » فقال أبو بكر : يارسول الله ، قومك وأهلك ، اسْتَبْقِهِمْ واسْتَتِبْهُم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر : يارسول الله ، كذَّبوك وأخرجوك فقدِّمْهم فاضرب أعناقهم ، وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، أنت في واد كثير الحطب فَأَضْرِم الواديَ عليهم نارًا ثم أَلْقِهم فيه ، قال : فسكت رسول الله ﷺ فلم يرد عليهم شيئًا ، ثم قام فدخل ، فقال ناس : يأخذ بقول أبي بكر ، وقال ناس : يأخذ بقول عمر ، وقال ناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة ؛ ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : « **إن الله لَيُلِين قلوب رجال حتى تكون أَلْيَنَ من اللبن ، وإن الله ليشدُّ قلوب رجال فيه حتى تكون أشدَّ من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر كَمثَل إبراهيم** ﷺ **قال :** ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٦] ، **وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى** ﷺ **قال :** ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٨] ، **وإن مثلك يا عمر كمثل موسى** ﷺ **قال :** ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٨٨] ، **وإن مثلك يا عبد الله كمثل نوح** ﷺ **قال :** ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦] . **أنتم عالة فلا ينفكن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق** » قال ابن مسعود : قلت : يا رسول الله إلا سهلُ بن بيضاء فإنه يذكر

الإسلام ، فسكت رسول اللَّه ﷺ فما رأيتني في يوم أخوفَ من أن تقع عليَّ حجارة من السماء مني في ذلك اليوم حتى قال رسول اللَّه ﷺ : « **إلا سهلُ بن بيضاء** » ، فأنزل اللَّه ﷻ ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ ﴾ .. إلخ الآية . [رواه الإمام أحمد ، والترمذي ، والحاكم في المستدرك وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه] .

موافقته في تحريم الخمر :

عن أبي ميسرة قال : إن عمر كان حريصًا على تحريم الخمر ، فكان يقول : اللهم بَيِّنْ لنا في الخمر فإنها تُذْهِب المالَ والعقل ، فنزل قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾ [البقرة : ٢١٩] فدعا رسول اللَّه ﷺ عمر فتلاها عليه . فقال عمر : اللهم بَيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا . فنزلت الآية التي في النساء ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء : ٤٣] فدعا رسول اللَّه ﷺ عمر فتلاها عليه . فقال عمر : اللهم بَيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا ، فنزلت الآية التي في المائدة : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : ٩٠- ٩١] فدعا رسول اللَّه ﷺ عمر فتلاها عليه ، فلما بلغ « **فهل أنتم منتهون** » قال عمر : انتهينا يارب انتهينا . [رواه أحمد والنسائي] .

موافقته في ترك الصلاة على المنافقين :

قال عمر : لما توفي عبد اللَّه بن أُبَي دُعِيَ رسول اللَّه ﷺ للصلاة عليه ، فقام إليه ، فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولتُ حتى قمتُ في صدره فقلت : يا رسول اللَّه ، أَعَلَى عدو اللَّه عبد اللَّه بن أُبي القائل يوم كذا : كذا وكذا ، والقائل يوم كذا : كذا ، وكذا - أُعَدِّد أيامه الخبيثة و رسول اللَّه ﷺ يبتسم إذا أكثرت عليه ، قال : « **أَخِّر عني يا عمر ، إني خُيِّرت فاخترت ، قد قيل لي** : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ﴾ [التوبة : ٨٠] **فلو أعلم أني إن زدت على السبعين غُفر له زدت** » . ثم صلى عليه ومشى معه ، فقام على قبره حتى فرغ منه ، فعجبت لي ولجرأتي على رسول اللَّه ﷺ ، واللَّه ورسوله أعلم ، فو اللَّه ما كان إلا يسيرًا حتى نزلت هاتان الآيتان : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ ﴾ [التوبة : ٨٤] فما صلى رسول اللَّه ﷺ بعده على منافق ، ولا قام على قبره حتى قبضه اللَّه ﷻ .

موافقته على الاستئذان :

عن ابن عباس : أرسل النبي ﷺ غلامًا من الأنصار إلى عمر بن الخطاب وقت الظهيرة ليدعوه ، فدخل عليه وكان نائمًا ، وقد انكشف بعض جسده ، فقال : اللهم حرِّم الدخول علينا في وقت نومنا .

وفي رواية : قال : يا رسول الله ، وددت لو أن الله أمرنا ونهانا في حال الاستئذان فنزلت : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ﴾ [النور : ٥٨] [الرياض النضرة] .

موافقات أخرى :

لما نزل قوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾ [الواقعة : ١٣، ١٤] بكى عمر وقال : يا رسول الله ! وقليل من الآخرين ؟ آمنَّا برسول الله وصدقّناه ومن ينجو منا قليل ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾ [الواقعة : ٣٩، ٤٠] [الرياض النضرة] .

وعن عليّ : أن عمر انطلق إلى اليهود فقال : إني أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى ، هل تجدون وصف محمد في كتابكم ؟ قالوا : نعم ، قال : فما يمنعكم من اتباعه ؟ قالوا : إن الله لم يبعث رسولاً إلا كان له من الملائكة كفيل ، وإن جبريل هو الذي يكفل محمدًا وهو الذي يأتيه وهو عدونا من الملائكة ، وميكائيل سِلْمنا ، فلو كان هو الذي يأتيه اتبعناه قال : فإني أشهد أنه ما كان ميكائيل ليعاديَ سلم جبريل ، وما كان جبريل ليسالم عدوّ ميكائيل . قال : فمرَّ نبي الله ﷺ ، فقالوا : هذا صاحبك يا ابن الخطاب . فقام إليه وقد أنزل الله تعالى عليه : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٩٧ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٩٧، ٩٨] . [الرياض النضرة ، وتاريخ الخلفاء] .

وعن عمر قال : نزلت هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ [المؤمنون : ١٢- ١٤] فلما نزلت قلت أنا : تبارك الله أحسن الخالقين ، فنزلت ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾

[المؤمنون : ١٤] [الجامع الكبير والمحاسن والمساوئ] .

* * *

شرائط عمر على العمال

أخرج البيهقي عن عاصم بن أبي النُّجُود عن عمر بن الخطاب ﷺ : كان إذا بعث عماله شرط عليهم أن لا تركبوا بِرْذونًا (خيل تركب في ركوبها خُيلاء) ولا تأكلوا نقيًّا (الخبز المنخول) ولا تلبسوا رقيقًا ، ولا تغلقوا أبوابكم دون حوائج الناس ، فإن فعلتم شيئًا من ذلك حلت بكم العقوبة ، ثم يشيعهم . فإذا أراد أن يرجع قال : إني لم أسلطكم على دماء المسلمين ، ولا على أبشارهم ، ولا على أعراضهم ، ولا على أموالهم ؛ ولكني بعثتكم لتقيموا بهم الصلاة ، وتقسموا فيهم فيئهم ، وتحكموا بينهم بالعدل ، فإذا أشكل عليكم شيء فارفعوه إليَّ ! ألا فلا تضربوا العرب فتذلوها ، ولا تجمهروها فتفتنوها ، ولا تَعْتَلوا عليها فتحرموها ، جرِّدوا القرآن (لا تكتبوا معه غيره في المصحف) [كذا في الكنز] .

وأخرج ابن سعد ، وابن عساكر عن عبد الرحمن بن سابط قال : أرسل عمر بن الخطاب ﷺ إلى سعيد بن عامر الجمحي فقال : إنا مستعملوك على هؤلاء تسير بهم إلي أرض العدو فتجاهد بهم : فقال : يا عمر ! لا تفتني . فقال عمر : والله لا أدعكم ، جعلتموها في عنقي ثم تخليتم عني ، إنما أبعثك على قوم لست أفضلهم ، ولست أبعثك لتضرب أبشارهم ، ولتنتهك أعراضهم ؟ ولكن تجاهد بهم عدوهم ، وتقسم بينهم فيئهم . [كذا في الكنز] .

وأخرج ابن عساكر ، وأبو نعيم في الحلية عن أبي موسى ﷺ **قال** : إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ بعثني إليكم أُعَلِّمكم كتاب الله ﷻ وسنة نبيكم ﷺ وأنظف لكم طرقكم . [أخرجه الطبراني بنحوه .قال الهيثمي : ورجاله رجال الصحيح] .

* * *

سؤال عمر الوفود عن خصال الأمير

أخرج البيهقي عن الأسود بن يزيد قال : كان عمر ﷺ إذا قدم عليه الوفد سألهم عن أميرهم : أيعود المريض ؟ أيجيب العبد ؟ كيف صنيعه ؟ من يقوم على بابه ؟ (فإن قالوا لخصلة منها : لا ، عزله) . [كذا في الكنز . وأخرجه الطبري عن الأسود بمعناه] .

وعن هَنَّاد عن إبراهيم قال : كان عمر ﷺ إذا استعمل عاملًا فقدم عليه الوفد من

تلك البلاد قال : كيف أميركم ؟ أيعود المملوك ؟ أيتبع الجنازة ؟ كيف بابه ؟ أَلَيِّن هو ؟ فإن قالوا : بابه لين ويعود المملوك ، تركه وإلا بعث إليه ينزعه . [كذا في كنز العمال] .

وأخرج مسلم عن أبي عثمان النهدي ﷺ **قال** : كتب إلينا عمر ﷺ ونحن بأذربيجان : « **يا عتبة بن فرقد ! إنه ليس من كَدِّك ولا من كد أبيك ، ولا كد أمك فأشْبِع المسلمين في رحالهم مما تشبع منه في رحلك ، وإياكم والتنعم وَزِيَّ أهلِ الشرك ولبوسَ الحرير** » . [كذا في الترغيب] .

* * *

سيرة عمر في عماله الذين ولاهم أمور المسلمين

كان عمر ﷺ ممن يشتري رضا العامة بمصلحة الأمراء ، فكان الوالي في نظره فردًا من الأفراد يجري حكم العدل عليه كما يجري على غيره من سائر الناس ، فكان حب المساواة بين الناس لا يعدله شيء من أخلاقه ، كان إذا اشتكى العاملَ أصغرُ الرعية جَرَّهُ إلى المحاكمة حيث يقف الشاكي والمشكو منه ، يسوي بينهما في الموقف حتى يظهر الحق ، فإن توجه قِبَل العامل اقتص منه إن كان هناك داع إلى القصاص أو عامَلَه بما تقضي به الشريعة أو عَزَلَه .

وكان إذا بعث عاملًا على عمل يقول : اللهم إني لم أبعثهم ليأخذوا أموالهم ولا ليضربوا أبشارهم (جلودهم) . مَن ظلمه أميرهُ فلا إمرة عليه دوني .

وخطب الناس يوم جمعة فقال : اللهم أشهدك على أمراء الأمصار ، إني إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم ، وأن يقسموا بينهم فيئهم ، وأن يعدلوا فإن أشكل عليهم شيء رفعوه إليَّ .

وخطب مرة فقال : أيها الناس إني و اللّه ما أُرْسِلُ عمالًا ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكني أرسلهم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم فمن فُعِلَ به شيء سوى ذلك فليرفعه إلي فوالذي نفس عمر بيده لأُقِصَّنَّه منه . فوثب عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين أرأيتك (أخبرني) إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعية فأدَّب بعض رعيته إنك لَتُقِصُّه منه ؟ قال : إي والذي نفسُ عمرَ بيده إذًا لأُقِصَّنَّه منه ، وكيف لا أُقِصُّه منه وقد رأيت رسول اللّه ﷺ يقص من نفسه ؟ ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تجمهروهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم .

وكان للوصول إلى ما يريد من عماله يأمرهم أن يوافوه كل سنة في الموسم (موسم الحج) ومَن كانت له شكوى أو مظلمة هناك فليرفعها ، وإذ ذاك يحقق عمر ﷺ بعد أن يجمع بين الاثنين حتى تُرَدَّ إلى المظلوم ظلامته إن كانت وكان العمال يخافون أن يُفْتَضحوا على رؤوس الأشهاد في موسم الحج فكانوا يبتعدون عن ظلم أي إنسان .

وقد استحضر عمر إليه كثيرًا من العمال الذين لهم أعظم فضل وأكبر عمل بشكاية قدمت إليه من بعض الأفراد ، فقد استحضر سعد بن أبي وقاص وهو فاتح القادسية والمدائن ومُمَصر الكوفة ، وكان الذي شكاه ناس من أهل عمله بالكوفة ، فجمع بينه وبينهم فوجده بريئًا .

واستحضر المغيرة بن شعبة وهو أمير البصرة ، و المغيرة من الصحابة ومن ذوي الأثر الصالح في الفتوح الإسلامية ، وكان بعض من معه بالبصرة قد اتهمه بتهمة شنيعة فوجه إليه ذلك الكتاب الموجز الذي جمع في كلماته القليلة أن عَزَلَ و عَاتَبَ و استحثَّ وأَمَرَ (أما بعد : فقد بلغني نبأ عظيم فبعثت أبا موسى أميرًا فَسَلِّمْ ما في يدك والْعَجَلَ الْعَجَلَ) فقدم على عمر مع الشهود الذين شكوه ، ولم تثبت التهمة عليه عند عمر ، فعاقب الشهود بالحد الذي فرضه الله تعالى لمثلهم .

وشُكِيَ إليه عمار بن ياسر وكان أميرًا على الكوفة وهو من السابقين الأولين ، شكاه قوم من أهل الكوفة بأنه ليس بأمير ولا يحسن ما هو فيه ، فأمره أن يقدم عليه مع وفد من أهل الكوفة ، فسأل الوفد عما يشكون من عمار فقال قائلهم : إنه غير كاف ولا عالم بالسياسة ، وقال قائل منهم : إنه لا يدري علام استعمل ، فاختبره عمر في ذلك اختبارًا يدل على سعة علم عمر بتلك البلاد فلم يُحْسِن الإجابة في بعضه ، فعزله عنهم ثم دعاه بعد ذلك فقال : أساءك حين عزلتك ؟ فقال : و الله ما فرحت به حين بعثتني وقد ساءني حين عزلتني فقال : لقد علمتُ ما أنتَ بصاحب عمل ولكني تأولت قول الله تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص : ٥] .

ولم يمض عامل زمن عمر موثوقًا به من عمر ﷺ في كل أيامه إلا القليلون وفي مقدمتهم أبو عبيدة عامر بن الجراح .

وكان فوق ذلك كله له عامل مخصوص يقتص آثار العمال ، فيرسله في كل شكوى ليحققها في البلد الذي حصلت فيه ، وكان ذلك العمل موكلًا إلى محمد بن مسلمة الذي كان يثق به عمر ﷺ ثقة تامة ، وكان محلًا لتلك الثقة ، ولم يكن من دأب محمد

ابن مسلمة أن يحقق تحقيقًا سِرِّيًا ، وإنما كان يسأل مَن يريد سؤاله علنًا وعلى ملأ من الأشهاد ، ولم يكن هناك محل للتأثير في أنفس الشهود ؟ لأن يد عمر ﷺ كانت قوية جدًا وكان لكل إنسان الحق في أن يرفع إليه شكواه مباشرة فقد زاد الناسَ من الحرية كثيرًا .

وقد شاطر عمر ﷺ بعض العمال ما في أيديهم حينما رأى عليهم سعة لم يعلم مصدرها ، ولم يفعل هذا الفعل إلا قليلًا .

وعن عطاء قال : كان عمر بن الخطاب يأمر عماله أن يوافوه بالموسم فإذا اجتمعوا قال : أيها الناس إني لم أبعث عمالي لِيُصِيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم ، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم وليقسموا فَيئَكُم بينكم ، فمن فُعِلَ به غير ذلك فليقم . فما قام أحد إلا رجل واحد قام فقال : يا أمير المؤمنين إن عاملك فلانًا ضربني مائة سوط . قال : فيم ضربته ؟ قم فاقتصَّ منه ، فقام عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين . إنك إن فعلتَ هذا يكثر عليك ويكون سنة يأخذ بها من بعدك ، فقال : كيف لا أُقِيدُ وقد رأيتُ رسول اللَّه ﷺ يقيدُ من نفسه ؟ قال : فَدَعْنَا فَلْنُرْضِه ، فقال عمر : هو عندكم فأرضوه ، فافتدى منه بمائتي دينار كل سوط بدينارين .

وعن سالم عن ابن عمر أن عمر أمر عماله فكتبوا أموالهم ، منهم سعد بن أبي وقاص ، فشاطرهم أموالهم فأخذ نصفًا وأعطاهم نصفًا .

وعن الشعبي أن عمر كان إذا استعمل عاملًا كتب ماله .

* * *

حرصه على مال المسلمين

كان عمر ﷺ أحرص الناس على أموال المسلمين ومصالحهم ، فكثيرًا ما كان يُرى وهو يدهن إبل الصدقة بالقار (الزفت) ، وقد قام علي بن أبي طالب يومًا على رأس عثمان وهما في الظل يُملي عليه ما يقول عمر ، وقد لفَّ على رأسه بردًا يتقي به حرارة الشمس ، وجعل يعدُّ الإبل ويحصيها ويملي عليهم ذلك حتى قال عليٌّ لعثمان : نَعْتُ بنت شعيب في كتاب اللَّه : ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٦] ، ثم أشار إلى عمر فقال : هذا هو القوي الأمين .

وروى عن أسلم أنه قال : إنه بعثه مرة بإبل من إبل الصدقة إلى الحمى ، فوضع رَحْله منها ، فلما رأى عمر أنه وضع رحله على ناقة من الإبل حسناء قال له : لا أم لك ، عَمَدت إلى ناقة تغني أهل بيت من مال المسلمين ، فهلا ابن لبون بوالًا أو ناقة شصوصًا

(التي لا لبن لها) ؟ و المراد : لِمَ لَمْ تأخذ ناقة أقل ثمنًا ؟

وقد استقرضته هند بنت عتبة - زوجة أبي سفيان وأم معاوية بن أبي سفيان - أربعة آلاف درهم تتجر فيها على أن تضمنها فأعطاها ، فلما عادت شكت الوضيعة (الخسارة) فقال لها عمر : لو كان مالي لتركته ، ولكنه مال المسلمين ، وهذه مشورة (فكرة) لم يَغِبْ عنها أبو سفيان فبعث إليه فحمله حتى وفَّاه (أي حبس عمر أبا سفيان بن حرب ، وهو من سادات قريش وزعمائها ، حتى ردت هند قرضًا أخذته من بيت مال المسلمين) .

* * *

نماذج من شدة عمر على عماله

أخرج ابن عساكر عن عروة بن رُوَيْم : أن عمر بن الخطاب ﷺ تصفَّح الناس فمر به أهل حمص فقال : كيف أميركم ؟ قالوا : خير أمير إلا أنه بَنَى عِلِّية يكون فيها . فكتب كتابًا وأرسل بريدًا ، وأمره أن يحرقها ، فلما جاءها جمع حطبًا وحرق بابها . فأُخبر بذلك فقال : دعوه فإنه رسول ،ثم ناوله الكتاب ، فلم يضعه من يده حتى ركب إليه . فلما رآه عمر ﷺ قال : الحقني إلى الحرَّة - وفيها إبل الصدقة - قال : انزع ثيابك ، فألقى إليه نمرة من أوبار الإبل ، ثم قال : امتح وَاسْقِ هذه الإبل ، فلم يزل ينزع حتى تعب ثم قال : متى عهدك بهذا ؟ قال : قريب يا أمير المؤمنين ! قال : فلذلك بنيت العِلِّيَّة وارتفعت بها على المسكين ، والأرملة ، واليتيم ، ارجع إلى عملك ولَا تَعدُ .

* * *

مؤاخذة عمر سعدًا إذ اتخذ قصرًا

أخرج ابن المبارك وابن راهويه ، ومسدَّد عن عَتَّاب بن رفاعة قال : بلغ عمرَ بن الخطاب أن سعدًا ﷺ اتخذ قصرًا وجعل عليه بابًا وقال : انقطع الصوت . فأرسل عمر محمد بن مسلمة ﷺ ، وكان عمر إذا أحب أن يؤتى بالأمر كما يريد بعثه . فقال : ائت سعدًا وأحرق عليه بابه .فقدم الكوفة . فلما أتى الباب أخرج زَنْده فاستورى نارًا ثم أحرق الباب فأتى سعد فأُخبر ثم وُصِفَ له صفته فعرفه . فخرج إليه سعد فقال محمد : إنه بلغ أمير المؤمنين عنك أنك قلت : انقطع الصوت . فحلف سعد باللّٰه ما قال ذلك ، فقال محمد : نفعل الذي أُمِرنا ونؤدي عنك ما تقول ،وأقبل يعرض عليه أن يُزوِّده ، فأبى ثم ركب راحلته حتى قدم المدينة . فلما أبصره عمر ﷺ قال : لولا حسن الظن بك

ما رأينا أنك أديت ، وذكر أنه أسرع السير وقال : قد فعلت وهو يعتذر ويحلف بالله ما قال . فقال عمر : هل أمر لك بشيء ؟ قال:لا. قال : فما منعك أن تزودني أنت ؟ قال : إني كرهت أن آمر لك فيكون لك البارد وعليَّ الحار وحولي أهل المدينة وقد قتلهم الجوع وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **لا يشبع المؤمن دون جاره** » . [كذا في الكنز، وقد ذكره في الإصابة بتمامه إلا أنه قال عن عباية بن رفاعة ، وهكذا ذكره الهيثمي عن عباية بطوله ثم قال : رواه أحمد ، وأبو يعلي ببعضه ، ورجاله رجال الصحيح إلا أن عباية بن رفاعة : لم يسمع من عمر - ا هـ] .

* * *

ما وقع بين عمر وبعض العمال بالشام

أخرج ابن عساكر واليشكري عن جُوَيرية ﷺ قال بعضه عن نافع عن رجل من ولد أبي الدرداء ، قال : استأذن أبو الدرداء عمر ﷺ في أن يأتي الشام . فقال : لا آذن لك إلا أن تعمل . قال : فإني لا أعمل . قال : فإني لا آذن لك . قال : فأنطلقُ فأُعَلِّم الناس سُنَّة نبيهم ﷺ وأُصَلِّي بهم ، فأذن له . فخرج عمر ﷺ إلى الشام فلما كان قريبًا منهم أقام حتى أمسى . فلما جَنَّه الليل قال : يا يرفأ ! انطلق إلى يزيدَ بن أبي سفيان ، أبصِرْهُ عنده سُمَّار ، ومصباح ، مفترشًا ديباجًا ، وحريرًا من فيء المسلمين ، فَتُسَلِّم عليه فيرد عليك السلام ، وتستأذن فلا يأذن لك حتى يَعلم من أنت . فانطلقنا حتى انتهينا إلى بابه فقال : السلام عليكم . فقال : وعليكم السلام . قال : أدخلُ ؟ قال : ومن أنت ؟ قال : يرفأ : هذا من يسوؤك ! هذا أمير المؤمنين ! ففتح الباب . فإذا سُمَّار ومصباح ، وإذا هو مفترشٌ ديباجًا وحريرًا. قال : يا يرفأ ، الباب ! الباب ! ثم وضع الدِّرَّة بين أُذُنَيه ضربًا ، وكَوَّر المتاع فوضعه وسط البيت ثم قال للقوم : لا يبرح منكم أحد حتى أرجع إليكم . ثم خرجا من عنده ثم قال : يا يرفأ ؟! انطلق بنا إلى عمرو بن العاص ﷺ أبصِرْه عنده سُمَّار ، ومصباح ، مفترش ديباجًا من فيء المسلمين ، فتسلم عليه فيرد عليك وتستأذن عليه فلا يأذن لك حتى يعلم من أنت فانتهينا إلى بابه ، فقال عمر : السلام عليكم ، قال : وعليكم السلام . قال : أدخلُ ؟ قال : ومن أنت ؟ قال : يرفأ : هذا من يسوؤك ! هذا أمير المؤمنين ! ففتح الباب فإذا سمار ومصباح ، وإذا هو مفترشٌ ديباجًا وحريرًا . قال : يا يرفأ ، الباب ! الباب ! ثم وضع الدرة بين أذنيه ضربًا ثم كَوَّرالمتاع فوضعه في وسط البيت . ثم قال للقوم : لا تبرحُنَّ حتى أعود إليكم . فخرجا من عنده فقال : يا يرفأ ! انطلق بنا إلى أبي موسى ﷺ أبصره عنده سمار ، ومصباح

مفترشًا صوفًا من مال فيء المسلمين ، فتستأذن عليه ، فلا يأذن لك حتى يعلم من أنت ، فانطلقا إليه وعنده سمار ومصباح مفترشًا صوفًا ، فوضع الدرة بين أذنيه ضربًا وقال : أنت أيضًا يا أبا موسى ؟ !! فقال : يا أمير المؤمنين . هذا وقد رأيت ما صنع أصحابي ، أما والله ! لقد أصَبْت مثل ما أصابوا . قال : فما هذا ؟ قال : زعم أهل البلد أنه لا يصلح إلا هذا . فكور المتاع فوضعه في وسط البيت ، وقال للقوم : لا يخرجن منكم أحد حتى أعود إليكم . فلما خرجنا من عنده قال : يا يرفأ ! انطلق بنا إلى أخي لنبصرنه ، ليس عنده سمار ، ولا مصباح ، وليس لبابه غَلَق ، مفترشًا بطحاء ، متوسدًا برذعة ، عليه كساء رقيق قد أذاقه البرد ، فتسلم عليه فيرد عليك السلام ، وتستأذن فيأذن لك من قبل أن يعلم من أنت . فانطلقنا حتى إذا قمنا على بابه قال : السلام عليكم قال : وعليكم السلام . قال : أأدخل ؟ قال : ادخل . فدفع الباب فإذا ليس له غلق . فدخلنا إلى بيت مظلم ، فجعل عمر ﷺ يُلَمِّسُ حتى وقع عليه فجسَّ وسادة ، فإذا برذعة ، وجس فراشه فإذا بطحاء ، وجس دثاره ، فإذا كساء رقيق .فقال أبو الدرداء ﷺ : من هذا ؟ أمير المؤمنين ؟ قال : نعم . قال : أما و الله ! لقد استبطأتُك منذ العام . قال عمر ﷺ : رحمك الله ! ألم أُوَسِّع عليك ؟ ألم أفعل بك ؟ فقال له أبو الدرداء ﷺ : أتذكر حديثًا حدثَّناه رسول الله ﷺ يا عمر ؟ قال : أيُّ حديث ؟ قال : « **ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب** » قال : نعم . قال : فماذا فعلنا بعده يا عمر ؟ قال : فمازالا يتجاوبان بالبكاء حتى أصبحا . [كذا في كنز العمال] .

* * *

عدل عمر بن الخطاب

أخرج عبد الرزاق ، والبيهقي عن ابن عمر ﷺ قال : شرب أخي عبد الرحمن ، وشرب معه أبو سَرْوَعَة عقبة بن الحارث - وهما بمصر - في خلافة عمر ﷺ ، فسكرا . فلما أصبحا انطلقا إلى عمرو بن العاص ﷺ - وهو أمير مصر - فقالا : طهِّرنا ، فإنا قد سكرنا من شراب شربناه . قال عبد الله : فذكر لي أخي أنه سكر ، فقلت : ادخل الدار أطهِّرك ولم أشعر أنهما قد أتيا عمرًا . فأخبرني أخي قد أخبر أمير المؤمنين بذلك فقلت : لا تحلق اليوم على رؤوس الناس ، ادخل الدار أحلقك ، وكانوا إذ ذاك يحلقون مع الحد ، فدخلا الدار . قال عبد الله : فحلقت أخي بيدي ثم جلدهم عمرو . فسمع بذلك عمر فكتب إلى عمرو ﷺ : أن ابعث إليَّ بعبد الرحمن على

قَتَب ، ففعل ذلك . فلما قدم على عمر رضي الله عنه جلده وعاقبه لمكانه منه . ثم أرسله فلبث شهرًا صحيحًا ثم أصابه قدره فمات ، فيحسب عامة الناس أنما مات مَن جَلد عمر ، ولم يمت من جلد عمر . [قال في منتخب كنز العمال : وسنده صحيح . وأخرجه ابن سعد عن أسلم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه بطوله . كما في منتخب الكنز] .

* * *

عمر و امرأة مغيبة (زوجها غائب عنها)

أخرج عبد الرزاق والبيهقي عن الحسن قال : أرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى امرأة مُغَيَّبة كان يُدخَل عليها فأنكر ذلك ، فأرسل إليها فقيل لها : أجيبي عمر ؟ فقالت : يا ويلها ! ما لها ولعمر . فبينما هي في الطريق فزعت فضربها الطلق (وجع الولادة) ، فدخلت دارًا ، فألقت ولدها ، فصاح الصبي صيحتين ثم مات ، فاستشار عمر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فأشار عليه بعضهم أن ليس عليك شيء ، إنما أنت والٍ ومؤدب ، وصمت عليٌّ رضي الله عنه ، فأقبل على عَلِيٍّ فقال : ما تقول ؟ قال : إن كانوا قالوا برأيهم فقد أخطأ رأيهم ، وإن كانوا قالوا في هواك فلم ينصحوا لك ، أرى أن ديته عليك فإنك أنت أفزعتها ، وألقت ولدها في سببك ؟ فأمر عليًا رضي الله عنه أن يقسم عقله (ديته) على قريش يعني يأخذ عقله من قريش لأنه خطأ . [كذا في كنز العمال] .

* * *

قصة مصري وابن عمرو بن العاص

أخرج ابن عبد الحكم عن أنس رضي الله عنه : أن رجلًا من أهل مصر أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين ، عائذ بك من الظلم ! قال : عذت معاذًا (لجأت إلى ملجأ يحميك) . قال : سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته ، فجعل يضربني بالسوط ويقول : أنا ابن الأكرمين . فكتب عمر إلى عمرو رضي الله عنهما يأمره بالقدوم ويقدم بابنه معه . فقدم فقال عمر : أين المصري ؟ خذ السوط فاضرب ، فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر : اضرب ابن الأكرمين . قال أنس : فضرب و اللّه ! لقد ضربه ونحن نحب ضربه ؛ فما أقلع عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه . ثم قال للمصري : ضع على صلعة عمرو . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنما ابنه الذي ضربني وقد اشتَقَدْتُ منه . فقال عمر لعمرو : مُذْكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، لم أعلم ولم يأتني . [كذا في منتخب كنز العمال] .

عقاب عمر أحد قادته

وأخرج البيهقي عن زيد بن وهب قال : خرج عمر ﷺ - ويداه في أذنه - وهو يقول يالبيكاه ! قال الناس : ما له ؟ قال : جاءه بريد من بعض أمرائه أن نهرًا حال بينهم وبين العبور ولم يجدوا سفنًا . فقال أميرهم : اطلبوا لنا رجلًا يعلم غور (عمق) النهر . فأُتي بشيخ فقال : إني أخاف البرد - وذلك في البرد - فأكرهه فأدخله فلم يُلْبِثْه البرد ، فجعل ينادي يا عُمَراه ! فغرق فكتب إليه . فأقبل فمكث أيامًا معرضًا عنه وكان إذا وَجَد (غضب) على أحد منهم فعل به ذلك . ثم قال : مافعل الرجل الذي قتلته ؟ قال : يا أمير المؤمنين ! ما تعمدت قتله لم نجد شيئًا يُعْبَر فيه وأردنا أن نعلم غور الماء ففتحنا كذا وكذا . فقال عمر : لَرَجلٌ مسلم أحبُّ إليَّ من كل شيء جئت به ، لولا أن تكون سنة لضربت عنقك فأعط أهله ديته ، واخرج فلا أراك . [كذا في الكنز] .

* * *

قصة القصاص من أبي موسى الأشعري

أخرج البيهقي عن جرير : أن رجلًا كان مع أبي موسى الأشعري ﷺ فغنموا مغنمًا فأعطاه أبو موسى نصيبه ولم يُوَفِّه ، فأبى أن يأخذه إلا جميعه فضربه أبو موسى عشرين سوطًا وحلق رأسه ! فجمع شعره وذهب به إلى عمر ﷺ ، فأخرج شَعَرًا من جيبه فضرب به صدر عمر . قال : مالك ؟ فذكر قصته . فكتب عمر إلى أبي موسى ﷺ : « **سلام عليك ! أما بعد : فإن فلانًا بن فلان أخبرني بكذا وكذا ، وإني أقسم عليك إن كنت فعلت ما فعلت في ملأ من الناس جلست له في ملأ من الناس فاقتص منك ، وإن كنت فعلت ما فعلت في خلاء فاقعد له في خلاء فليقتص منك** » .

فلما دُفع إليه الكتاب قعد للقصاص . فقال الرجل : قد عفوت عنه لله .

* * *

قصته مع فيروز الديلمي وفتى من قريش

أخرج ابن عساكر عن الحرماوي قال : كتب عمر بن الخطاب إلى فيروز الديلمي ﷺ : « **أما بعد ؟! فقد بلغني أنه قد شغلك أكل اللباب بالعسل فإذا أتاك كتابي هذا فاقدم على بركة الله فاغز في سبيل الله** » . فقدِم فيروز فاستأذن على عمر ﷺ فأذن له فزاحمه فتى من قريش . فرفع فيروز يده فلطم أنف القرشي ، فدخل القرشي على عمر

مُستدْمًى . فقال له عمر : من فعل بك ؟ قال فيروز ! وهو على الباب ، فأذن لفيروز بالدخول فدخل . فقال : ماهذا يا فيروز ؟ قال : يا أمير المؤمنين إنا كنا حديثي عهد بملك ، وإنك كتبت إليَّ ولم تكتب إليه ، وأَذِنْتَ لي بالدخول ولم تأذن له ، فأراد أن يدخل في إذني قبلي ، فكان مني ما قد أخبرك . قال عمر ﷺ : القِصاص ! قال فيروز : لابُدَّ ؟ قال : لابد . فجثا فيروز على ركبتيه وقام الفتى ليقتص منه . فقال له عمر ﷺ : على رِسْلِكَ أيها الفتى ! حتى أُخبرك بشيء سمعته من رسول الله ﷺ ! سمعت رسول الله ﷺ ذات غداة وهو يقول : « **قُتِلَ الليلة الأسود العنسي الكذاب قتله العبد الصالح فيروز الديلمي !** » أفتراك مقتصًّا منه بعد إذ سمعت هذا من رسول الله ﷺ !؟ قال الفتى : قد عفوت عنه بعد إذ أخبرتني عن رسول الله ﷺ بهذا فقال فيروز لعمر : أفترى هذا مُخرجي مما صنعت إقراري له وعفوه غير مستكره ، ؟ قال : نعم . قال فيروز : فأشهدك أن سيفي وفرسي وثلاثين ألفًا من مالي هبة له . قال : عفوت مأجورًا يا أخا قريش ، وأخذت مالًا .

* * *

قصة عوف بن مالك الأشجعي مع يهودي

وأخرج أبو عُبَيد ، والبيهقي ، وابن عساكر عن سُوَيد بن غَفَلة ﷺ قال : لما قدم عمر ﷺ الشام قام إليه رجل من أهل الكتاب فقال : يا أمير المؤمنين ! إن رجلًا من المؤمنين صنع بي ما ترى ، قال : وهو مشجوج مضروب ، فغضب عمر ﷺ غضبًا شديدًا ثم قال لصهيب ﷺ : انطلق وانظر من صاحبه ، فأتني به . فانطلق صهيب فإذا هو عوف بن مالك الأشجعي ﷺ ! فقال : إن أمير المؤمنين قد غضب عليك غضبًا شديدًا فأت معاذ بن جبل ﷺ فلْيكلِّمه ، فإني أخاف أن يَعْجَل إليك . فلما قضى عمر الصلاة قال : أين صهيب ؟ أجئت بالرجل ؟ قال :نعم . وقد كان عوف أتى معاذًا فأخبره بقصته . فقام معاذ ، فقال : يا أمير المؤمنين ! إنه عوف بن مالك فاسمع منه ولا تعجل إليه . فقال له عمر : مالك ولهذا ؟ قال : يا أمير المؤمنين ! رأيت هذا يسوق بإمرأة مسلمة على حمار ، فنخس بها ليصرع بها (ليرميها) ، فلم يصرع بها فدفعها فَصُرعت فَغَشِيَها (فعل معها الفاحشة) أو أكب عليها . فقال له : ائتني بالمرأة فلتصدق ما قلت ، فأتاها عوف فقال له أبوها وزوجها : ما أردت إلى صاحبتنا قد فضحتنا . فقالت : والله لأذهبن معه ! فقال أبوها وزوجها : نحن نذهب فنبلِّغ عنك . فأتيا عمر ﷺ فأخبراه بمثل قول عوف وأمر عمر باليهودي فَصُلِب . وقال : ما على

هذا صالحناكم ، ثم قال: أيها الناس ؟! اتقوا اللّه في ذمة محمد ، فمن فعل منهم هذا فلا ذمة له . قال سويد : فذلك اليهودي أول مصلوب رأيته في الإسلام . [كذا في الكنز . وأخرجه الطبراني عن عوف بن مالك ﷺ مختصرًا . قال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح] .

* * *

عطف عمر على أهل الذمة

أخرج ابن عساكر والواقدي عن عبد اللّه بن أبي حدرد الأسلمي ﷺ قال : لما قدمنا مع عمر بن الخطاب ﷺ الجابية إذا هو بشيخ من أهل الذمة يستطعم فسأل عنه . فقيل : هذا رجل من أهل الذمة كبر وضعف . فوضع عنه عمر ﷺ الجزية التي في رقبته وقال : كلفتموه الجزية حتى إذا ضعف تركتموه يستطعم ؟ فأجرى عليه من بيت المال عشرة دراهم وكانت له عيال . (يستطعم : أي يسأل الناس الطعام) .

وعن أبي عُبَيد ، وابن زنجويه ، والعُقَيلي عن عمر ﷺ أنه مَرَّ بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب المساجد . فقال : ما أنصفناك . كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في كبرك ، ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه .

وأخرج أبو عبيد عن يزيد بن أبي مالك قال : كان المسلمون بالجابية وفيهم عمر بن الخطاب ﷺ فأتاه رجل من أهل الذمة يخبره أن الناس قد أسرعوا في عنبه .فخرج عمر ﷺ حتى لقي رجلًا من أصحابه يحمل ترسًا عليه عنب فقال عمر : وأنت أيضًا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين : أصابتنا مجاعة . فانصرف عمر ﷺ وأمر لصاحب الكرم بقيمة عنبه .

وأخرج مالك عن سعيد بن المسيب : أن مسلمًا ويهوديًا اختصما إلى عمر ﷺ فرأى الحق لليهودي ، فقضى له عمر به فقال له اليهودي : واللّه لقد قضيت بالحق . فضربه عمر بالدرة وقال : وما يدريك ؟ فقال اليهودي : و اللّه إنا نجد في التوراة : ليس قاض يقضي بالحق إلا كان عن يمينه ملك وعن شماله ملك يُسدِّدانه ويوفقانه للحق مادام مع الحق . فإذا ترك الحق عرجا وتركاه . [اهـ حياة الصحابة] .

* * *

رحمته برعيته

على قدر ما كان عليه عمر ﷺ من الشدة على عماله كانت رقته ورأفته على عامة الناس من رعيته والاهتمام بما يصلحهم ويحس تجاههم بمسؤولية عظمى ، فكان يقول :

لو أن جملًا هلك ضيَاعًا بِشَطِّ الفرات لخشيتُ أن يسأل اللّٰه عنه آل الخطاب .

وقال هشام الكعبي : رأيت عمر ﷺ يحمل ديوان خزاعة حتى ينزل قديدًا (اسم مكان) فنأتيه بقديد ، فال يغيب عنه امرأة ولا بكر ولا ثيب ، فيعطيهن في أيديهن ، ثم يروح فينزل عُسفان فيفعل مثل ذلك أيضًا حتى توفي .

قال الحسن البصري : قال عمر : لئن عشت لأسيرن في الرعية حولًا فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني ، أما عمالهم فلا يرفعونها إليّ ، وأما هم فلا يصلون إليّ فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ثم عدَّد الأمصار الكبرى يقيم في كل منها شهرين (وقد حالت منيته دون هذه السياحة) .

وروى أسلم قال : خرجت مع عمر بن الخطاب إلى حرة واقم حتى إذا كنا بصرار إذا نار تؤرث (تشتعل) فقال : يا أسلم إني أرى هؤلاء ركبًا قَصَّر بهم الليل والبرد ، انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم فإذا امرأة معها صبيان لها وقِدْرٌ منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون (يبكون) فقال عمر : السلام عليكم يا أصحاب الضوء (وكره أن يقول : يا أصحاب النار) قالت المرأة : وعليك السلام ، فقال : أأدنو ؟ قالت : ادن بخير أو دَعْ ، فقال : ما بالكم ؟ قالت : قَصَّر بنا الليل و البرد ، قال : فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟ قالت : الجوع ، قال : وأي شيء في هذا القِدْرِ ؟ قالت : ماء أُسكتهم به حتى يناموا ، اللّٰهُ بيننا وبين عمر ، فقال : أَي - رحِمك اللّٰه - ما يُدري عمرَ بكم ؟! ، قالت : يتولى أمورنا ويغفل عنا ؟ فأقبل عَلَيَّ فقال : انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عدلًا فيه كبة شحم فقال : احمله عليَّ . قلت : أنا أحمله عنك ، قال : احمله عليَّ « مرتين أو ثلاثًا » كل ذلك أقول : أنا أحمله عنك ، فقال في آخر ذلك : أنت تحمل عني وزري يوم القيامة ؟ لا أُمَّ لك . فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه نهرول حتى انتهينا إليها ، فألقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئًا وجعل يقول : ذَرِّي عليَّ وأنا أُحَرِّكُ لكِ ، وجعل ينفخ تحت القِدْرِ وكان ذا لحية عظيمة فجعلت انظر إلى الدخان من خلال لحيته حتى أنضج وقال : ابغيني شيئًا فأتته بصحفة فأفرغ فيها الطعام ثم جعل يقول : أطعميهم وأنا أُسَطِّح لكِ ، فلم يزل حتى شبعوا ، ثم خلى عندها فضل ذلك (باقيه) وقام وقمت معه ، فجعلت تقول : جزاك اللّٰه خيرًا ، إنكم أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين فيقول : قولي خيرًا إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتيني هناك إن شاء اللّٰه ثم تنحى ناحية ثم استقبلها وربض مربض السبع فجعلت أقول : إن لك لشأنًا غير هذا وهو لا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدأوا ، فقام وهو يحمد اللّٰه ثم أقبل عَلَيَّ فقال : يا أسلم ، إن الجوع

أسهرهم وأبكاهم فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت فيهم .

وروى الطبري عن إياس بن سلمة عن أبيه قال : مرَّ عمر بن الخطاب في السوق ومعه الدِّرَّة فخفقني بها خفقة فأصاب طرف ثوبي فقال : أمِط الطريق . فلما كان في العام المقبل لقيني ، فقال : يا سلمة أتريد الحج ؟ فقلت : نعم . فأخذ بيدي فانطلق إلى منزله فأعطاني ستمائة درهم وقال : استعن بها على حجك واعلم أنها بالخفقة التي خفقتك ، قلت : يا أمير المؤمنين ، ما ذكرتها ، قال : وأنا ما نسيتها .

* * *

طريقة عمر في توزيع المال على المسلمين

عن الزهري عن سعيد بن المسيب ، دخل حديث بعضهم في حديث بعض ، قالوا : لما أجمع عمر بن الخطاب على تدوين الديوان وذلك في المحرم سنة عشرين بدأ ببني هاشم في الدعوة ، ثم الأقرب فالأقرب برسول اللَّه ﷺ ، فكان القوم إذا اسْتَوَوا في القرابة برسول اللَّه ﷺ قدَّم السابقة حتى انتهى إلى الأنصار فقالوا : بمن نبدأ ؟ فقال عمر : ابدأوا برهط سعد بن معاذ الأشهلي ثم الأقرب فالأقرب بسعد بن معاذ . وفرض عمر لأهل الديوان ، فَفَضَّل أهل السوابق والمشاهد في الفرائض ، وكان أبو بكر الصديق قد سَوَّى بين الناس في القَسْم ، فقيل لعمر في ذلك فقال : لا أجعل من قاتل رسول اللَّه ﷺ كمن قاتل معه .فبدأ بمن شهد بدرًا من المهاجرين والأنصار ففرض لكل رجل منهم خمسة آلاف درهم في كل سنة ، حليفهم ومولاهم معهم بالسواء ، وفرض لمن كان له إسلام كإسلام أهل بدر من مهاجرة الحبشة ومن شهد أُحدًا أربعة آلاف درهم لكل رجلٍ منهم ، وفرض لأبناء البدريين ألفين ألفين إلا حَسَنًا وَحُسَينًا فإنه ألحقهما بفريضة أبيهما لقرابتهما برسول اللَّه ﷺ ، ففرض لكل واحد منهم خمسة آلاف درهم، وفرض للعباس بن عبد المطلب خمسة آلاف درهم لقرابته برسول اللَّه ﷺ .

قال : وقد روى بعضهم أنه فرض له سبعة آلاف درهم ، وقال سائرهم : لم يفضل أحدًا على أهل بدر إلا أزواج النبي ﷺ فإنه فرض لكل امرأة منهن اثني عشر ألف درهم ، جويرية بنت الحارث وصفية بنت حُيَيٍّ هذا المجتمع عليه ، وفرض لمن هاجر قبل الفتح لكل رجلٍ ثلاثة آلاف درهم ، وفرض لمسلمة الفتح لكل رجل منهم ألفين ، وفرض لغلمان أحداث من أبناء المهاجرين والأنصار كفرائض مسلمة الفتح ، وفرض لعمر بن أبي سلمة أربعة آلاف درهم ، فقال : محمد بن عبد اللَّه بن جحش : لم

تفضِّل عمر علينا ؟ فقد هاجر آباؤنا وشهدوا ؟ فقال عمر : أُفَضِّله لمكانه من النبي ﷺ فليأت الذي يستعتب بأمٍّ مثل أم سلمة أُعْتِبْهُ ، وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف درهم فقال عبد اللَّه بن عمر : فرضت لي ثلاثة آلاف وفرضت لأسامة أربعة آلاف ، وقد شهدتُ ما لم يشهد أسامة ، فقال عمر : زدته لأنه كان أحب إلى رسول اللَّه ﷺ منك ، وكان أبوه أحب إلى رسول اللَّه ﷺ من أبيك . ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم للقرآن وجهادهم ، ثم جعل مَن بقي من الناس بابًا واحدًا فألحق من جاءهم من المسلمين بالمدينة في خمسة وعشرين دينارًا لكل رجل ، وفرض للمحررين معهم ، وفرض لأهل اليمن ، وقيس بالشام والعراق لكل رجل ألفين إلى ألف إلى تسعمائة إلى خمسمائة إلى ثلثمائة لم يُنْقِصْ أحدًا من ثلثمائة ، وقال : لئن كثُر المال لأفرضن لكل رجل أربعة آلاف درهم ، ألف لسفره ، وألف لسلاحه ، وألف يُخَلِّفها لأهله ، وألف لفرسه وبغله ، وفرض لنساءٍ مهاجراتٍ ، وفرض لصفية بنت عبد المطلب ستة آلاف درهم ، ولأسماء بنت عُمَيس ألف درهم ، ولأم كلثوم بنت عقبة ألف درهم ، ولأم عبد اللَّه بن مسعود ألف درهم . وقد روى أنه فرض للنساء المهاجرات ثلاثة آلاف درهم لكل واحدة ، وأمر عمر فَكُتِبَ له عيال أهل العوالي فكان يُجري عليهم القوت ، ثم كان عثمان فوسع عليهم في القوت والكسوة ، وكان عمر يفرض للمنفوس مائة درهم ، فإذا ترعرع بلغ به مائتي درهم. فإذا بلغ زاده ، وكان إذا أُتي باللقيط فرض له مائة درهم وفرض له رزقًا يأخذه وليه كل شهر قدر ما يصلحه ، ثم ينقله من سنة إلى سنة ، وكان يوصي بهم خيرًا ويجعل رضاعهم ونفقتهم من بيت المال .

قال : أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثني عبد اللَّه بن عمر العمري عن جهم بن أبي جهم قال : قدِم خالد بن عُرفطة العُذري على عمر فسأله عما وراءه فقال : يا أمير المؤمنين : تركت من ورائي يسألون اللَّه أن يزيد في عمرك من أعمارهم ، ما وطئ أحد القادسية إلا عطاؤه ألفان أو خمس عشرة مائة ، وما من مولود يولد إلا ألحق على مائة وجريبين كل شهر ، ذكرًا كان أم أنثى ، وما يبلغ لنا ذَكَرٌ إلا أُلْحِقَ على خمسمائة أو ستمائة ، فإذا خرج هذا لأهل بيت منهم من يأكل الطعام ومنهم من لا يأكل الطعام فما ظنك به ؟ فإنه لينفقه فيما ينبغي وفيما لا ينبغي . فاللَّه المستعان ، فقال عمر : إنما هو حقهم أُعطوه وأنا أسعد بأدائه إليهم منهم بأخذه ، فلا تَحْمَدَنِّي عليه فإنه لو كان من مال الخطاب ما أُعطيتموه ولكني قد علمتُ أن فيه فضلًا ولا ينبغي أن أحبسه عنهم ، فلو أنه إذا خرج عطاء أحد هؤلاء العُرَيبِ ابتاع منه غنمًا فجعلها بسوادهم ثم إذا خرج العطاء الثانية ابتاع الرأس فجعله فيها فإني – ويحك يا خالد بن عرفطة –

أخاف عليكم أن يَلِيَكُم بعدي ولاة لا يُعَدُّ العطاء في زمانهم مالًا، فإن بقي أحد منهم أو أحد من ولده كان لهم شيء قد اعتقدوه فيتكئون عليه ، فإن نصيحتي لك وأنت عندي جالس كنصيحتي لمن هو بأقصى ثغر من ثغور المسلمين وذلك لما طوقني اللّٰه من أمرهم ، قال رسول اللّٰه ﷺ : « **مَنْ مَاتَ غَاشًّا لِرَعِيَّتِه لم يَرِحْ رائحة الجنة** » .

وعن الحسن قال : كتب عمر إلى حذيفة أن أعط الناس أعْطِيَتَهم وأرزاقهم . فكتب إليه قد فعلنا وبقي شيء كثير ، فكتب إليه عمر : إنه فَيْؤُهم الذي أفاء اللّٰه عليهم ، ليس هو لعمر ولا لآل عمر اقسمه بينهم .

وعن السائب بن يزيد قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : والذي لا إله إلا هو - ثلاثًا - ما من الناس أحد إلا له في هذا المال حق أُعْطِيَهُ أو مُنِعَه ، وما أحدٌ بأحق به من أحدٍ إلا عبد مملوك ، وما أنا فيه إلا كأحدهم ولكنا على منازلنا من كتاب اللّٰه وقسْمِنا من رسول اللّٰه ﷺ ، فالرجل وبلاؤه في الإسلام ، والرجل وقِدَمُه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام ، والرجل و حاجته ، و اللّٰه لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو في مكانه . قال إسماعيل بن محمد : فذكرت ذلك لأبي فعرف الحديث .

وعن مالك بن أوس بن الحدَثان قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : ما على الأرض مسلم لا يملكون رقبته إلا له في هذا الفيء حق أُعْطِيَه أو مُنِعَه ، ولئن عشت ليأتين الراعي باليمن حقه قبل أن يَحْمرَّ وجهه (يعني في طلبه) .

وعن أبي هريرة : أنه قدم على عمر بن الخطاب من البحرين ، قال أبو هريرة : فلقيتُه في صلاة العشاء الآخرة فسلَّمتُ عليه فسألني عن الناس ، ثم قال لي : ماذا جئت به ؟ قلت : جئتُ بخمسمائة ألف درهم ، قال : هل تدري ما تقول ؟ قلت : جئت بخمسمائة ألف درهم ، قال : ماذا تقول ؟ قال : قلت : مائة ألف ، مائة ألف ، مائة ألف ، مائة ألف ، مائة ألف ، حتى عددتُ خمسًا . قال : إنك ناعس (يظهر عليه النعاس) فارجع إلى أهلك فَنَمْ فإذا أصبحت فأتني . فقال أبو هريرة : فغدوت إليه فقال : ماذا جئتَ به ؟ قلتُ : جئتُ بخمسمائة ألف درهم ، قال عمر : أَطَيِّبٌ ؟ قلت : نعَم لا أعلم إلا ذلك ، فقال للناس : إنه قد قدم علينا مال كثير فإن شئتم أن نعدَّ لكم عددًا وإن شئتم أن نكيله لكم كيلًا ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين إني قد رأيت هؤلاء الأعاجم يُدَوِّنون ديوانًا يُعطون الناس عليه ، قال : فَدَوَّن الديوان وفرض للمهاجرين الأولين في خمسة آلاف خمسة آلاف ، وللأنصار أربعة آلاف أربعة آلاف ، ولأزواج النبي ﷺ في اثني عشر ألفًا .

وعن بَرَزَة بنت رافع قالت : لما خرج العطاء أَرْسَلَ عمر إلى زينب بنت جحش ، فلما دخل عليها قالت : غفر اللَّه لعمر ! غيري من أخواتي كان أقوى على قَسْم هذا مني ، فقالوا : هذا كله لك ، قالت : سبحان اللَّه ! واستترت منها بثوب ، قالت : صُبُّوه واطرحوا عليه ثوبًا ، ثم قالت لي : أَدخِلي يدك فاقبضي منه قبضة فاذهبي بها إلى بني فلان وبني فلان من أهل رَحِمِها وأيتامها ، فَقَسَمَتْه حتى بقيت بقية تحت الثوب ، فقالت لها برزة بنت رافع : غفر اللَّه لك يا أم المؤمنين ! و اللَّه لقد كان لنا في هذا حق ، فقالت : فلكم ما تحت الثوب . قالت : فكشفنا الثوب فوجدنا خمسة وثمانين درهمًا ، ثم رفعت يديها إلى السماء وقالت : اللهم لا يدركني عطاء لعمر بعد عامي هذا ، فماتت .

وعن حارثة بن مضرّب عن عمر قال : لئن عِشْتُ حتى يكثر المال لأجعلن عطاء الرجل المسلم ثلاثة آلاف : ألف لِكُراعه وسلاحه ، وألف نفقة له ، وألف نفقة لأهله .

وعن عائشة ﵂ قالت :كان عمر بن الخطاب ﷺ يرسل إلينا بأحظائنا حتى من الرؤوس والأكارع .

وعن عبد اللَّه بن عُبيد بن عُمير قال : قال عمر بن الخطاب : لأزيدنهم ما زاد المال ، لأَعُدَّنَّه لهم عدًّا ، فإن أعياني لأَكِيلَنَّه لهم كيلًا ، فإن أعياني حَشَوته بغير حساب .

وقال ابن عباس : دعاني عمر بن الخطاب فأتيته فإذا بين يديه نِطْعٌ عليه الذهب منثور حثًا ، قال : يقول ابن عباس : أخبرنا زهير ، هل تدري ما حثا ؟ قال : قلت : لا ، قال : التِّبْر ، قال : هلم فَاقْسِمْ هذا بيـن قومك ، فاللَّه أعلم حيث زَوَى هذا عن نبيه ﷺ ، وعن أبي بكر ، فأعطيتُه لخير أعطيته أو لِشَرٍّ ؟ قال : فأكببت عليه أقسم وأُزَيِّل ، قال : فسمعت البكاء ، قال : فإذا صوت عمر يبكي ، ويقول في بكائه : كلا و الذي نفسي بيده ما حبسه عن نبيه ﷺ وعن أبي بكر إرادة الشر لهما وأعطاه عمر إرادة الخير له .

وعن محمد بن سيرين : أن صِهْرًا لعمر بن الخطاب قدم على عمر فعرَّض له أن يعطيه من بيت المال فانتهزه عمر وقال : أردتَ أن ألقى اللَّه تعالى ملكًا خائنًا . فلما كان بعد ذلك أعطاه من صُلْبِ ماله عشرة آلاف درهم .

وعن سالم أبي عبد اللَّه قال : فرض عمر بن الخطاب للناس حتى لم يدع أحدًا من الناس إلا فرض له حتى بقيت بقية لا عشائر لهم ولا موالي ففرض لهم ما بين المائتين وخمسين إلى ثلثمائة . [اهـ من الطبقات لابن سعد] .

* * *

عام الرمادة وموقف عمر منه

عن حزام بن هشام عن أبيه قال : لما صدر الناس عن الحج سنة ثماني عشرة أصاب الناسَ جهدٌ شديدٌ وأجدبت البلاد وهلكت الماشية وجاع الناس وهلكوا حتى كان الناس يُرَوْنَ يَستفُّون الرِّمَّة ويحفرون نُفُق اليرابيع والجُرْذَان يخرجون ما فيها .

وعن عوف بن الحارث عن أبيه قال : سُمي ذلك العام عام الرمادة ؛ لأن الأرض كلها صارت سوداء فشبهت بالرماد ، وكانت تسعة أشهر .

وعن نافع عن ابن عمر : أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص عام الرمادة : بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد اللَّه أمير المؤمنين إلى العاصي ابن العاصي سلام عليك ، أما بعد : أفتراني هالكًا ومَن قِبَلي وتعيش أنت ومَن قِبَلك ؟ فياغوثاه ، ثلاثًا ، قال : فكتب إليه عمرو بن العاص :

بسم الله الرحمن الرحيم : لعبد اللَّه أمير المؤمنين من عمرو بن العاص : سلام عليك فإني أحمد إليك اللَّه الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : أتاك الغوث فَلَبِّث لَبِّث ؟ لأبعثن إليك بِعِيرٍ : أولها عندك وآخرها عندي . قال : فلما قدم أول الطعام كلم عمر بن الخطاب الزبير بن العوام فقال له : تعترض للعير فتُميلها إلى أهل البادية فتقْسِمُها بينهم ، فواللَّه لعلك ألا تكون أصبت بعد صحبتك رسول اللَّه ﷺ شيئًا أفضل منه . قال : فأبى الزبير واعْتلَّ ، قال : وأقبل رجل من أصحاب النبي ﷺ فقال عمر : لكن هذا لا يأبى ، فكلمه عمر ففعل وخرج فقال له عمر :أما ما لَقيت من الطعام فَمِلْ به إلى أهل البادية ، فأما الظروف (الأكياس التي فيها الطعام) فاجعلها لُحُفًا يَلبسُونها ، وأما الإبل فانحرها لهم يأكلون من لحومها ويحملون من وَدَكِها (شحمها) ، ولا تنتظر أن يقولوا : ننتظر بها الحيَا (المطر) وأما الدقيق فيصطنعون ويُحرزون (يدخرون) حتى يأتي أمر اللَّه لهم بالفرج ، وكان عمر يصنع الطعام وينادي مناديه : من أحب أن يحضر طعامًا فيأكل فليفعل ، ومن أحب أن يأخذ ما يكفيه وأهله فليأت فليأخذه .

وعن موسى بن طلحة قال : كتب عمر إلى عمرو بن العاص أن ابعث إلينا بالطعام على الإبل وابعث في البحر فبعث عمرو على الإبل فلقيتُ الإبل بأفواه الشام فَعَدَل بها رسله يمينًا وشمالًا ينحرون الجزر ، ويطعمون الدقيق ويكسون العَبَاء ، وبعث رجلًا إلى الطعام الذي بعث به عمرو من مصر في البحر فَحُمِل إلى أهل تهامة يُطْعَمُونَه .

وعن حزام بن هشام عن أبيه قال : رأيت رُسَل عمر ما بين مكة والمدينة يطعمون الطعام .

وبعث إليه يزيد بن أبي سفيان من الشام بطعام ، قال ابن سعد : هذا غلط ، يزيد بن أبي سفيان كان قد مات يومئذ وإنما كتب إلى معاوية ، فبعث إليه من يتلقاه بأفواه الشام يصنع به كالذي يصنع رسل عمر ، يطعمون الناس الدقيق وينحرون لهم الجزر ويكسونهم العباء . وبعث إليه سعدُ بن أبي وقاص من العراق بمثل ذلك ، فأرسل إليه من لقيه بأفواه العراق فجعلوا ينحرون الجزر ويطعمون الدقيق ويكسونهم العباء حتى رفع اللّٰه ذلك عن المسلمين .

وعن ابن عمر قال : كان عمر بن الخطاب أحدث في زمان الرمادة أمرًا ما كان يفعله ، لقد كان يصلي بالناس العشاء ثم يخرج حتى يدخل بيته فال يزال يصلي حتى يكون آخر الليل ، ثم يخرج فيأتي الأنقاب (مداخل المدينة) فيطوف عليها ، وإني لأسمعه ليلة في السحر وهو يقول : اللهم لا تجعل هلاك أمة محمد ﷺ على يدي .

وعن يحيى بن سعيد عن محمد بن يحيى بن حبان قال : أُتِي عمر بن الخطاب بخبز مقتوت بسمن عام الرمادة ، فدعا رجلًا بدويًّا فجعل يأكل معه ، فجعل البدوي يتبع باللقمة الوَدَك في جانب الصحفة ، فقال له عمر : كأنك مُقْفِرٌ من الودك (السمن) فقال : أجل ما أكلتُ سمنًا ولا زيتًا ولا رأيت آكلًا له منذ كذا وكذا إلى اليوم ، فحلف عمر لا يذوق لحمًا ولاسمنًا حتى يحيا الناس .

وعن أنس بن مالك قال : تقرقر بطن عمر بن الخطاب ، وكان يأكل الزيت عام الرمادة ، وكان حرَّم عليه السمن فنقر بطنه بإصبعه وقال : تَقَرْقَرْ تَقَرْقُرَكَ ، إنه ليس لك عندنا غيره حتى يحيا الناس .

وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال : أصاب الناسَ عامُ سنة فغلا فيها السمن ، وكان يأكله ، فلما قلَّ قال : لا آكله حتى يأكله الناس . فكان يأكل الزيت ، فقال : يا أسلم اكسر عني حَرَّه بالنار ، فكنت أطبخه له فيأكله فيتقرقر بطنه عنه فيقول : تقرقر ، لا واللّٰه لا تأكله حتى يأكله الناس (التقرقر : صوت اضطراب البطن وتعبه) .

وعن أسامة بن زيد قال : حدثني نافع مولى الزبير قال : سمعت أبا هريرة يقول : يرحم اللّٰه ابن حنتمة (هو عمر) ، لقد رأيته عام الرمادة وإنه ليحمل على ظهره جرابين وعَكّة (وعاء) زيت في يده ، وإنه ليعتقب هو وأسلم فلما رآني قال : من أين يا أبا هريرة ؟ قلت : قريبًا ، قال : فأخذت أُعْقِبُه فحملناه حتى انتهينا إلى صرار فإذا صِرْمٌ نحو من عشرين بيتًا من محارب فقال عمر : ما أقدمكم ؟ قالوا : الجهد ، قال : فأخرجوا لنا جلد الميتة مشويًّا كانوا يأكلونه ورمة العظام مسحوقة كان يسفُّونها ، فرأيت

عمر طرح رداءه ثم اتَّزَرَ فما زالَ يطبخ لهم حتى شبعوا ، وأرسل أسلم إلى المدينة فجاء بأبعرة فحملهم عليها حتى أنزلهم الجبانة (موضع) ثم كساهم . وكان يختلف إليهم وإلى غيرهم حتى رفع اللّه ذلك .

وعن حزام بن هشام عن أبيه قال : رأيت عمر بن الخطاب عام الرمادة مرَّ على امرأة وهي تَعْصِدُ عصيدة لها ، فقال : ليس هكذا تعصدين . ثم أخذ المِسْوطَ (المحرك) ، فقال : هكذا ، فأراها .

وعن عياض بن خليفة قال : رأيت عمر عام الرمادة وهو أسود اللون ، ولقد كان أبيض ، فنقول : مِمَّ ذا ؟ فيقول : كان رجلًا عربيًا وكان يأكل السمن واللبن ، فلما أَمْحَلَ الناس حَرَّمَهَا حتى يحيوا فأكل بالزيت فغير لونه وجاع .

وعن يزيد بن فراس الديلي عن أبيه قال : كان عمر بن الخطاب ينحر كل يوم على مائدته عشرين جزورًا من جُزُر بعث بها عمرو بن العاص من مصر .

وعن عيسى بن عبد اللّه بن مالك الدار عن أبيه عن جده قال : لما كتب عمر إلى عمرو بن العاص يبعث بالطعام في البر والبحر ، بعث إليه في البحر بعشرين سفينة تحمل الدقيق و الودك ، وبعث إليه في البر بألف بعير تحمل الدقيق ، وبعث إليه معاوية بثلاثة آلاف بعير تحمل الدقيق ، وبعث إليه بثلاثة آلاف عباءة ، وبعث إليه عمرو بن العاص بخمسة آلاف كساء وبعث إليه والي الكوفة بألفي بعير تحمل الدقيق .

وعن عيسى بن معمر قال : نظر عمر بن الخطاب عام الرمادة إلى بِطِّيخة في يد بعض ولده فقال : بخ بخ يا ابن أمير المؤمنين تأكل الفاكهة وأمة محمد ﷺ هَزْلى ؟ فخرج الصبي هاربًا وبكى ، فسكت عمر بعد ما سأل عن ذلك : فقالوا : اشتراها بكف من نوى .

وعن نافع عن ابن عمر أن عمر قال : لو لم أجد للناس من المال ما يسعُهم إلا أن أدخل على كل أهل بيت عِدَّتهم فيقاسموهم أنصاف بطونهم حتى يأتي أمر اللّه بحيًا فعلت ، فإنهم لن يَهْلكوا عن أنصاف بطونهم .

وعن أم بكر بنت المِسْوَر بن مخرمة عن أبيها قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول بعد ما رفع اللّه المَحْلَ (القحط) في الرمادة : لو لم يرفعه اللّه لجعلت مع كل أهل بيت مثلهم .

وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال : لما كان عام الرمادة تجلَّبت العرب (جاءت) من

كل ناحية فقدموا المدينة فكان عمر بن الخطاب قد أمر رجالًا يقومون عليهم ويقسمون عليهم أطعمتهم وإدامهم ، فكان يزيد ابن أخت النمر ، وكان المسور بن مخرمة ، وكان عبد الرحمن بن عبد القاري ، وكان عبد اللّه بن عتبة بن مسعود ، فكانوا إذا أمسوا اجتمعوا عند عمر فيخبرونه بكل ما كانوا فيه ،وكان كل رجل منهم على ناحية من المدينة ، وكان الأعراب حلولًا فيما بين رأس الثنية إلى راتج ، إلى بني حارثة ، إلى بني عبد الأشهل ، إلى البقيع ، إلى بني قريظة ، ومنهم طائفة بناحية بني سلمة ، وهم محدقون بالمدينة ، فسمعت عمر يقول ليلة (وقد تعشى الناس عنده) : أحصوا من تعشى عندنا فأحصوهم من القابلة فوجدوهم سبعة آلاف رجل ، وقال : أحصوا العيالات الذين لا يأتون والمرضى والصبيان ، فأحصوا فوجدوهم أربعين ألفًا ، ثم مكثنا ليالي فزاد الناس فأمر بهم فأحصوا فوجدوا من تعشى عنده عشرة آلاف ، والآخرين خمسين ألفًا ، فما بَرِحُوا حتى أرسل اللّه السماء ، فلما أمطرت رأيت عمر قد وكَّلَ كل قوم من هؤلاء بناحيتهم : يخرجونهم إلى البادية ، ويعطونهم قوتًا وحُمْلانًا إلى باديتهم ، ولقد رأيت عمر يخرجهم هو بنفسه ، قال أسلم : وكان قد وقع فيهم الموت فأراه مات ثلثاهم وبقي ثلث ، وكانت قدور عمر يقوم إليها العمال في السحر يعملون الكركور حتى يصبحوا ، ثم يطعمون المرضى منهم ويعملون العصائد ، وكان عمر يأمر بالزيت فَيُفَار في القدور الكبار على النار حتى تذهب حُمَّته وحرّه ثم يُثْرَد (يقطَّع) الخبز ثم يُؤدم بذلك الزيت فكان العرب يُحَمُّون (يصابون بالحمى) من الزيت ، وما أكل عمر في بيت أحد من ولده ولا بيت واحدة من نسائه ذواقًا زمان الرمادة ، إنما يتعشى مع الناس حتى أحيا اللّه الناس أول ما أَحْيَوا .

* * *

عمر يأمر بصلاة الاستسقاء

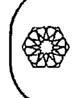
عن عبد اللّه بن نيار الأسلمي عن أبيه قال : لما أجمع عمر على أن يستسقي ويخرج بالناس كتب إلى عماله أن يخرجوا يوم كذا وكذا ، وأن يتضرعوا إلى ربهم ويطلبوا إليه أن يرفع هذا المَحْلَ عنهم ، وخرج لذلك اليوم عليه بُرْدُ رسول اللّه ﷺ حتى انتهى إلى المصلى فخطب الناس وتضرع ، فجعل الناس يُلِحُّون فما كان أكثر دعائه إلا الاستغفار حتى إذا قرب أن ينصرف رفع يديه مَدًّا وحول رداءه وجعل اليمين على اليسار ثم اليسار على اليمين ، ثم مد يديه وجعل يُلِحُّ في الدعاء ، وبكى

عمر بكاءً طويلًا حتى أَخْضَلَ لحيته .

وعن السائب بن يزيد قال : نظرت إلى عمر بن الخطاب يومًا في الرمادة غَدَا مُتَبَذِّلًا متضرعًا عليه بُرْدٌ لا يبلغ ركبتيه يرفع صوته بالاستغفار وعيناه تُهْرَاقان على خديه ، وعن يمينه العباس بن عبد المطلب . فدعا يومئذ وهو مستقبل القبلة رافعًا يديه إلى السماء وَعَجَّ إلى ربه ، فدعا ودعا الناس معه ثم أخذ بيد العباس فقال : اللهم إنا نستشفع بعمِّ رسولك إليك ، فما زال العباس قائمًا إلى جنبه مليًّا ، والعباس يدعو وعيناه تهملان . [اهـ من الطبقات] .

* * *

أهم الفتوحات في عهد عمر
الفتوحات في الدولة الفارسية



كان العرب يرون بلاد الفرس أصعب منالًا من بلاد الدولة البيزنطية كما تقدم ، ومن ثم كانوا يتهيبون غزوهم . وقد وجه أبو بكر ﷺ جيشًا إلى أطراف العراق بقيادة خالد ابن الوليد ومعه المثنى بن حارثة ، فأخضع القبائل العربية التي كانت تقيم جنوبي نهر الفرات وانتصر على الفرس ، واستولى على الحيرة والأنبار ، وما لبث العرب أن تقهقروا أمام جيش الفرس الكثيف الذي أعده يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان بقيادة رستم وارتدوا إلى أطراف الصحراء ، وظلت الحال على ذلك إلى آخر أيام أبي بكر ، حيث وجه خالد بن الوليد لمساعدة المسلمين في قتال الروم بالشام وفلسطين .

فلما ولي عمر بن الخطاب ﷺ الخلافة وزاد الاضطراب في بلاد الفرس كتب المثنى بن حارثة إلى عمر بذلك وما كان من جلوس يزدجرد على العرش مع حداثة سنه ، وحثه على انتهاز هذه الفرصة ، وكان عمر قد اطمأن من ناحية الروم بعد هزيمتهم في أجنادين سنة ١٥ هـ ، فوجه همه لغزو العراق ودعا الناس لغزوها وهوَّن عليهم فتحها ، وأراد أن يقود الجيش بنفسه ، ولكن بعض الصحابة أشاروا عليه بأن يبعث رجلًا من كبار الصحابة وأن يكون هو من ورائه يمده بالأمداد . فلما سمع عمر ذلك صعد المنبر وقال : « **أيها الناس إني كنت عازمًا على الخروج معكم ، وإن ذوي اللب والرأي منكم قد صرفوني عن هذا الرأي ، وأشاروا بأن أقيم وأبعث رجلًا من الصحابة يتولى أمر الحرب** » [١] .

وقع الاختيار على سعد بن أبي وقاص فاستحسن عمر هذا الرأي ، واستقدم سعدًا وعهد إليه بفتح العراق ثم ودع الجيش . وجعل سعد يتنقل في الأراضي التي بين الحجاز والكوفة يستمع الأخبار ، ورسُلُ عمر توافيه ، وكتبه تأتيه يشير عليه فيها بآرائه ويمده بالجنود .

ولما قصد سعد القادسية (١٥ هـ / ٦٣٦م) - وكانت باب العراق - التقى برستم (بفتح التاء) في جيش يبلغ ثلاثين ألف مقاتل ، على حين كان جند العرب يتراوح بين سبعة آلاف وثمانية آلاف ، وكان الفرس يضحكون من خيل العرب ويشبهونها بالمغازل .

ترددت الرسل بين قائد العرب وقائد الفرس . فكان العربي يأتي إلى باب رستم ،

---

(١) الفخري ص ٧٥ .

وهو جالس على سرير الذهب ، وقد زين مجلسه بالفرش المنسوج بالذهب ، ولبس الفرس التيجان وأقاموا الفيلة حول المكان فيجيء العربي وهو متقلدٌ سيفه فيربط فرسه بالقرب من سرير رستم ، فَيَهُم الفرس بمنعه .

ذكر البلاذري أن رستم سأل سعد بن أبي وقاص أن يوجه إليه بعض أصحابه ، فأرسل إليه المغيرة بن شعبة ، فقصد سريره ليجلس معه عليه فمنعه الأساورة من ذلك ، فقال له رستم : لقد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد . ونحن نعطيكم ما تتشبعون به ونصرفكم ببعض ما تحبون . . فقال المغيرة : إن اللّه تعالى بعث إلينا نبيه ﷺ فسعدنا بإجابته ، واتباعه ، وأمرنا بجهاد من خالف ديننا ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ ونحن ندعوك إلى عبادة اللّه وحده ، والإيمان بنبيه ﷺ ، فإن فعلت ، وإلا فالسيف بيننا وبينكم ، فقال له رستَم : والشمس والقمر لا يرتفع الضحى غدًا حتى نقتلكم أجمعين ، فقال المغيرة : لا حول ولا قوة إلا باللّه وانصرف عنه .

وقد أُعْجِبَ رستَم بالعرب وبسديد إجابتهم حتى قال لأصحابه : انظروا فإن هؤلاء لا يخلو أمرهم من أن يكون صدقًا أو كذبًا . فإن كانوا كاذبين ، فإن قومًا يحفظون أسرارهم هذا الحفظ ولا يختلفون في شيء وقد تعاهدوا على كتمان سرهم هذا التعاقد بحيث لا يُظْهِر أحد منهم سرهم ، لَقَومٌ في غاية الشدة والقوة ، وإن كانوا صادقين فهؤلاء لا يقف حذاءهم أحد ، فصاحوا حوله ، وقالوا : اللّه اللّه أن تترك ما أنت عليه لشيء رأيته من هؤلاء الكلاب ، بل صَمِّمْ على حربهم ، فقال رستم : هو ما أقول لكم ولكنني معكم على ماتريدون [1] .

لذلك لم ير رستَم بُدًا من المضي في حرب العرب ، واقتتلوا أيامًا انعكس الريح في آخرها عليه وعلى جنده حتى أعمالهم الغبار وقُتِل رستَم وعدد كبير من جنده وهرب الباقون ، وغنمت أموالهم ثم تبعهم سعد إلى جلولاء (١٦ هـ) وأوقع بهم ، وأَسَرَ إحدى بنات كسرى وقتل عددًا كبيرًا من الفرس . وكان من أثر فتح جلولاء أن اعتنق الإسلامَ دهاقينُ الفلاليج والنهرين ، وبابل ، ونهر الملك ، وكوثى ، وغيرهم ،فأقرهم عمر بن الخطاب على ما بأيديهم من البلاد ورفع عنهم الجزية .

عند ذلك كتب سعد إلى عمر يبشره بالفتح ، فكتب إليه : « **قف مكانك ولا تتبعهم واقنع بهذا ، واتخذ للمسلمين دار هجرة ومدينة يسكنونها ، ولا تجعل بيني وبينهم بحرًا** » . فاتخذ الكوفة وأسس بها المسجد الجامع واختط الناس المنازل

---

(١) الفخري ص ٧٧ .

ومَصَّرها ،أي جعلها حاضرة (عاصمة) للمسلمين في هذه البلاد ، ثم توغل سعد في بلاد العراق واستولى على المدائن حاضرة بلاد الفرس بعد أن حاصرها شهرين ، وغنم العرب منها غنائم كثيرة ، من بينها بساط كسرى ، وفر يزدجرد إلى حلوان وحمل معه أمواله وما خف حمله من متاعه .

ولم يستطع يزدجرد أن يلم شعث جنده ويستعد لملاقاة العرب من جديد إلا بعد أربع سنين . فقد ذكر البلاذري ص ٢٦١ أن سعد بن أبي وقاص أرسل إلى حلوان جيشًا يتألف من ثلاثة آلاف رجل بقيادة جرير بن عبد اللّه البجلي ، ففتحها صلحًا ، وفرَّ يزدجرد إلى نواحي أصبهان (١٩ هـ) .

وفي سنة (٢٠ هـ) تجمع حول يزدجرد المقاتلون من الرَّي وقُومِس وأصبهان وهمذان وغيرها .

وذكر البلاذري [1] أن جيش كسرى بلغ ٦٠,٠٠٠ مقاتل ، وفي رواية ١٠٠,٠٠٠. ولما اتصلت هذه الأنباء بمسامع الخليفة عمر عوَّل على المسير إليه بنفسه ، ثم خاف خروج العرب حين غيابه ، وأُشير عليه بأن (يغزى أهل الشام من شامهم ، وأهل اليمن من يمنهم) ، فخاف إن فعل ذلك أن تعود الروم إلى أوطانها وتغلب الحبشة على ما يليها . فكتب إلى أهل الكوفة يأمرهم أن يسير ثلثاهم ويبقى ثلثهم لحفظ بلدهم وديارهم ، وبعث من أهل البصرة بعثًا . وولى عمر النعمان بن مقرن المزني قيادة جيش العرب في نهاوند (٢١هـ) ، وكُتب النصر للعرب برغم استماتة الفرس في الدفاع . وعرفت هذه الموقعة بفتح الفتوح لشدتها وأهميتها .

وبعد أن استولى العرب على نهاوند ساروا إلى الأهواز وفتحوها سنة (٢٢ هـ) ، ثم فتحوا قُمّ ، وقاشَانَ ، ثم وجه عمر بن الخطاب عبد اللّه بن بديل إلى أصبهان ففتحها صلحًا على أن يؤدي أهلها الجزية والخراج ، وأمَّنهم على أنفسهم وأموالهم . ثم وجه عروة بن زيد الخيلي الطائي إلى الرَّي في ثمانية آلاف مقاتل ففتحها ، كما فتح المسلمون قُومِس صُلحًا ، وكاتب سويد بن مقرن ملك جرجان ، ثم سار إلى بلاده .

وقد أورد **الطبري شروط الصلح** التي تعهد فيها أهالي هذه البلاد بأن يؤدوا الجزية للمسلمين كفاء تأمينهم على أنفسهم وأموالهم وإطلاق الحرية الدينية لهم ، وبأن يجازي من يقوم من أهلها بمساعدة المسلمين . كما تضمن هذا الصلح أن يلتزم المسلمون المحافظة على هذه الشروط طالما أدى أهل جرجان الجزية وأقروا المسلمين ولم ينقضوا

(١) ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

ذلك العهد وعلى « **أن من سب مسلمًا بلغ جهده (أي ضُرب ضربًا شديدًا يبلغ الجهد)** ، **ومن ضربه حَلَّ دمه** » .

ويظهر أن الأصبهبذ حاكم بلاد طبرستان الواسعة على ساحل بحر الخزر خشي سوء العاقبة فحذا حذو ملك جرجان القريبة من بلاده ، فطلب من المسلمين الصلح على ألا يكون بينهما قتال ، فكتب إليه سويد عهدًا على مثال العهد الذي أعطاه أهل جرجان .

وكانت سنة (٢٢ هـ) حافلة بالفتوح العربية في فارس ، وكان الخليفة عمر يرمي إلى القضاء على مُلك الأكاسرة .

روى **البلاذري** أن المغيرة بن شعبة عامل الكوفة غزا أَذْرَبيجَان وفتحها عنوة وفرض عليها الخراج .

ولم يزل العرب يتابعون فتوحهم في هذه البلاد الشاسعة الأرجاء ، فندب سراقة بن عمرو وعبد الرحمن بن ربيعة للمسير إلى بلاد الباب وهي بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروفة بالدربند ، وأمده عمر بحبيب بن مسلمة - عامله على بلاد الجزيرة - فطلب شهربراز ملك هذه البلاد من عبد الرحمن أن يأتيه ، ففعل . ثم عَبَّر له عما يكنه من سخط وكراهة للأرمن و القبج الذين يقيمون حول بلاده ، وأعرب له عن نياته الطيبة نحو المسلمين ، وطلب إليه أن يعفيه من الجزية ؛ إذ كان يرى فيها ما يشعر بالذلة على أن يعاونهم في حروبهم ، بَيدَ أن ذلك القائد لم ير بُدًّا من الرجوع إلى قائده الأعلى سراقة بن عمرو الذي قبِل ذلك الطلب وكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب فأقره .

وجه سراقة أربعة جيوش إلى البلاد المحيطة بإرمينِيَة ، ولما تم له فتحها كتب إلى عمر يبشره بالفتح ، ولكنه لم ينعم بثمرة تلك الانتصارات ، وحالت منيته دون إتمام هذه الفتوح ، وخلفه عبد الرحمن بن ربيعة الذي عهد إليه عمر بغزو بلاد الترك ، ولكنه لم يتمكن إلا من فتح بعضها .

ولكن أقدام العرب لم تتوطد في هذه البلاد التي لم تلبث أن انتقضت في عهد عثمان الذي عول على فتحها من جديد على ما سيأتي .

أما يزدجرد الثالث فقد ظل العرب يطاردونه ويستولون على بلاده حتى إنه اضطر إلى الفرار إلى أقصى الحدود الشرقية ، وما زال أمره يضعف حتى قتل بخراسان في خلافة عثمان بن عفان سنة (٣١ هـ) . وبموت يزدجرد زالت الدولة الساسانية وتحققت دعوة النبي ﷺ بتمزيق ملك الأكاسرة .

* * *

أثر الفتح العربي في بلاد الفرس

لا شك أن العرب قد جنوا ثمار هذه الانتصارات التي أحرزوها على الفرس فضموا إلى بلادهم بلدًا جديدًا ، وأثْروا وأصبحوا في رغد من العيش بعد أن امتلكوا كنوز الفرس . وقد بهرت النفائسُ والأموالُ العربَ الذين اعتادوا التقشف والبساطة .

فقد ذكر صاحب الفخري [1] أن بدويًا ظفر بحجر من الياقوت يساوي مبلغًا عظيمًا ، فلم يدر قيمته ، فرآه بعض من يعرف قيمته فاشتراه منه بألف درهم . ثم عرف البدوي قيمته ولامه أصحابه وقالوا له : هَلَّا طلبت فيه أكثر من ذلك ؟ قال : لو علمت أن وراء الألف عددًا أكثر من الألف لطلبته .

وكان من بين العرب من يأخذ في يده الذهب الأحمر ويقول : « **من يأخذ الصفراء ويعطيني البيضاء ؟** » لأنه يرى أن الفضة خير من الذهب .

وقد رَحَّب الفرس بالعرب حُبًا في الخلاص من ظلم الحكام أولًا ، ورغبة في إعفائهم من الخدمة العسكرية ثانيًا ، ثم أملًا في تمتعهم بالحرية الدينية آخر الأمر ؛ وذلك لأن الإسلام كان يبيح لغير المسلمين من يهود ومسيحيين ، ومن زرادشتيين وصائبة وعبدة الأوثان والنار والحجارة أن يتدينوا بما يرضون لأنفسهم من دين على أن يدفعوا الجزية للمسلمين .

على أن سكان المدن - وخاصة الصناع وأصحاب الحرف وأهل الطبقة العاملة - رحبوا بالدين الإسلامي ، واعتنقه عدد عظيم منهم في حماسة كبيرة ، وذلك لما تتطلبه أعمالهم من تركهم ديانةَ زرادشت وتقبيح عبادة النار والأرض والماء ، وهم الذين كان يُنظر إليهم باحتقار وازدراء ، و لما يترتب على اعتناقهم الإسلامَ من تركهم أحرارًا ومساواتهم في المذهب الديني ، ولم يكن ارتدادهم عن ديانة زرادشت نفسها بالأمر الصعب ، فقد تبع سقوط الأسرة الساسانية تدهور الكنيسة ، حتى أنه لم يعد لأتباعها مركز يجتمعون حوله ، فوجدوا السبيل سهلًا ميسورًا لاعتناقهم الإسلامَ لما بين مذهبهم الجديد ومذهبهم القديم من أوجه الشبه الكثيرة ، فالفارسي يستطيع أن يجد في القرآن كثيرًا من التعاليم الأساسية في ديانته القديمة ، وإن كان ذلك بصورة مختلفة كثيرًا .

وفضلًا عن هذه العوامل التي أدت إلى انتشار الإسلام ببلاد الفرس في سرعة مدهشة ، كان ثمة عامل آخر هو الشعور السياسي و الوطني لهذا الشعب المغلوب ، ذلك الشعور الذي أدى إلى انضوائهم تحت لواء هذا الدين الجديد عن طريق زواج

---

(١) ص ٧٨ .

الحسين بن علي بشهربانوه إحدى بنات يزدجرد آخر ملوك الأسرة الساسانية . وقد رأى الفرس في أولاد الحسين وارثين لملوكهم الأقدمين ، وهذا الشعور الوطني يفسر لنا تعلق الفرس بعليٍّ من جهة وظهور المذهب الشيعي في بلادهم من جهة أخرى .

ولم تكن القوة هي السبب في تحويل الناس إلى الإسلام بدليل هذه المعاملة الحسنة التي عامل بها العرب من بقي من الفرس على تمسكه بمذهبه القديم . ولا تزال هناك بعض جماعات صغيرة من الفرس يعبدون النار ، وكان أجدادهم يتمتعون بقسط وافر من الحرية الدينية بعد الفتح الإسلامي ،كما كانت الدولة الإسلامية تحول دون التعرض لمعابدهم .

ولما تم للعرب فتح بلاد الفرس قاموا بحماية الأهالي مقابل دفع مبلغ معين يؤديه كل فرد قادر على القتال يسمى الجزية أو جزية الرؤوس وهي ضريبة شخصية يدفعها أهل الذمة كفاء إعفائهم من خدمة الجيش . وكانوا يعفون من تلك الجزية إذا اعتنقوا الإسلام. وكانت الأرض ملكًا للفاتحين .

غير أن هؤلاء كانوا يتركونها للأهالي يزرعونها على أن يؤدوا جزءًا من غلتها ضريبة عقارية تسمى الخراج . ويرجع السبب في ترك الأرض في أيدي الأهلين إلى الرغبة في أن يكون كل مسلم جنديًا من جنود الإسلام على أهبة الاستعداد لتلبية داعي الجهاد ، على أن يمنح عطاء معينًا من بيت مال المسلمين مقابل خدماته .

وكان من أثر هذه السياسة أن بادر كثير من الأهلين إلى الإسلام ، مما ساعد العربَ على التوسع في فتح بلاد المشرق . [اهـ تاريخ الإسلام السياسي] .

* * *

الفتوحات في الشام في عهد عمر

سبق أن عرفنا أن المسلمين انتصروا على الروم في موقعة اليرموك ، وفي أثنائها مات أبو بكر واستخلف عمر الذي ولَّي أبا عبيدة بن الجراح قيادة الجيش بدل خالد بن الوليد .

ولما علم هرقل بانتصار المسلمين في اليرموك - وكان ببيت المقدس - رأى في بقائه خطرًا عليه ، فأسرع بالرحيل إلى حِمْص ليجعلها مقرًا لأعماله الحربية فخرج أبو عبيدة حتى نزل بمرج الصُّفَّر وهو يريد تتبع الفالة ، وكان لايدري : أيجتمعون أم يتفرقون ؟ فأتاه الخبر أنهم اجتمعوا بِفِحْل وأن المدد أتى أهلَ دمشق من حِمْص . وكان لا يدري هل يبدأ بدمشق أم بِفِحْل من بلاد الأردن ؟ فكتب إلى الخليفة عمر يستطلع وأقام بمرج

الصُّـفَّر ، فلما جاء عمرَ نبأُ فتحِ اليرموك ، ولَّي الأمراء على ما استعملهم عليه أبو بكر ، إلا ما كان من عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد فإنه ضمَّ خالدًا إلى أبي عبيدة وأمر عمرًا بمعاونة غيره من القواد حتى تنتقل الحرب إلى فلسطين فيتولى القيادة فيها .

ولما جاءَ عمرَ كتابُ أبي عبيدة كتب إليه : أما بعد فابدأوا بدمشق فإنها حصن الشام ، واشغلوا عنكم أهل فِحْل بخيل تكون بإزائهم . وأهل فلسطين وأهل حِمْص ، فإن فتحها اللَّه قبل دمشق فذاك الذي نحب ، وإن تأخر فتحها حتى يفتح اللَّه دمشق فلينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها ، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فِحْل ، فإن فتح اللَّه عليك فانصرف أنت وخالد إلى حِمْص ، ودع شرحبيل وعمرًا ، وأخلهما بالأردن وفلسطين وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من إمارته .
وقد أرسل أبو عبيدة إلى فِحْل عشرة قواد ، فبث الروم المياه حولها ، فوحلت الأرض وعاق ذلك تقدُّم المسلمين .

ولما وصلت جيوش المسلمين إلى دمشق نزل عمرو بن العاص بباب الفراديس ونزل شرحبيل بن حسنة بباب توما ، وقيس بن هبيرة بباب الفرج ، وأبو عبيدة بباب الجابية ، وبقي خالد بالباب الشرقي .

وقد شدد المسلمون الحصار على أهل دمشق سبعين يومًا ، ولم تُجْد منعةُ حصونهم وما عليها من المنجنيقات وغيرها من آلات الدفاع نفعًا . ومنع المسلمون المددَ من أن يصل إليهم ، ونفدت المؤنُ من عندهم ، فعيل صبرهم وانكسرت حنميتهم ، وتم للمسلمين فتح هذه المدينة .

وقد اختلف المؤرخون في الوقت الذي فتحت فيه دمشق ، فروى بعض أنها فتحت في أواخر سنة ١٣ هـ ، وقال بعض إنها فتحت في أوائل المحرم ، وقال بعض : إنها فتحت في رجب من هذه السنة .

وبعد فتح دمشق سار المسلمون إلى فِحْل ، وكان قد أخلاها أهلها وساروا إلى بَيسَان ، وصارت المياه والأوحال بينهم وبين الروم .

اقتتل المسلمون والروم قتالًا شديدًا ، فانهزم الروم وطاردهم المسلمون إلى الأوحال ووخزوهم بالرماح حتى أصيبوا جميعًا ، ولم يفلت منهم إلا الشريد ، وانصرف أبو عبيدة وخالد إلى حمص ، فاستوليا عليها ثم على حَماة ، وقِنَّسْرين واللاذقية وحلب .

أما شرحبيل وعمرو بن العاص فقد قصدا بَيسَان ، فحاصرا أهلها أيامًا ، وأرغموهم على طلب الصلح والأمان ، ولما علم أهل طبرية بما حَلَّ بأهل فحل وبيسان صالحه أبو

الأعور ، وبذلك تم صلح الأردن ، وكتب عمرو بن العاص إلى عمر بالفتح .

كان على فلسطين في ذلك الوقت والٍ روماني يدعى (أرطبون) وقد أقام جندًا كثيرًا ببيت المقدس وغزة و الرملة على حين عسكر بجنده الكثيف بأجنادين .

ولما رأى عمرو أن القوة التي مع الروم أقوى مما كان يظن ، كتب إلى عمر بن الخطاب فقال عمر : قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عما تنفرج ، وكتب إلى القواد أن يسيروا إلى قَيسارِيَّة والرملة وإِيلِيَاء ليشغلوا الروم عن عمرو .

سار عمرو وعلى مقدمته شرحبيل بن حسنة ، وحاول إضعاف قوة أرطبون فلم يوفق ، واقتتل المسلمون والروم قتالًا شديدًا لا يقل عن قتال اليرموك - فانهزم أرطبون في ثمانين ألفًا من الروم وآوى بالفارين إلى إيلياء ، وكان ذلك سنة ١٥هـ . ٦٣٦م .

وكان من أثر انتصار عمرو على أرطبون أن أذعن لسلطان العرب كل من يافا ونابلس وعسقلان وغزة والرملة وعكا . وبيروت ، ولُدّ ، والجبلة ، وفتحت أبوابها لهم من غير قتال إلا بيت المقدس .

ولما أتم عمرو بن العاص فتح غزة ، ولُدّ ، ونابلس ، وبيت جِبْرِين ، قصد بيت المقدس . وأخذ يخابر الأرطبون مخابرة ودية ويطلب إليه تسليم المدينة ، والأرطبون يأبى عليه . وقد أنزلت المنجنيقات التي نصبها الروم على أسوار مدينة بيت المقدس خسائر فادحة بالعرب الذين قاسوا الأمرين من شدة البرد ، وقد حاصر المسلمون هذه المدينة أربعة أشهر لم ينقطع فيها القتال ، وعدوا الاستيلاء عليها دينيًا أكثر منه سياسيًا ؛ لأنهم كانوا يعظمون بيت المقدس بعد مكة و المدينة لكونها مركز الأرض المقدسة .

ولما كتب أبو عبيدة إلى أهل إيلِيَاء (بيت المقدس) يدعوهم إلى الإيمان بالله وبرسوله أو الدخول في طاعة المسلمين ودفع الجزية نظروا في أمرهم ، فوجدوا أنفسهم في ضنك عظيم ، وحصار شديد . وقد أيقنوا بانقطاع المدد عنهم واستيلاء المسلمين على أطراف الشام ومدُنِهَا الكبار ، وأنهم مأخوذون لا محالة ، وخافوا إذا سلموا المدينة للمسلمين ألا يصالحوهم على ماصولح عليه أهل المدن الأخرى لكثرة ما لاقى المسلمون في حربهم من العناء ومابذلوا في قتالهم من الدماء . وقد خافوا على كنيستهم العظمى أن ينزعها منهم المسلمون ، فأخذ الروع بقلوب أهل بيت المقدس ، فرأوا توكيدًا للأمان ، وتوثيقًا لعرى العهد أن يباشروا ذلك مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فطلبوا من الأمراء حضوره بنفسه . ثم ظهر بطريرقهم سفرونيوس على الأسوار طالبًا التسليمَ ، على أن يكون المتولي للصلح الخليفة عمر بن الخطاب .

فكاتبه الأمراء في ذلك فرضي عمر ورحل إلى الجابية ، وكتب لأهل إيلِيَاء كتابًا أشهد فيه قواد المسلمين ، كما كتب إلى سائر كور فلسطين كتابًا أورد الطبري صورته . وكان فتح إيلِيَاء في سنة (١٦هـ) ، أو في أواخر سنة (١٥هـ - ٦٣٥ م) .

غير أن عمرو بن العاص ظل مع جيشه بفلسطين للقضاء على القوة التي كانت لاتزال مع قسطنطين بن هرقل . فسار إلى قَيسَارِيَّة (قيصرية) حيث عسكر قسطنطين بجيش كثيف . وقد تغلَّبت على هذا الأمير عوامل الخوف حين علم بسقوط طبرية وهروب أبيه من أنطاكية ، وتوهم أن عمرو بن العاص اخترق أسوار المدينة ، فانسلَّ من قصره هو وأسرته خِفْية ، ورحل إلى القسطنطينية كما رحل أبوه من قبل ، ولما علم الأهلون بهروب أميرهم سلَّموا لعمرو .

ضعف سلطان الروم من البلاد السورية بعد حروب طويلة لاقى المسلمون فيها المشاق والأهوال ، وقاسوا طويلًا من شدة بردها ، وقتل من جندهم عدد كبير لا سيما في مواقع اليرموك ودمشق وبيت المقدس وحلب ، حتى بلغ عدد من قتل منهم أكثر من خمسة وعشرين ألفًا مما جعل ثمن هذه البلاد عليهم غاليًا والدماء الغزيرة التي أهدرت في فتحها غزيرة . [ا هـ تاريخ الإسلام السياسي] .

* * *

فتح مصر

حالة مصر قبل الفتح :

لكي نقف على مبلغ السهولة التي تم بها فتح مصر على أيدي العرب ، ينبغي أن نتعرف حالة هذه البلاد من الناحيتين الدينية والسياسة .

كانت مصر إحدى الولايات الرومانية ، وكانت - كغيرها من الولايات -تدين بالدين الوثني ، إلى أن وُلِدَ المسيح عليه السلام في عهد (الإمبراطور أغسطس قيصر) مؤسس الإمبراطورية الرومانية ، على أثر انتصاره على جيوش أنطنيوس وكيلوبطرة سنة ٣١ ق م . فأخذت نقم الأباطرة الرومان تتوالى على الوثنيين الذين اعتنقوا هذا الدين الجديد ، وظلوا على ذلك إلى أن اعترف الإمبراطور قسطنطين : (٣٠٦ : ٣٣٧) بالدين المسيحي ، وساوى بين المسيحية وغيرها من الأديان (٣٢٣ م) ، وأعطى المسيحيين بعض الامتيازات إلى أن جعل الإمبراطور تيودوسيس (٣٧٨ : ٣٩٥ م) المسيحية الدين الرسمي للدولة في سنة (٣٨١ م) .

بعد ذلك أخذت النقم تتوالى على الوثنيين بعد أن كانت تتوالى على المسيحيين ، على أن المسيحيين ما كادوا يتخلصون من الاختلافات الدينية حتى وقعوا في الاختلافات المذهبية ، ونشأ عن ذلك ما يعرف بالمذهب الأرثوذكسي والمذهب الكاثوليكي وغيرهما من المذاهب . وكان هذا الاختلاف سببًا في انتشار البؤس والشقاء بين المصريين .

فقد استولى الرومان على مصر سنة (٣٠ ق . م) ، فجعل أغسطس قيصر هذه البلاد مخزنًا يُمِد رومة بحاجتها من الغلال ، وبذلك انحطت درجة العلم والعرفان فيها ، وأغلقت أبواب المناصب العالية أمام المصريين ، وزادت الضرائب في عهد الرومان زيادة كبيرة حتى شملت - كما يقول المؤرخ « **ملن** » - الأشخاص و الأشياء . فكانت تجبى على الرؤوس والصناعات ، وعلى الماشية و الأراضي ، ولم تكن مقصودة على أنواع خاصة من البضائع ، بل كانت تجبى على المارة رجالًا ونساء - تجارًا وغير تجار - ومن صناع السفن ، ومن زوجات الجنود وعلى أثاث المنازل . ولم تقتصر تلك الضرائب على الأحياء بل تعدتها إلى الموتى ، حتى إنه كان لا يسمح بدفن الميت إلا بعد أن دفع ضريبة معينة .

وقد أُلزم المصريون بإيواء من يمر بهم من الموظفين الملكيين والعسكريين من الرومان وتقديم ما يلزمهم من الحاجات ، وتوفير أسباب الراحة لهم في حلهم وترحالهم ، كما ألزموا في السنن الأخيرة بأن يقوموا بغذاء الجنود .

وقد أدت هذه الأعباء إلى ضعف المصريين وخمولهم وازداد سخطهم على الحكم الروماني ، كما كان للاختلافات الدينية نتائج لا يستهان بها ، ومهدت السبيل لاستيلاء الفرس على مصر فترة من الزمن ثم لاستيلاء العرب عليها . لذلك لا تعجب إذا أصبح المصريون يتطلعون لدولة أخرى تخلصهم من هذه الحالة السيئة وترفع عنهم تلك المظالم . وقد سرَّهم ما علموه من استيلاء العرب على الشام ، كما سرَّهم ما سمعوه من حُسْن سيرتهم في البلاد التي فتحوها ، وتمنوا أن يكون خلاصهم من ظلم الرومان على يد المسلمين .

مسيرة عمرو إلى مصر :

لما قدم عمر بن الخطاب الجابية من أعمال دمشق سنة (١٨هـ ، ٦٣٩ م) . أتى إليه عمرو بن العاص ، وكان من القواد الأربعة الذين ندبهم أبو بكر لفتح الشام وفلسطين ، وقال له : « **ائذن لي في السير إلى مصر** » وذكر له أنها أكثر الأرض أموالًا ، وقال له : « **إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونًا لهم** » . فتردد الخليفة في الأمر ، وأشفق على المسلمين أن يصيبهم الإخفاق . ولم يستطع أن يجمع لفتح هذه البلاد جيشًا كبيرًا لتفرق جند المسلمين في الشام والجزيرة فارس . أضف إلى ذلك ما كان يخشاه عمر من التوسع في الفتح ، وخاصة أن أقدام المسلمين لم تثبت بعدُ في البلاد التي فتحوها . ولم يزل عمرو يُهَوِّن عليه فتحها ويعظم أمرها طمعًا فيها ورغبة في خيراتها ؛ لأنه وقف بنفسه على أحوالها في الجاهلية عند قدومه إليها للتجارة عدة مرات ، وعرف خصب أرضها ووفرة خيراتها . كما بين لعمر أن استيلاء المسلمين عليها معناه تثبيت فتوحهم في الشام وفلسطين وتأمينها من ناحية الجنوب ، وأن بقاءها في يد الروم يعرض سيادة العرب في بلاد الشام لأخطار كثيرة ، ومازال بعمر حتى أذن له بقصدها وعقد له على أربعة آلاف رجل .

ولما أمر عمر عمرو بن العاص بالمسير قال له : « **إني مرسل إليك كتابًا فإن أدركك وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئًا من أرضها فانصرف ، وإن دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره** » . ويقال : إن كتاب عمر : وصل إلى عمرو وهو برفح ، فلم يتسلمه من الرسول حتى قرب من العريش ، فأخذ الكتاب وقرأه على أصحابه ، فإذا عمر يأمره فيه بالانصراف إن لم يكن قد دخل أرض مصر ، ثم أمر الجيش بالمسير على بركة الله .

سار عمرو بجنده مخترقًا رمال سيناء حتى وصل إلى العريش سنة (١٨ هـ) ، وفتحها من غير مقاومة ؛ لأن حصونها لم تكن من المتانة بحيث تقف في وجه العرب

زمنًا طويلًا ، ثم لعدم وجود حامية رومانية بها ثم غادر عمرو العريش مخترقًا الطريق الذي يسلكه المهاجرون و الفاتحون والتجار و الحجاج و السائحون منذ أقدم العصور . وهو طريق إبراهيم عليه السلام عندما سار إلى بلاد العرب بابنه إسماعيل ، وطريق يوسف عليه السلام عندما سار من الشام إلى مصر زمن الفراعنة ، وطريق قمبيز ملك فارس حين سار لغزو مصر ، والاسكندر المقدوني الذي مَدَّ فتوحه إلى الهند ، ولم يشتبك عمرو مع جند الروم في قتال حتى وصل إلى مدينة « **الفارما** » ، وهي مدينة قديمة العهد ذات حصون قوية وكنائس وأديار ،وكان لها ميناء على البحر يصل إليها جدول من ماء النيل ، وكانت بمثابة مفتاح مصر في ذلك الزمن ، ولما فتح الفرس مصر خربوا أسوارها وهدموا بعض كنائسها . وكان الروم قد رمموا ما دمره الفرس في أثناء غزوهم لمصر ، فعادت هذه الأسوار منيعة على المغيرين . واضطر المسلمون إلى حصارها أكثر من شهر ثبتوا فيه حتى تم لهم فتحها في منتصف يناير سنة ٦٤٠م (أول المحرم سنة ١٩ هـ) . وقد أجمع المؤرخون على أن القبط كانوا أعوانًا للعرب على حصار « **الفارما** » .

تقدم عمرو حتى وصل إلى بِلْبيس ، مارًّا في طريقه بأرض مغطاة بقشور الصدف البيضاء التي استحالت اليوم إلى رمال ، ثم بمدينة مجدل ، وتلي الفارما في الصحراء على مقربة من ساحل البحر الأبيض إلى الجهة المعروفة بالقنطرة الواقعة على قناة السويس الحالية . ثم أخذ في السير إلى الصالحية فوادي الطليمات بقرب التل الكبير . وإنما اختار عمرو هذا الطريق لخلوه من المستنقعات ، بخلاف الطريق الآخر الذي كان يسلكه معظم الفاتحين ، ولما وصل عمرو إلى بلبيس وجد بها الأرطبون ، وكان قد فر إلى مصر قبل تسليم بيت المقدس لعمر بن الخطاب ، فهزمه عمرو واستولى على المدينة بعد شهر لم ينقطع فيه القتال ، ويقال : إن ابنة المقوقس حاكم مصر من قِبَل الروم كانت بها حين فتحها المسلمون ، فأرسلها عمرو إلى أبيها معززة مكرمة ، مما أكسب المسلمين محبة القبط ، فحسن رأيهم فيهم وفي حكمهم .

وبعد استيلاء عمرو على بلبيس سار إلى « **تندونياس** » التي سماها العرب فيما بعد « **أم دنين** » ، ثم سميت « **المَقْس** » ، وهنا نشب القتال بين المسلمين والبيزنطيين ، ودام القتال عدة أسابيع ، ولما أبطأ الفتح على عمرو كف عن القتال وأرسل إلى عمر يطلب منه المدد ، فأمده بأربعة آلاف ، على رأسهم أربعة من كبار الصحابة هم : الزبير بن العوام ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مُخلد ، و المقداد بن الأسود . وكتب الخليفة لعمرو : قد أمددتك بأربعة آلاف فيهم رجال الواحد منهم بألف رجل .

ولما وصل المدد إلى عين شمس ، سار عمرو لملاقاته ، وتقدم تيودور قائد الروم في عشرين ألفًا ، فوضع له عمرو كمينًا في الجبل الأحمر شرقي العباسية ، وآخر على النيل قريبًا من أم دنين ولاقاه ببقية الجيش ، ولما نشب القتال بين الفريقين خرج الكمين الذي كان في الجبل الأحمر وانقض على الروم ، فاختل نظامهم وعرجوا على أم دنين ، فقابلهم الكمين الذي كان بقرب أم دنين ، فأصبحوا بين جيوش العرب الثلاثة وحلت بهم الهزيمة ، ولم يبق منهم إلا عدد قليل ، سار بعضهم في النيل وفر البعض الآخر إلىحصن بابليون .

فتح حصن بابليون :

ثبتت قدم عمرو في أم دنين وعين شمس التي صارت مركزًا لقيادته الحربية ، ولم يبقى أمامه سوى حصن بابليون ، فسار إليه وحاصروه سنة ٢٠هـ ، وكان ذلك وقت فيضان النيل . وطال أمد الحصار إلى سبعة أشهر لمناعة أسوار المدينة وقلة معدات الحصار عند العرب .

وبعد شهور رأى المقوقس الجد من المسلمين وصبرهم على القتال ، وأنهم سوف يقتحمون الحصن بصبرهم وشجاعتهم . فخرج هو ونفر من قومه ولحقوا بجزيرة الروضة ، وأرسل إلى عمرو يطلب منه الصلح ، وقال له في كتاب أرسله إليه : « **قد جئتم أرضنا وطال مقامكم فيها ، وأنتم عصبة يسيرة ، وأخشى أن تغشاكم الروم فتندموا ، فابعثوا إلينا رجالًا منكم نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتي الأمر بيننا على ما نحب وتحبون** » . ولما أتت رسل المقوقس إلى عمرو ، أبقاهم عنده يومين حتى خاف عليهم المقوقس . ثم قال لهم عمرو : ليس بيننا وبينكم إلا إحدى خصال ثلاث .

١ - إما دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا وعليكم ما علينا .

٢ - وإن أبيتم فالجزية عن يد وأنتم صاغرون .

٣ - وإما القتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو أحكم الحاكمين .

ولما عاد الرسل إلى المقوقس سُرَّ بلقائهم وسألهم عن حال المسلمين فأجابوا : رأينا قومًا الموت أحب إليهم من الحياة ، و التواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، جلوسهم على التراب وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف كبيرهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم .

وقد أرهب المقوقس هذا الحديث ، فأشار على قومه بطلب الصلح ، وأرسل إلى

المسلمين أن يبعثوا إليه رسلًا للمفاوضة في الصلح فبعث عمرو عشرة رجال فيهم عبادة ابن الصامت ، وأمره أن يكون هو المتكلم ، ودارت المحادثات بين الطرفين ، وسلك المقوقس طريق الإرهاب المصوغ في قالب النصيحة ، وألحَّ على عبادة وأصحابه أن يجيبوه إلى خصلة غير هذه الثلاث ، فرفع عبادة يديه وقال: لا - ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شيء - ما لكم عندنا خصلة غيرها ، فاختاروا لأنفسكم . فقال المقوقس لقومه : « **أطيعوني وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث . فواللّه ما لكم بهم من طاقة ، وإن لم تجيبوا إليهم طائعين ، لنجيبنهم إلى ماهو أعظم من هذه كرهًا** » .

ولما كتب المقوقس بذلك إلى هرقل رد عليه يوبخه ويُحقِّر من قوة المسلمين ، وكتب بمثل ذلك إلى قواد الروم الذين مع المقوقس ، فأعادوا الكرة على المسلمين ونبذوا صلحهم . أما المقوقس فإنه لم يعبأ بهرقل ، بل أعلم عمرو بن العاص أنه لم يخرج عما عاقده عليه ، وأن القبط موفون له ما صالحهم عليه .

وتحدثنا المصادر العربية أن عمرًا طلب من المقوقس أن يضمن له الجوار ويقيم للمسلمين الأنزال والضيافة بين الفسطاط والإسكندرية ، فقبل وصار القبط أعوانًا للمسلمين . وقد عد مؤرخو الفرنجة هذا العمل خيانة من المقوقس .

فتح الإسكندرية :

كانت الإسكندرية عند استيلاء العرب على مصر ، قصبة الديار المصرية وثانية حواضر الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بعد القسطنطينية) ، وأول مدينة تجارية في العالم . وقد أيقن الروم أن سقوط هذه المدينة في أيدي العرب يؤدي حتمًا إلى زوال سلطانهم من مصر . لذلك بادر الإمبراطور إلى إرسال الجيش إليها ونشطوا للدفاع عن المدينة وأغلقوا أبوابها وتحصنوا فيها .

سار عمرو إلى هذه المدينة ، وفتح في طريقه طرنوط ثم نَقْيوس ، ثم سُلْطَيس ثم الكربون ، وهي آخر حلقة في سلسلة الحصون الرومانية التي كانت تمتد من بابليون إلى الإسكندرية ، وقد تحصن فيها تيودور قائد الحصن الروماني وقاتل المسلمون قتالًا شديدًا . ولما دارت الدائرة عليه ولى هو وفلول جيشه الأدبار حتى وصلوا إلى الإسكندرية . وكان على المقدمة عبد اللّه بن عمرو بن العاص ، وحامل اللواء وردان مولى عمرو .

وصلت فلول الروم إلى الإسكندرية . وتحصنوا بها ، وكانت منيعة حصينة وقد عني الروم بتحصينها كما عني البطالسة من قبلهم لتقوى على رد غارات الأعداء ، وصد هجمات الفاتحين . وكانت الأمداد تأتي إليها من الروم باستمرار ، ولم تقل حاميتها عن

خمسين ألف جندي مزودين بالمؤن الوفيرة والعدد الكثير ة ، على حين بلغ جند العرب نحو اثني عشر ألفًا ، وظل عمرو وجنوده يردون غارات الأعداء ويقابلون هجمات الروم نحوًا من أربعة أشهر ، فأقلق هذا الخليفةَ عمر ، فبعث إلى عمرو كتابًا يلومه فيه هو والمسلمين ، فقرأ عمرو الكتاب وعقد لعبادة بن الصامت وولاه قتال الروم ، ففتح اللّٰه الإسكندرية على يديه وتم هذا الفتح عنوة ولكن عمرًا جعل أهلها ذمة على أن يخرج من يخرج ويقيم من يقيم باختيارهم . شأن العرب مع أهالي معظم البلاد التي فتحوها . وإنما عامل عمرو المصريين معاملة من فتحت بلادهم صلحًا ليستجلب محبتهم .

ويتلخص الصلح الذي عقده المقوقس مع العرب فيما يلي :

١ – أن يدفع كل من فرضت عليه الجزية دينارين كل سنة .

٢ – المهادنة أحد عشر شهرًا .

٣ – احتفاظ العرب بمركزهم مدة الهدنة وألا يباشروا أعمالًا حربية ضد الإسكندرية ، وأن يكف جند الروم عن الأعمال العدائية .

٤ – ألا يتعرض المسلمون للكنائس بسوء ، وألا يتدخلوا في أمور المسيحيين .

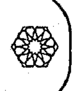
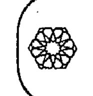
٥ – أن ترحل الحامية التي بها مع ما يملكون من أموال وأمتعة وأن يدفعوا الجزية عن شهر عند رحلتهم .

٦ – بقاء اليهود بالإسكندرية .

٧ – ألا يعود أو يحاول استردادَ مصر جيشٌ رومي .

٨ – أن يكون عند المسلمين من الروم ١٥٠ جنديًا وخمسين ملكيًا رهينة لتنفيذ هذه المعاهدة .

* * *

أثر فتح مصر
معاملة العرب للمصريين

لم يشتط العرب في معاملة القبط بل عاملوهم بمنتهى اللين ، فخيروهم بين الإسلام والبقاء على دينهم . فمن أسلم منهم صار له ما للمسلمين من الحقوق وعليه ما عليهم من الواجبات ، ومن بقي على دينه فرضت عليه جزية صغيرة مقدارها ديناران على من بلغ الحلم منهم ، واستثنوا النساء و الشيوخ والأطفال . أضف إلى ذلك رفع الاضطهاد عنهم وعدم تحميلهم ما لا يطيقون ، وبهذه الطريقة أتيح لعمرو تنفيذ أوامره على أهون سبيل ، وكان عمرو يضع مصلحة المصريين نصب عينيه ، ولم يأل جهدًا في اكتساب محبتهم فدانوا له بالطاعة وأحبوا ولايته .

وقد أطلق العرب الحرية الدينية للقبط يؤيد ذلك ما فعله عمرو بعد استيلائه على حصن بابليون ؛ إذ كتب بيده عهدًا للقبط بحماية كنيستهم ولعن كل من يجرؤ من المسلمين على إخراجهم منها ، وكتب أمانًا للبطريق بنيامين ، ورده إلى كرسيه بعد أن تغيب عنه زهاء ثلاث عشرة سنة ، وأمر عمرو باستقبال بنيامين عندما قدم الإسكندرية أحسن استقبال ، وألقى بنيامين على مسامع عمرو خطابًا بليغًا ضمنه الاقتراحات التي رآها ضرورية لحفظ كيان الكنيسة ، فتقبلها عمرو ، ومنحه السلطة التامة على القبط ، والسلطان المطلق لإدارة شئون الكنيسة ، وقد لاحظ (بتلر) أن عودة بنيامين إلى عرش الكنيسة كفاها شر الوقوع في أزمة خطيرة .

وإن الخطبة البليغة التي ألقاها باسيلي – أسقف نقيوس بدير مقاريوس – لخير شاهد على أن القبط أصبحوا بعد الفتح الإسلامي في غبطة وسرور لتخلصهم من عسف الروم . يدل على ذلك رد بنيامين على باسيلي بقوله : « **لقد وجدت في مدينة الإسكندرية النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما بعد الاضطهادات والمظالم التي قام بتمثيلها الظلمة المارقون** » . من هذه الكلمات التي فاه بها البطريق يتجلى مبلغ الطمأنينة التي شعر بها المصريون في عهد عمرو .

ومما يدل أيضًا على حسن سياسة العرب في مصر أنهم لم يفرقوا بين الملكانية واليعاقبة من المصريين الذين كانوا متساوين أمام القانون والذين أظلهم العرب بعدلهم وحموهم بحسن تدبيرهم . يقول سيرتوماس أرنولد : « **يرجع النجاح السريع الذي أحرزه غزاة العرب قبل كل شيء إلى ما لاقوه من ترحيب الأهالي المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطي ، لما عرف من الإدارة الظالمة ، وما أضمروه من حقد مرير على علماء اللاهوت : فإن اليعاقبة الذين كانوا يُكوِّنون السواد الأعظم من السكان المسيحيين عوملوا معاملة مجحفة من أتباع المذهب الأرثوذكسي التابعين للبلاط ، الذين ألقوا في قلوبهم بذور السخط والحنق اللذان لم ينسهما أعقابهم حتى اليوم** » .

وقد ترك العرب الأرض للمصريين ، وأخذوا على عاتقهم حمايتهم وأمَّنوهم على أنفسهم ونسائهم فشعروا براحة كبيرة لم يعهدوها منذ زمن طويل .

ولم تقتصر أعمال العرب على ذلك ، بل إنهم أعادوا الأمن والنظام إلى البلاد وقاموا بالإصلاحات العظيمة ، فنظموا الإدارة ونصَّبوا القضاة ورسموا خطة جباية الخراج ، وعنوا عناية كبرى بالأعمال الخاصة بهندسة الري من قرى الخلجان وبناء مقاييس للنيل ، وإنشاء الأحواض و القناطر والجسور . وكان من أثر هذه الإصلاحات أن تحسنت حال القبط وزادت ثروتهم ويَنسب إلى العرب بعضُ المؤرخين خطأً أو عن سوء قصد إحراق مكتبة الإسكندرية .

مكتبة الإسكندرية :

خاض بعض المتأخرين من المؤرخين في مسألة إحراق مكتبة الإسكندرية ، فنسبها بعضهم إلى عمرو بن العاص وزعموا أن عمر بن الخطاب أمره بإحراقها . وناقش هذه المسألةَ كثيرٌ من الفرنجة مثل : جبون ، وبتلر ، وسديو ، وجوستاف ليبون ، وغيرهم . ولكنهم لم يجزموا برأي فيها ، بل ارتابوا في صحة تهمة إحراق هذه المكتبة التي وجهت إلى عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب ، وقالوا : إنها تخالف التقاليد الإسلامية ، ولا يؤيدها أحد من المؤرخين المعاصرين للفتح الإسلامي مثل (أوتيخا) الذي وصف فتح مصر بإسهاب ، ولم يرد في تاريخه ولا في تاريخ غيره من معاصريه ذِكر لهذه التهمة . كذلك لم ترد في تاريخ الأقدمين . كاليعقوبي ، والبلاذري ، وابن عبد الحكم ، و الطبري ، و الكندي ، ولا في تاريخ من جاء بعدهم وأخذ منهم : كالمقريزي ، وأبي المحاسن ، والسيوطي وغيرهم .

وأول من نسب الحريق إلى عمرو هو عبد اللطيف البغدادي (٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م) ، وجاء بعده ابن القفطي (٦٤٦هـ / ١٢٤٨ م) وأبو الفرج الملطي (٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) ، على أنه لا يمكننا أن نلقي التبعة على ابن القفطي وأبي الفرج ؛ لاحتمال أن يكونا قد أخذا هذه المقالة عن عبد اللطيف البغدادي الذي رمى عمرًا بهذه التهمة ولم يَذكر لنا من أي تاريخ أَخذ ولامن أي مصدر استقى ، بل ذكرها عرضًا في سياق كلامه عن عمود السواري ، وإنما تلقف ذلك من ألسنة العوام . فالتبعة واقعة إذًا على عبد اللطيف البغدادي لا على ابن القفطي وأبي الفرج ، إذا فرض أن عبد اللطيف هو أول من ذكر هذه المسألة .

وقد دلل المؤرخون الذين ذهبوا إلى القول بإن إحراق مكتبة الإسكندرية كان على يد عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب .

١ - بأن المسلمين كانت لهم رغبة عظيمة في محو كل كتاب غير القرآن والسنة .

٢ - وأنهم أحرقوا مكاتب الفرس عند فتح بلادهم ، كما ذكر ذلك حاجي خليفة

في كتابه « **كشف الظنون** » .

٣ – وأن هذه الرواية – والتي تثبت الحريق – لم يروها أبو الفرج الملطي ، بل رواها أيضًا مؤرخان مسلمان هما : عبد اللطيف البغدادي وابن القفطي .

٤ – وأن إحراق الكتب كان أمرًا معروفًا وشائعًا يتشفى به كل مخالف ممن خالفه في رأيه .

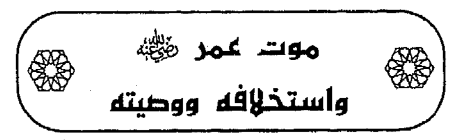
وقد ذكروا أن عبد اللّٰه بن طاهر أتلف في سنة (٢١٣ هـ) كتبًا فارسية من مؤلفات المجوس ، وحذا حذوه « **هولاكو** » التتاري سنة (٦٥٦ هـ) بإلقاء خزائن الكتب في دجلة .

أما الدليل الأول : فغير مسلم به ؛ لأن المعروف من أخلاق المسلمين أنهم كانوا يشجعون العلم ، بدليل ما ذكره أبو الفرج من أن عمرو بن العاص كان يصغي إلى أقوال يوحنا النحوي ويعجب بها كل الإعجاب ، ويحله من نفسه محل الاحترام والإجلال . ومن المعلوم أن هذه الآراء مسيحية . أضف إلى ذلك أن المسلمين بعد غزوة بدر كانوا يجعلون فداء من لم يجد مالًا يفتدي به نفسه أن يُعلِّم عشرة من صبيان المسلمين ، وهذا منتهى التشجيع للعلم .

أما الدليل الثاني : وهو أنهم أحرقوا مكتبة الفرس عند الفتح فلم نر من المؤرخين من ذكره إلا حاجي خليفة ، ومثل هذا المؤرخ لا يؤخذ بكلامه ولا يعول عليه في المسائل التاريخية المتقدمة ؛ لأنه توفي سنة (١٠٦٧ هـ – ١٦٥٧ م) ، فلو أن المسلمين أحرقوا هذه المكتبات لذكر ذلك المؤرخون الذين تقدموا حاجي خليفة .

أما الدليل الثالث : وهو أن أبا الفرج لم يرو هذه الرواية وحده ، بل رواها أيضًا عبد اللطيف البغدادي وابن القفطي ، وهما مؤرخان إسلاميان عظيمان ، فيمكن دحضه بما أوردناه في مناقشة ما ذكره أبو الفرج ؛ لأنهم عاشوا في عصر ، وروايتهم واحدة تقريبًا . ولايبعد أن يكونوا قد أخذوا عن مصدر ضائع مضاد للعرب والإسلام .

وأما الدليل الرابع : فلا يثبت دعواهم ؛ لأنه على فرض صحة هذه الرواية ، فإن عبد اللّٰه بن طاهر كان متأخرًا (٢١٣ هـ) . ولا يؤخذ عمله حجة على عمر بن الخطاب المتوفى سنة (٢٣ هـ) . هذا إلى أن عبد اللّٰه بن طاهر أحرق هذه الكتب ؛ لأنها من كتب المجوس عُبَّاد النار ، وفرق بين الكتب المسيحية و المجوسية في نظر المسلمين الذين يحترمون أهل الكتاب من النصارى واليهود ، لاتفاق الجميع على غاية واحدة هي الاعتراف بإله قادر ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤، ٦٥] .



موت عمر رضي الله عنه واستخلافه ووصيته

عن سعيد بن المسيب : أن عمر لما أفاض من مِنًى أناخ بالأبطح فكوَّم كومة من بطحاء وطرح عليها طَرَف ثوبه ثم استلقى عليها ورفع يديه إلى السماء وقال : اللهم كبِرت سني وضعفت قوتي وانتشرت رعيتي فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط .

وعن سعيد بن أبي هلال : أنه بلغه أن عمر بن الخطاب خطب الناس يوم الجمعة فحمد اللّه ، وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أما بعد : أيها الناس إني أُريت رؤيا لا أُراها إلا لحضور أجلي ، رأيت أن ديكًا أحمر نقرني نقرتين ، فحدثتها أسماء بنت عميس فحدثتني أنه يقتلني رجل من الأعاجم .

وعن عمرو بن ميمون قال : جئت فإذا عمر واقف على حذيفة وعثمان بن حنيف وهو يقول : تخافان أن تكونا حمَّلتما الأرض ما لا تُطيق ، فقال عثمان : لو شئتُ لأضعفت أرضي ، وقال حذيفة : لقد حمَّلتُ الأرض أمرًا هي له مطيقة وما فيها كبير فضل ، فجعل يقول : انظروا ما لديكما أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق ثم قال : واللّه لئن سلمني اللّه لأدعن أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى أحد بعدي أبدًا . قال : فما أتت عليه إلا رابعة حتى أصيب وكان إذا دخل المسجد قام بين الصفوف ثم قال : استووا فإذا استووا تقدم فكبر ، فلما كَبَّر طُعِن ، قال : فسمعته يقول : قتلني الكلب ، أو أكلني الكلب ، ما أدري أيهما قال : وطار العِلْج في يده سكين ذات طرفين ما يمر برجل يمينًا ولا شمالًا إلا طعنه ، فأصاب ثلاثة عشر رجلًا من المسلمين ، فمات منهم تسعة ، قال : فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه بُرنُسًا له ليأخذه فلما ظن أنه مأخوذ نحر نفسه . قال : وما كان بيني وبينه يعني عمر حين طعن إلا ابن عباس ، فأخذ بيد عبد الرحمن بن عوف فقدمه فصلوا الفجر يومئذ صلاة خفيفة . قال : فأما نواحي المسجد فلا يدرون ما الأمر إلا أنهم حين فقدوا صوت عمر جعلوا يقولون : سبحان اللّه سبحان اللّه ! قال فلما انصرفوا كان أول من دخل على عمر ابن عباس فقال : انظر من قتلني ؟ فخرج ابن عباس فجال ساعة ثم أتاه فقال : غلام المغيرة ابن شعبة الصَّنَّاع . قال : وكان نجارًا ، قال : ما له قاتله اللّه ؟ و اللّه لقد كنت أمرت به معروفًا . ثم قال : الحمد للّه الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يُدعى إلى الإسلام ، ثم قال لابن عباس : لقد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة ، فقال ابن عباس : إن شئت فعلنا ، فقال : أبعد ما تكلموا بكلامكم وصلوا بصلاتكم ونسكوا

نُشكِّكُمْ ؟ فقال له الناس : ليس عليك بأس ، فدعا بنبيذ فشربه فخرج من جرحه ، ثم دعا بلبن فشربه فخرج من جرحه ، فلما ظن أنه الموت . قال : يا عبد اللَّه بن عمر انظر كم عليَّ من الدَّين ؟ قال : فحسبه فوجده ستة وثمانين ألف درهم ، قال : يا عبد اللَّه ، اذهب إلى عائشة أم المؤمنين فقل لها : يقرأ عليك عمر السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين ، فإني لست لهم اليوم بأمير ، يقول : تأذنين له أن يُدْفَنَ مع صاحبيه ؟ فأتاها ابن عمر فوجدها قاعدة تبكي فسلم عليها ثم قال : يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه ، فقالت : قد واللَّه كنت أريده لنفسي ولأُوثِرنَّه به اليوم على نفسي ، فلما جاء قيل : هذا عبد اللَّه بن عمر ، فقال عمر : ارفعاني ، فأسنده رجل إليه فقال : مالديك ؟ فقال : أَذِنتْ لك . قال عمر : ما كان شيء أَهَمَّ إليَّ من ذلك المضجع ، يا عبد اللَّه بن عمر انظر إذا أنا مت فاحملني على سريري ثم قف بي على الباب فقل : يستأذن عمر بن الخطاب ، فإن أَذِنَت لي فأدخلني ، وإن لم تَأْذَنْ لي فادفني في مقابر المسلمين ، فلما حُمِلَ فكأن المسلمين لم تصبهم مصيبة إلا يومئذ ، قال : فأذنت له فَدُفِنَ ﷺ حيث أكرمه اللَّه مع النبي ﷺ وأبي بكر ، وقالوا له حين حضره الموت : اسْتَخْلِف ، فقال : لا أجد أحدًا أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول اللَّه ﷺ وهو عنهم رَاضٍ ، فأيهم اسْتُخْلفَ فهو الخليفة من بعدي ، فسمي عليًّا وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعدًا ، فإن أصابت سعدًا ، فذاك وإلا فأيهم اسْتُخْلِفَ فَلْيُسْتَعَنْ به ، فإني لم أَعْزِلْهُ عن عَجْزٍ ولا خيانة .

قال : وجعل عبد اللَّه معهم يشاورونه وليس له من الأمر بشيء ، قال : فلما اجتمعوا قال عبد الرحمن : اجعلوا أمركم إلى ثلاثة نفر منكم ، فجعل الزبير أمره إلى عَلِيٍّ ، وجعل طلحة أمره إلى عثمان ، وجعل سعد أمره إلى عبد الرحمن ، فَأْتَمَرَ أولئك الثلاثة حين جُعِلَ الأمر إليهم ، فقال عبد الرحمن : أيكم يبرأ من الأمر ويجعل الأمر إلَيَّ ولكم اللَّه على ألا آلُوكُمْ عن أفضلكم وخيركم للمسلمين ، فأسكت الشيخان عَلِيٌّ وعثمان ، فقال عبد الرحمن : تجعلانه إليَّ وأنا أخرجُ منها فو اللَّه لا آلوكُمُ عن أفضلكم وخيركم للمسلمين ، قالوا : نعم ، فَخَلَا بعليٍّ فقال : إن لك من القرابة من رسول اللَّه ﷺ والْقِدَم ، واللَّه عليك لئن اسْتُخْلِفْتَ لَتَعْدِلَنَّ ولئن اسْتُخْلِفَ عثمان لَتَسْمَعَنَّ ولَتُطِيعَنَّ ، فقال : نعم ، قال : وخلا بعثمان ، فقال مثل ذلك ، قال : فقال عثمان : فنعم ، قال فقال : ابْسُطْ يدك يا عثمان ، فبسط يده فبايعه عَلِيٌّ والناس .

ثم قال عمر : أُوصِي الخليفة من بعدي بتقوى اللَّه والمهاجرين الأولين أن يَحْفَظَ لهم

حقهم وأن يعرف لهم حُرْمَتَهُمْ ، وأوصيه بأهل الأمصار خيرًا فإنهم رِدْءُ الإسلام وغَيظُ العدو وجُبَاةُ المال أن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضى منهم ، وأوصيه بالأنصار الذين تبوأوا الدار والإيمان أن يقبل من محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم ، وأوصيه بالأعراب خيرًا فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام ، وأن يؤخذ من حواشي أموالهم فَيُرَدُّ على فقرائهم ، وأوصيه بذمة اللَّه وذمة رسوله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم وأن لايُكَلَّفُوا إلا طاقتهم ، وأن يقاتل مَن وراءهم .

وعن أبي الحُوَيْرِث قال : لما قدم غلام المغيرة بن شعبة ضرب عليه عشرين ومائة درهم كل شهر ، أربعة دراهم كل يوم . قال : وكان خبيثًا إذا نظر إلى السَّبْي الصغار يأتي فيمسح رؤوسهم ويبكي ، ويقول : إن العرب أكلت كَبِدِي . فلما قدم عمر من مكة جاء أبو لؤلؤة إلى عمر يريده فوجده غاديًا إلى السوق وهو متكئ على يد عبد اللَّه بن الزبير ، فقال : يا أمير المؤمنين : إن سيدي المغيرة يُكَلِّفُنِي ما لا أطيق من الضريبة ، قال عمر : وكم كلَّفك ؟ قال : أربعة دراهم كل يوم ، قال : وما تعمل ؟ قال : الأَرْحَاء ، ، وسكت عن سائر أعماله . فقال : في كم تعمل الرحى ؟ فأخبره ، قال : وبكم تبيعها ؟ فأخبره ، فقال : لقد كلفك يسيرًا ، انطلق فَأَعْطِ مولاك ما سألك ، فلما ولى قال عمر : ألا تجعل لنا رَحًى ؟ قال : بلى أجعل لك رحى يتحدث بها أهل الأمصار . ففزع عمر من كلمته ، قال : وعَلِيٌّ معه ، فقال : ما تراه أراد ؟ قال : أوعدك يا أمير المؤمنين ، قال عمر : يكفينا اللَّه .

وعن عبد اللَّه بن أبي بكر بن حزم قال : كان أبو لؤلؤة من سبي نهاوند .

وعن عثمان بن عفان قال : أنا آخركم عهدًا بعمر ، دخلت عليه ورأسه في حجر ابنه عبد اللَّه بن عمر فقال له : ضع خدِّي بالأرض ، قال :فهل فَخِذِي و الأرض إلا سواء ؟ قال : ضع خَدي بالأرض ، لا أُمَّ لك ، في الثانية أو في الثالثة ، ثم شبك بين رجليه فسمعته يقول : ويلي وويل أمي إن لم يغفر اللَّه لي ، حتى فاضت نفسه .

وعن أنس بن مالك قال : أرسل عمر بن الخطاب إلى أبي طلحة الأنصاري قُبَيلَ أن يموت بساعة فقال : يا أبا طلحة كُن في خمسين من قومك من الأنصار مع هؤلاء النفر أصحاب الشورى فإنهم فيما أَحْسِبُ سيجتمعون في بيت أحدهم ، فَقُمْ على ذلك الباب بأصحابك ، فلا تترك أحدًا يدخل عليهم ولا تتركهم يمضي اليومُ الثالث حتى يُؤَمِّر أَحَدُهُمْ ،اللهم أنت خليفتي عليهم .

وعن قتادة : أن عمر بن الخطاب طُعِنَ يوم الأربعاء ومات يوم الخميس ﷺ .

طُعِن عمر بن الخطاب يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين ، ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة أربع وعشرين ، فكانت ولايته عشر سنين وخمسة أشهر وإحدى وعشرين ليلة ، وبويع لعثمان بن عفان يوم الاثنين لثلاث ليالٍ مضين من المحرم . قال : فذكرت ذلك لعثمان بن محمد الأخنسي ، فقال : ما أراك إلا قد وَهِلْتَ ، تُوُفِّيَ عمر لأربع ليال بقين من ذي الحجة وبويع لعثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة فاستقبل بخلافته المحرم سنة أربع وعشرين .

وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال : توفي عمر وهو ابن ستين سنة .

قال محمد بن عمر : وهذا أثبت الأقاويل عندنا وقد روي غير ذلك .

وعن نافع عن ابن عمر أن عمر بن الخطاب غُسِّلَ وكُفِّنَ وصُلِّيَ عليه وكان شهيدًا .

وعن ابن عمر أن عمر غُسِّلَ وكُفِّنَ وحُنِّطَ وصُلِّيَ عليه وكان شهيدًا .

وعن سعيد بن المسيب قال : لما توفي عمر نظر المسلمون فإذا صهيب يصلي بهم المكتوبات بأمر عمر ، فقدَّموا صهيبًا ، فصلى على عمر .

وعن أبي الحويرث قال : قال عمر فيما أوصى به ، فإن قُبِضْتُ فَلْيُصَلِّ لكم صهيب ، ثلاثًا ، ثم أجمعوا أمركم فبايعوا أحدكم .

وعن نافع عن ابن عمر قال : صُلِّي على عمر في مسجد رسول اللّه ﷺ .

وأخبرنا خالد بن أبي بكر قال : دُفِن عمر في بيت النبي ﷺ ، وجُعِلَ رأسُ أبي بكر عند كَتِفَي النبي ﷺ ، وَجُعِلَ رأس عمر عند حقْوَي النبي ﷺ .

وعن هشام بن عروة قال : لما سقط الحائط عنهم في زمن الوليد بن عبد الملك أخذ في بنائه فبدت لهم قَدَمٌ ففزعوا وظنوا أنها قدم النبي ﷺ ، فما وجدوا أحدًا يعلم ذلك ، حتى قال لهم عروة : ما هي قدم النبي ﷺ ، وما هي إلا قدم عمر .

وعن جابر : أن عليًا دخل على عمر وهو مُسَجًّى فقال له كلامًا حسنًا ، ثم قال : ما على الأرض أحد ألقى اللّه بصحيفته أحب إلي من هذا الْمُسَجَّى بينكم .

وعن عيسى بن أبي عطاء عن أبيه قال : قال أبو عبيدة بن الجراح يومًا وهو يذكر عمر فقال : إن مات عمر رَقَّ الإسلام ، ما أُحِبُّ أن لي ما تطلع عليه الشمس أو تغرب وإني أبقى بعد عمر ، قال قائل : ولم ؟ قال : سترون ما أقول لكم إن بقيتم ، أما هو فإن وُلِّيَ وَالٍ بعد عمر فأخذهم بما كان عمر يأخذهم به لم يُطِعْ له الناس بذلك ولم يحملوه وإن ضعف عنهم قتلوه .

وعن حذيفة قال : كان الإسلام في زمن عمر كالرجل الْـمُـقْبِل لا يزداد إلا قربًا، فلما قُتِل عمر ﷺ كان كالرجل الْـمُدْبِر لا يزداد إلا بُعْدًا .

وقال أنس بن مالك : لما أصيب عمر بن الخطاب قال أبو طلحة : ما من أهل بيت من العرب حاضر ولا باد إلا قد دخل عليهم بقتل عمر نقص .

وعن موسى بن سالم قال : حدثني عبد اللّه بن عبيد اللّه بن العباس قال : كان العباس خليلًا لعمر فلما أُصيب عمر جعل يدعو اللّه أن يُريه عمر في المنام ،قال : فرآه بعد حول وهو يمسح العرق من جبينه فقال : مَا فَعَلْت ؟ قال : هذا أَوَانُ فرغت وإن كاد عرشي لَيُهَدُّ لولا أني لقيته رؤوفًا رحيمًا .

وعن ابن عباس قال : دعوت اللّه سنة أن يريني عمر ، قال : فرأيته في المنام فقال : كاد عرشي أن يهوي لولا أني وجدت ربًّا رحيمًا . [اهـ من الطبقات الكبرى لابن سعد] .

* * *

عثمان بن عفان رضي الله عنه

البداية :

ترك عمر بن الخطاب ﷺ يوم مات دولة وإمبراطورية بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة ، فقد كانت دولة الإسلام حينئذ شاسعةَ الأطراف ثابتةَ الأركان ، صلبةَ البنيان ، أسست على التقوى وقوة الإيمان ، وظللت بالعدل و الرحمة والإحسان ، وعولج القائمون عليها بالحزم والزهد والتقشف و تقديس حقوق الإنسان .

وكان عمر ﷺ يلزم نفسه بكل ما يلزم به عماله ، وكان أشد على نفسه وأهله منهم على أنفسهم وأهليهم ،وكان حريصًا كل الحرص أن يكون مال المسلمين لكل المسلمين ، وليس لفئة من الناس دون فئة ، ولا لإنسان دون آخر مهما كان هذا الإنسان ذا مكانة في الإسلام ، أو يمت بقرابة إلى الخليفة أو أحد من أهله .

وكان عمر ﷺ من شدته في اللّٰه تخافه الشياطين ، ويهابه السلاطين ، ويفزع منه أهل الباطل أينما وجدوا في دولة .

فلما جاء عثمان ﷺ وكانت طبيعته غير طبيعة عمر ، و الفرق بينهما شاسع في أشياء كثيرة تبدلت الأمور وتغيرت الأحوال والناس دائمًا على دين حكامهم .

لقد كان عثمان ﷺ لين العريكة شديد الحياء سمحًا سهلًا كريمًا ، يأكل الطيبات ، ويلبس اللينات ، ويوسع على أهله ، وعلى المسلمين من حوله ، ويصل أقاربه ،ويراهم أولى وأحق أن يشاركوه في الحكم وإدارة دفة الدولة التي زادت اتساعًا في عهده ، وزادت خيراتها وبركاتها إبان حكمه . وكما وسع على المسلمين في الأرزاق ، وسع عليهم في حياتهم الاجتماعية ، وأعطاهم كامل الحرية في السفر والاختلاط وتكوين المجالس الخاصة والعامة .

فاندس بينهم من لم يهذبه الدين ، ولم تردعه قوة إيمان ، ومن لا يريد الخير للمسلمين ، ومن دأبه إشعال نار الفتنة ، والسعي بالفساد في الأمة .فانقلبت المعايير ، واختلت في آخر عهده الموازين ، وكان من شدة ورعه لا يؤاخذ الناس بالظنة ، ولا يرضى أن يراق دم بسببه ولو أعلن المفسدون أنهم مصممون على عزله أو قتله ، وحاصروه في داره شهرًا ، ومنعوا عنه الطعام والشراب إلا ما كان يأتيه خلسة ، وفي النهاية اقتحموا عليه داره وقتلوه .

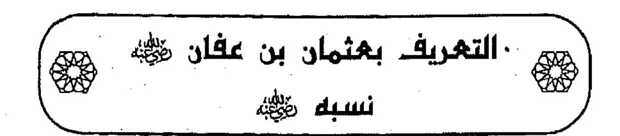
لم يرحموا شيبته وهو الذي كان بالجميع رحيمًا .

ولم يشكروه على ما أفاض عليهم وقد كانت الأرزاق في أيامه وافرة ، والأعطيات متكاثرة متتالية ، والحياة للجميع رغيدة هنية ، ولكن هذا دائمًا دأب المفسدين ، تبطرهم النعمة ، وتقسي قلوبهم الرحمة ، ويقابلون الإحسان بالكفران ،والحق الواضح بالزور والبهتان .

فرضي اللَّه عن عثمان ، وأعلى مقامه في عليين ، ورحمه اللَّه كما رحم جميع المسلمين وغير المسلمين . وجعل سيرته عبرة وعظة للمخلصين الصادقين من حكام المسلمين .

وإليك سيرته العطرة ، وخلافته الرشيدة ، وحياته الحافلة بأنواع الخيرات ، والأعمال الصالحات .

* * *



التعريف بعثمان بن عفان رضي الله عنه

نسبه رضي الله عنه

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ، وأمه أرْوَى بنت كُرَيز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ، وأمها أم حكم ، وهي البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ، وكان عثمان في الجاهلية يكنى أبا عمرو ، فلما كان الإسلام ولد له من رقية - بنت رسول اللّه ﷺ - غلام سماه عبد اللّه واكتنى به فكناه المسلمون أبا عبد اللّه ، فبلغ عبد اللّه ست سنين فنقره ديك على عينيه فمرض فمات في جمادى الأولى سنة أربع من الهجرة فصلى عليه رسول اللّه ﷺ ، ونزل في حفرته عثمان بن عفان .

* * *

صفته رضي الله عنه

كان عثمان رَبْعة أبيض ، وقيل : أسمر ، رقيق البشرة ، حسن الوجه ، عظيم الكراديس ، بعيد ما بين المنكبين ، كثير شعر الرأس ، عظيم اللحية ، يصفّرها .

وعن الحسن رضي الله عنه قال : نظرت إلى عثمان فإذا رجل حسن الوجه ، وإذا بوجنته نكاتُ (أثر قليل) جُدَري ، وإذا شعره قد كسا ذراعه .

* * *

أولاده رضي الله عنه

كان له من الولد عبد الرحمن بن رقية ، وعبد اللّه الأصغر : وأمه فاختة بنت غَزوان ، وعمرو وخالد وأبان وعمر ومريم : وأمهم أم عمرو بنت جُندب من الأزد . و الوليد وسعيد وأم سعيد : وأمهم فاطمة بنت الوليد . وعبد الملك : وأمه أم البنين بنت عيينة بن حصن . وعائشة وأم أبان وأم عمرو : وأمهن رملة بنت شيبة بن ربيعة ، ومريم : وأمها نائلة بنت الفرافصة . وأم البنين : وأمها أم ولد .

* * *

إسلامه ونبذة مختصرة عن حياته

أسلم عثمان ﷺ قديمًا على يدي أبي بكر الصديق ، وكان سبب إسلامه عجيبًا فيما ذكره الحافظ ابن عساكر ، وملخص ذلك أنه لما بلغه أن رسول الله ﷺ زوج ابنته رقية – وكانت ذات جمال – من ابن عمها عتبة بن أبي لهب – تأسف إذ لم يكن هو تزوجها ، فدخل على أهله مهمومًا فوجد عندهم خالته سعدى بنت كريز – وكانت كاهنة – فقالت له : أبشر وحييت ثلاثًا تترى ، ثم ثلاثًا وثلاثًا أخرى ، ثم بأخرى كي تتم عشرًا ، أتاك خير وَوُقيتَ شرًا ، وأُنكحت والله حَصَانًا زهرًا ، وأنت بكر ولقيت بكرًا ، وافيتها بنت عظيم قدرًا ، بنيت أمرًا قد أشاد ذكرًا . قال عثمان : فعجبت من أمرها حين تبشرني بالمرأة وقد تزوجت بغيري ، فقلت : يا خالة ، ما تقولين ؟ فقالت : عثمان لك الجمال ، ولك اللسان ، هذا النبي معه البرهان . أرسله بحقه الديان ، وجاءه التنزيل والفرقان ، فاتبعه لا تغتالك الأوثان . قال : فقلت : إنك لتذكرين أمرًا ما وقع ببلدنا . فقالت : محمد بن عبد الله ، رسول من عند الله ، جاء بتنزيل الله ، يدعو به إلى الله ، ثم قالت : مصباحه مصباح ، ودينه فلاح ، وأمره نجاح ، وقرنه نطاح ، ذلت له البطاح ، ما ينفع الصياح ، لوقوع الذباح ، وسلت الصفاح (السيوف) ومدت الرماح . قال عثمان : فانطلقت مفكرًا فلقيني أبو بكر فأخبرته ، فقال : ويحك يا عثمان إنك لرجل حازم ، ما يخفى عليك الحق من الباطل ، وما هذه الأصنام التي يعبدها قومنا ؟ أليست من حجارة صم لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع ؟ قال : قلت : بلى ! والله إنها لكذلك ، فقال : و الله لقد صدقتك خالتك ، هذا رسول الله محمد ابن عبد الله ﷺ ، قد بعثه الله إلى خلقه برسالته ، هل لك أن تأتيه ؟ فاجتمعنا برسول الله ﷺ فقال : « **يا عثمان أَجب الله إلى حقه ، فإني رسول الله إليك وإلى خلقه** » قال : فو الله ما تمالكت نفسي منذ سمعت رسول الله ﷺ أن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ثم لم ألبث أن تزوجت رقية بنت رسول الله ﷺ فكان يقال :

أحسن زوج رآه إنسان ... رقية وزوجها عثمان

فقالت في ذلك سعدى بنت كريز :

هدى الله عثمانًا بقولي إلى الهدى ... أرشده والله يهدي إلى الحق

فتابع بالرأي السديد محمدا ... وكان برأي لا يصد عن الصدق

وأنكحه المبعوث بالحق بنته ... فكانا كبدر مازجَ الشمسَ في الأفق

فداؤك يا ابن الهاشميين مهجتي وأنت أمين اللَّه أرسلت إلى الخلق

قال : ثم جاء أبو بكر من الغد بعثمان بن مظعون ، وبأبي عبيدة وبعبد الرحمن بن عوف ، وأبي سلمة بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم ، فأسلموا وكانوا مع من اجتمع مع رسول اللَّه ﷺ ثمانية وثلاثين رجلًا .

وعن يزيد بن رومان قال : خرج عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد اللَّه على أثر الزبير ابن العوام فدخلا على رسول اللَّه ﷺ فعرض عليهم الإسلام وقرأ عليهما القرآن وأنبأهما بحقوق الإسلام ووعدهما الكرامة من اللَّه ، فآمنا وصدقا ، فقال عثمان : يا رسول اللَّه قدمت حديثًا من الشام فلما كنا بين مُعَان و الزرقاء فنحن كالنيام إذا مناد ينادينا : أيها النيام هبوا فإن أحمد قد خرج بمكة فقدمنا فسمعنا بك . وكان إسلام عثمان قديمًا قبل دخول رسول اللَّه ﷺ دار الأرقم .

وهاجر عثمان إلى الحبشة أول الناس ومعه زوجته رقية بنت رسول اللَّه ﷺ ، ثم عاد إلى مكة ، وهاجر إلى المدينة ، فلما كانت وقعة بدر اشتغل بتمريض ابنة رسول اللَّه ﷺ وأقام بسببها في المدينة ، وضرب له رسول اللَّه ﷺ بسهمه منها وأجره فيها ، فهو معدود فيمن شهدها ، فلما توفيت زَوَّجه رسول اللَّه ﷺ بأختها أم كلثوم فتوفيت أيضًا في صحبته وقال رسول اللَّه ﷺ : « **لو كان عندنا أخرى لزوجناها لعثمان** » . وشهد أحدًا وفر يومئذ فيمن تولى ، وقد نص اللَّه تعالى على العفو عنهم ، وشهد الخندق والحديبية ، وبايع عنه رسول اللَّه ﷺ يومئذ بإحدى يديه ، وشهد خيبر وعمرة القضاء ، وحضر الفتح وهوازن و الطائف وغزوة تبوك ، وجهز جيش العسرة (تبوك) . وجاء عن عبد الرحمن بن خباب أنه جهزهم يومئذ بثلاثمائة بعير بأقتابها وأحلاسها ، وعن عبد الرحمن بن سمرة أنه جاء يومئذ بألف دينار فصبها في حجر رسول اللَّه ﷺ فقال ﷺ : « **ما ضر عثمان ما فعل بعد هذا اليوم مرتين** » .

وحج مع رسول اللَّه ﷺ حجة الوداع ، وتوفي وهو عنه راض ، وصحب أبا بكر فأحسن صحبته ، وتوفي وهو عنه راض ، وصحب عمر فأحسن صحبته وتوفي وهو عنه راض ، ونص عليه في أهل الشورى الستة ، فكان خيرهم . فولي الخلافة بعده ففتح اللَّه على يديه كثيرًا من الأقاليم والأمصار ، وتوسعت المملكة الإسلامية ، وامتدت الدولة المحمدية ، وبلغت الرسالة المصطفوية مشارق الأرض ومغاربها ، وظهر للناس مصداق قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم

﴿ مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ ﴾ [النور: ٥٥] .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣] .

وقوله ﷺ : « **إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله** » وهذا كله تحقق وقوعه وتأكد وتوطد في زمان عثمان ﷺ .

وقد كان ﷺ حسن الشكل ، مليح الوجه ، كريم الأخلاق ، ذا حياء كثير ، وكرم غزير ، يؤثر أهله وأقاربه في الله ؛ تأليفًا لقلوبهم من متاع الحياة الدنيا الفاني ، لعله يرغبهم في إيثار ما يبقى على ما يفنى ، كما كان النبي ﷺ يعطي أقوامًا ويدع آخرين : يعطي أقوامًا خشية أن يكبهم الله على وجوههم في النار ، ويكل آخرين إلى ما جعل الله في قلوبهم من الهدى والإيمان ، وقد تعنت عليه بسبب هذه الخصلة أقوام ، كما تعنت بعض الخوارج على رسول الله ﷺ في الإيثار ، وقد ذكرنا ذلك في غزوة حنين حيث قسم غنائمها .

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل عثمان ﷺ نذكر ماتيسر منها إن شاء الله وبه الثقة وهي قسمان :

الأولى : فيما ورد في مناقبه مع غيره .

الثانية : ما ورد من مناقبه وحده .

* * *

من مناقبه ﷺ مع غيره

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو داود - عمرو بن سعد - حدثنا بدر بن عثمان عن عبيد الله بن مروان عن أبي عائشة عن ابن عمر قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ذات غداة بعد طلوع الشمس فقال : « **رأيت قبل طلوع الفجر كأني أُعطيت المقاليد و الموازين ، فأما المقاليد فهذه المفاتيح وأما الموازيين فهي التي يوزن بها فوضعتُ في كفَّة ووضعت أمتي في كفة فَوُزِنْت بهم فرجحتُ ، ثم جيء بأبي بكر فَوُزِنَ فوزن بهم ، ثم جيء بعمر فوزن فوزن بهم ، ثم جيء بعثمان فوزن فوزن بهم ، ثم رفعت** » . [تفرد به أحمد] .

وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا هشام بن عمار حدثنا عمرو بن واقد حدثنا يونس ابن ميسرة عن أبي إدريس عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : « **إني رأيت أني وُضِعْتُ في كفة وأمتي في كفة فعدلتها ، ثم وضع أبو بكر في كفة وأمتي في كفة**

فعدلها ، ثم وضع عمر في كفة وأمتي في كفة فعدلها ، ثم وضع عثمان في كفة وأمتي في كفة فعدلها » .

وقال البخاري : حدثنا محمد بن حازم بن بزيغ حدثنا شاذان حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال : كنا في زمن النبي ﷺ (لا نعدل بأبي بكر أحدًا ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم نذر أصحاب النبي ﷺ) « **لا نفاضل بينهم** » تابعه عبد الله بن صالح بن عبد العزيز » . [تفرد به البخاري اهـ من البداية] .

وعن أبي موسى أنه كان مع النبي ﷺ في حائط (بستان) من حيطان المدينة فجاء رجل يستفتح فقال النبي ﷺ : « **افتح له وبشره بالجنة** » ، ففتحت فإذا أبو بكر فبشرته بالجنة ثم استفتح رجل آخر فقال : «**افتح له وبشره بالجنة** » ، فإذا عمر ففتحت له وبشرته بالجنة ، ثم استفتح رجل آخر وكان متكئًا فجلس ، فقال : « **افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه أو تكون** » فإذا عثمان ففتحت له وبشرته بالجنة فأخبرته بالذي قال فقال : الله المستعان . [رواه البخاري] .

وعن سهل بن سعد قال : ارتج أُحدُ وعليه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان فقال النبي ﷺ : « **اسكن أحد فما عليك إلا نبي وصديق وشهيدان** » . [رواه أحمد والبخاري ومسلم . اهـ . صفة الصفوة] .

* * *

ما ورد من مناقبه وحده

تجهيزه جيش العسرة :

يقال لغزوة تبوك غزوة العسرة مأخوذة من قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ [التوبة : ١١٧] .

وقد ندب رسول الله ﷺ الناس إلى الخروج لها وأعلمهم المكان الذي يريد ليتأهبوا لذلك ، وبعث إلى مكة وإلى قبائل العرب يستنفرهم وأمر الناس بالصدقة ، وحثهم على النفقة والحملان فجاؤوا بصدقات كثيرة فكان أول من جاء أبو بكر الصديق ﷺ ، فجاء بماله كله ٤٠٠٠ درهم فقال له ﷺ : « **هل أبقيت لأهلك شيئًا ؟** » قال : أبقيت لهم الله ورسوله . وجاء عمر ﷺ بنصف ماله فسأله « **هل أبقيت لهم شيئًا ؟** » قال : نعم نصف مالي ، وجاء عبد الرحمن بن عوف ﷺ بمائتي أوقية ، وتصدق عاصم بن عدي

بسبعين وسقًا من تمر ، وجهز عثمان ﷺ ثلث الجيش جهزهم بتسعمائة وخمسين بعيرًا وبخمسين فرسًا . قال ابن إسحاق : أنفق عثمان ﷺ في ذلك الجيش نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها ، وقيل : جاء عثمان ﷺ بألف دينار في كمه حين جهز جيش العسرة فنثرها في حجر رسول اللَّه ﷺ فقلبها في حجره وهو يقول : « **ما ضر عثمانَ ما عمل بعد اليوم** » وقال رسول اللَّه ﷺ : « **من جهز جيش العسرة فله الجنة** » .

شراؤه بئر رومة :

واشترى بئر رومة من يهودي بعشرين ألف درهم ، وسبَّلها للمسلمين وكان رسول اللَّه ﷺ قد قال : « **من اشترى بئر رومة فله الجنة** » .

وهذه البئر في عقيق المدينة : روي عن النبي ﷺ أنه قال : « **نعم القليب قليب المُزَني** » ، وهي التي اشتراها عثمان بن عفان ﷺ فتصدق بها .

وروي عن موسى بن طلحة عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « **نعم الحفير حفير المزني** » . يعني رومة ، فلما سمع عثمان ذلك ابتاع نصفها بمائة بكرة وتصدق بها على المسلمين فجعل الناس يستقون منها . فلما رأى صاحبها أنه امتنع منه ما كان يصيب منها باعها من عثمان بشيء يسير فتصدق بها كلها .

زيادته في المسجد النبوي سنة ٢٩ هـ :

كان المسجد النبوي على عهد رسول اللَّه ﷺ مبنيًا باللبن وسقفه الجريد ، وعمده خشب النخل ، فلم يزد فيه أبو بكر شيئًا وزاد فيه عمر وبناه على بنائه في عهد رسول اللَّه ﷺ باللبن والجريد ، وأعاد عمده خشبًا ، ثم غيره عثمان فزاد فيه زيادة كبيرة وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والفضة ، وجعل عمده من حجارة منقوشة ، وسقفه بالساج ، وجعل أبوابه على ما كانت أيام عمر ستة أبواب .

وروى يحيى عن المطلب بن عبد اللَّه بن حنطب قال : لما ولي عثمان بن عفان سنة أربع وعشرين ، كلمه الناس أن يزيد في مسجدهم ، وشكوا إليه ضيقه يوم الجمعة حتى إنهم ليصلون في الرحاب . فشاور فيه عثمان أهل الرأي من أصحاب رسول اللَّه ﷺ ، فأجمعوا على أن يهدمه ويزيد فيه . فصلى الظهر بالناس ، ثم صعد المنبر فحمد اللَّه ، وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إني قد أردت أن أهدم مسجد رسول اللَّه ﷺ وأزيد فيه وأشهد أني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **من بنى للَّه مسجدًا بنى اللَّه له بيتًا في الجنة** » وقد كان لي فيه سلف وإمام ، سبقني وتقدمني عمر بن

الخطاب ، كان قد زاد فيه وبناه ، وقد شاورت أهل الرأي من أصحاب رسول الله ﷺ فأجمعوا على هدمه وبنائه وتوسيعه .

فَحسَّنَ الناس يومئذ ذلك ودعوا له . فأصبح فدعا العمال وباشر ذلك بنفسه وكان رجلًايصوم الدهر ، ويصلي الليل ، وكان لا يخرج من المسجد ، وكان أول عمله في شهر ربيع الأول من سنة ٢٩ هـ وفرغ منه حين دخلت السنة لهلال المحرم سنة ٣٠هـ فكان عمله عشرة أشهر .

قال الحافظ ابن حجر : كان بناء عثمان للمسجد سنة ثلاثين على المشهور ، وقيل : في آخر سنة من خلافته .

وروى يحيى عن أفلح بن حميد عن أبيه قال : لما أراد عثمان أن يكلم الناس على المنبر ويشاورهم قال له مروان بن الحكم : فداك أبي وأمي ، هذا أمر خير لو فعلته ، ولم تذكر لهم . فقال : ويحك إني أكره أن يروا أني أستبد عليهم بالأمور . قال مروان : فهل رأيت عمر حيث بناه وزاد فيه ذكر لهم ذلك ؟ قال : اسكت إن عمر اشتد عليهم فخافوه حتى لو أدخلهم في جحر ضب دخلوا ، وإني لنت لهم ، حتى أصبحت أخشاهم . قال مروان ابن الحكم : فداك أبي وأمي لا يُسْمَعْ هذا منك فيُجترأ عليك .

وقد جعل عثمان ﷺ طول المسجد ١٦٠ ذراعًا وعرضه ١٥٠ . [اهـ . من ابن كثير والطبري نقله محمد رضا] .

زيادته في المسجد الحرام سنة ٢٦ هـ :

كان المسجد الحرام فناء حول الكعبة ، وفناء للطائفين ولم يكن على عهد النبي ﷺ ، وأبي بكر ﷺ جدار يحيط به ، وكانت الدور محدقة به ، وبين الدور أبواب يدخل الناس من كل ناحية . فلما استخلف عمر بن الخطاب ﷺ ، وكثر الناس وسع المسجد واشترى دورًا وهدمها وزادها فيه ، واتخذ للمسجد جدارًا قصيرًا دون القامة وكانت المصابيح توضع عليه ، وكان عمر ﷺ أول من اتخذ الجدار للمسجد الحرام . فلما استخلف عثمان ﷺ ابتاع منازل ووسعه بها أيضًا ، وبنى المسجد الحرام ، والأروقة ، فكان عثمان ﷺ أول من اتخذ للمسجد الأروقة . [اهـ ابن الأثير] .

تفريجه الكرب عن أهل المدينة :

عن ابن عباس قال : قحط الناس في زمان أبي بكر . فقال أبو بكر : لا تمسون حتى يفرج اللَّه عنكم . فلما كان من الغد جاء البشير إليه قال : لقد قَدِمَتْ لعثمان ألف راحلة برًّا وطعامًا قال : فغدا التجار على عثمان فقرعوا عليه الباب فخرج إليهم وعليه ملاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه فقال لهم : ما تريدون ؟ قالوا : قد بلغنا أنه قدم لك ألف راحلة برًّا وطعامًا . بعنا حتى نوسع به على فقراء المدينة : فقال لهم عثمان : ادخلوا ، فدخلوا فإذا ألف وقر في دار عثمان فقال لهم : كم تربحوني على شرائي من الشام ؟ قالوا : العشرة اثني عشر . قال : قد زادوني . قالوا : العشرة أربعة عشر . قال : قد زادوني قالوا : العشرة خمسة عشر . قال : قد زادوني . قالوا : من زادك ونحن تجار المدينة ، قال : زادوني بكل درهم عشر . هل عندكم زيادة ؟ قالوا : لا . قال : فأشهدكم معشر التجار إنها صدقة على فقراء المدينة .

خوفه من الله :

كان لعثمان عبد فقال له : إني كنت عركت أذنك فاقتص مني ، فأخذ بأذنه ثم قال عثمان : اشدد يا حبذا قصاص في الدنيا لا قصاص في الآخرة .

وروي عنه أنه قال : لو أني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير .

شدة حيائه ﷺ :

قال الإمام أحمد : حدثنا مروان حدثنا عبد اللَّه بن يسار سمعت عائشة بنت طلحة **تذكر عن عائشة أم المؤمنين** ﵂ : أن رسول اللَّه ﷺ كان جالسًا كاشفًا عن فخذه فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على حاله ، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له وهو على حاله ، ثم استأذن عثمان فأرخى عليه ثيابه ، فلما قاموا قلت : يا رسول اللَّه ، استأذن عليك أبو بكر وعمر فأذنت لهما وأنت على حالك ، فلما استأذن عثمان أرخيت عليك ثيابك فقال: « **يا عائشة ألا أستحي من رجل و اللَّه إن الملائكة لتستحي منه ؟** » [تفرد به أحمد من هذه الوجه . اهـ من البداية والنهاية] .

مناجاة النبي ﷺ له :

عن عائشة رضي الله عنها **قالت** : كنت عند النبي ﷺ فقال : « **يا عائشة لو كان عندنا من يحدثنا** » . قالت : قلت يا رسول اللّه ، ألا أبعث إلى أبي بكر ؟ فسكت ثم قال : « **لو كان عندنا من يحدثنا** » . فقلت : ألا أبعث إلى عمر ؟ فسكت . قالت : ثم دعا وصيفًا (خادمًا) بين يديه فسارَّه فذهب . قالت : فإذا عثمان يستأذن فأذن له فدخل فناجاه النبي ﷺ طويلًا ثم قال : « **يا عثمان إن اللّه** ﷻ **مقمصك قميصًا** (يعني بالقميص : الخلافة) **فإذا أرادك المنافقون على أن تخلعه فلا تخلعه لهم ولا كرامة** » يقولها له مرتين أو ثلاثًا . [رواه أحمد] .

ثناء أبي بكر وعلي عليه ﷺ :

قد صح عن أبي بكر الصديق أنه أملى على عثمان وصيته عند موته فلما بلغ إلى ذكر الخليفة أغمي عليه . فكتب عثمان (عمر) فلما أفاق قال : من كتبت ؟ قال : عمر . فقال : لو كنت كتبت نفسك لكنت لها أهلًا .

وعن مطرّف قال : لقيت عليًا ﷺ فقال لي : يا أبا عبد اللّه ، ما أبطأك عنا ؟ قال : حب عثمان ؟ فقال عليٌ : أما لئن قلت ذاك لقد كان أوصلنا للرحم وأتقانا للّه تعالى .

استخلاف رسول الله ﷺ له :

عن أبي الحويرث قال : استخلف رسول اللّه ﷺ على المدينة في غزوته إلى ذات الرقاع عثمان بن عفان واستخلفه رسول اللّه ﷺ أيضًا على المدينة في غزوته إلى غطفان بذي أمر بنجد .

دفاع ابن عمر عنه ورده على المرجفين :

قال البخاري : حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا أبو عوانة حدثنا عثمان ابن موهب قال : جاء رجل من أهل مصر حج البيت فرأى قومًا جلوسًا فقال : من هؤلاء القوم؟ قالوا : قريش ، قال : فمن الشيخ فيهم ؟ قالوا : عبد اللّه بن عمر . قال : يا ابن عمر إني سائلك عن شيء فحدثني ، هل تعلم أن عثمان فرَّ يوم أحد ؟ قال : نعم . قال : هل تعلم أنه تغيب يوم بدر ولم يشهدها ؟ قال : نعم . قال : هل تعلم أنه

تغيب عن بيعة الرضوان ولم يشهدها ؟ قال : نعم قال : اللّٰه أكبر ، قال ابن عمر : تعال أبين لك . أما فراره يوم أحد فأشهد أن اللّٰه عفا عنه وغفر له ، وأما تغيبه عن بدر فإنه كان تحته بنت رسول اللّٰه ﷺ وكانت مريضة ، فقال له رسول اللّٰه ﷺ : « **إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا وسهمه** » ، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه ، فبعث رسول اللّٰه ﷺ عثمان وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة ، فقال النبي ﷺ بيده اليمنى : « **هذه يد عثمان** » فضرب بها على يده فقال : « **هذه لعثمان** » فقال له ابن عمر : اذهب بها الآن معك . [تفرد به دون مسلم] .

عثمان يكتب الوحي لرسول اللّٰه ﷺ :

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد حدثتني فاطمة بنت عبد الرحمن قالت : حدثتني أمي : أنها سألت عائشة وأرسلها عمها فقال : قولي إن أحد بنيك يقرئك السلام ويسألك عن عثمان بن عفان فإن الناس قد شتموه ، فقالت : لعن اللّٰه من لعنه ، فو اللّٰه لقد كان قاعدًا عند رسول اللّٰه ﷺ ، وإن رسول اللّٰه ﷺ لمسنِدٌ ظهرَه إليَّ ، وإن جبريل ﷺ ليوحي إليه القرآن ، وإنه ليقول له : « **اكتب يا عثيم** » قالت عائشة : فما كان اللّٰه لينزل تلك المنزلة إلا كريمًا على اللّٰه ورسوله . [ثم رواه الإمام أحمد عن يونس عن إبراهيم اليشكري عن أمه عن أمها أنها سألت عائشة عند الكعبة عن عثمان فذكرت مثله] .

ما قاله الرسول ﷺ في فتنة عثمان :

قال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عمر حدثنا سنان بن هارون حدثنا كليب بن واصل عن ابن عمر قال : ذكر رسول اللّٰه ﷺ فتنة فقال : « **يقتل فيها هذا المقنع مظلومًا** » فنظرت فإذا هو عثمان بن عفان . [ورواه الترمذي عن إبراهيم بن سعيد عن شاذان به وقال : حسن غريب] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا موسى بن عقبة حدثني أبو أمي أبو حنيفة : أنه دخل الدار وعثمان محصور فيها ، وأنه سمع أبا هريرة يستأذن عثمان في الكلام فأذن له ، فقام فحمد اللّٰه وأثنى عليه ثم قال : إني سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقول : « **إنكم تلقون بعدي فتنة واختلافًا – أو قال : اختلافًا وفتنة –** » فقال له قائل من الناس : فمن لنا يا رسول اللّٰه ؟ قال : « **عليكم بالأمين وأصحابه** » وهو يشير إلى عثمان

بذلك . [تفرد به أحمد وإسناده جيد حسن ولم يخرجوه من هذا الوجه] .

وقال الترمذي في جامعه : حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الوهاب الثقفي حدثنا أيوب عن أبي قلابة عن أبي الأشعث الصنعاني : أن خُطبًا قامت بالشام وفيهم رجال من أصحاب النبي ﷺ ورجل يقال له : مرة بن كعب فقال : لولا حديث سمعته من رسول الله ﷺ ما تكلمت ، وذكر (أي الرسول) الفتن فقربها فمر رجل متقنع في ثوب ، فقال : « **هذا يومئذ على الهدى** » فقمت إليه فإذا هو عثمان بن عفان ، فأقبلت عليه بوجهه ، فقلت : هذا ؟ قال : « **نعم** » . [ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح] .

موقف عثمان من الفتنة :

قال الإمام أحمد : حدثنا علي بن عباس حدثنا الوليد بن مسلم أنبأنا الأوزاعي عن محمد بن عبد الملك بن مروان أنه حدثه عن المغيرة بن شعبة أنه دخل على عثمان وهو محصور فقال : إنك إمام العامة وقد نزل بك ما ترى ، وإني أعرض عليك خصالًا ثلاثًا اختر إحداهن ، إما أن تخرج فتقاتلهم فإن معك عددًا وقوة ، وأنت على الحق وهم على الباطل ، وإما أن تَخْرِق بابًا سوى الباب الذي هم عليه فتقعد على رواحلك فتلحق مكة ، فإنهم لن يستحلوك وأنت بها ، وإما أن تلحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية . فقال عثمان : أما أن أخرج فأقاتل ، فلن أكون أول من خلف رسول الله ﷺ في أمته بسفك الدماء ، وأما أن أخرج إلى مكة فإنهم لن يستحلوني بها ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **يلحد رجل من قريش بمكة يكون عليه نصف عذاب العالم** » ، ولن أكون أنا ، وأما أن ألحق الشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية فلن أفارق دار هجرتي ومجاورة رسول الله ﷺ .

[اهـ . من البداية و النهاية] .

دعاء رسول الله ﷺ لعثمان وحبه له :

قال إسماعيل بن عبد الملك عن عبد الله بن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما رأيت رسول الله ﷺ رافعًا يديه حتى يبدو ضِبعاه (عضداه) إلا لعثمان بن عفان إذا دعا له .

وقال مسعر عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال : رأيت رسول الله ﷺ من أول

الليل إلى أن طلع الفجر رافعًا يديه يدعو لعثمان يقول : « **اللهم عثمان رضيت عنه فارض عنه** » .

وفي رواية يقول لعثمان : « **غفر اللَّه لك ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما كان منك وما هو كائن إلى يوم القيامة** » [ورواه الحسن بن عرفة عن محمد بن القاسم الأسدي عن الأوزاعي عن حسان بن عطية عن النبي ﷺ مرسلًا] .

وقال ابن عدي : عن أبي يعلي عن عمار بن ياسر المستملي عن إسحاق بن إبراهيم المستملي عن أبي إسحاق عن أبي وائل عن حذيفة : أن رسول اللَّه ﷺ بعث إلى عثمان يسيتعينه في غزاة غزاها فبعث إليه عثمان بعشرة آلاف دينار ، فوضعها بين يديه فجعل يقلبها بين يديه ويدعو له « **غفر اللَّه لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت ، وما أخفيت وما هو كائن إلى يوم القيامة ، ما يبالي عثمان ما فعل بعدها** » .

وروي عن أبي يعلى عن سنان بن فروخ بن طلحة بن يزيد عن عبيدة بن حسان عن عطاء الكيخاراني ، عن جابر : أن رسول اللَّه ﷺ اعتنق عثمان وقال : « **أنت وليي في الدنيا ووليي في الآخرة** » . [اهـ من البداية والنهاية لابن كثير] .

توسعة عثمان على نفسه وعلى أهله :

عن محمد بن ربيعة بن الحارث قال : كان أصحاب رسول اللَّه ﷺ يوسعون على نسائهم في اللباس الذي يُصان ويُتَجَمَّل به ، ثم يقول : رأيت على عثمان مِطْرَفَ خَزٍّ ثمنه مائتا درهم ، فقال : هذا لنائلة كسوتها إياه فأنا ألبسُه أسرها به .

أخبرنا **إسحاق بن يحيى عن عمه موسى بن طلحة قال :** رأيت عثمان يخرج يوم الجمعة عليه ثوبان أصفران فيجلس على المنبر فيؤذن المؤذن وهو يتحدث يسأل الناس عن أسعارهم وعن قدامهم وعن مرضاهم ، ثم إذا سكت المؤذن قام يتوكأ على عصا عقفاء (معوجة) فيخطب وهي في يده ثم يجلس جلسة فيبتدئ كلام الناس فيسائلهم كمسألته الأولى ، ثم يقوم فيخطب ثم ينزل ويقيم المؤذن .

وفرة المال والأرزاق في عهده وتوسعته على الناس :

قال البخاري في التاريخ : حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا مبارك بن فضالة قال : سمعت الحسن يقول : أدركت عثمان على مانقموا عليه ، قلَّ ما يأتي على الناس يوم إلا وهم يقتسمون فيه خيرًا ، يقال لهم : يا معشر المسلمين اغدوا على أعطياتكم ،

فيأخذونها وافرة ، ثم يقال لهم : اغدوا على أرزاقكم فيأخذونها وافرة ، ثم يقال لهم : اغدوا على السّمن والعسل . الأعطيات جارية والأرزاق دارة و العدو متقى ، وذات البيّن حسن والخير كثير ، وما من مؤمن يخاف مؤمنًا ، ومن لقيه فهو أخوه ، وقد كان من إلفته ونصيحته ومودته قد عهد إليهم أنها ستكون أثرة ، فإذا كانت فاصبروا .

قال الحسن : فلو أنهم صبروا حين رأوها لوسعهم ما كانوا فيه من العطاء والرزق والخير الكثير ، بل قالوا : لا و اللَّه ما نصابرها ، فو اللَّه ما وردوا وما سلموا والأخرى : كان السيف مغمدًا عن أهل الإسلام فسلوه عن أنفسهم فو اللَّه مازال مسلولًا إلى يوم الناس هذا . وايمُ اللَّه إني لأراه سيفًا مسلولًا إلى يوم القيامة .

وروى الزبير بن أبي بكر عن محمد بن سلام عن ابن بكار قال : قال ابن سعيد بن يربوع بن عتكة المخزومي : انطلقت أنا وغلام في الظهيرة ومعي طير أرسله في المسجد ، والمسجد بيننا ، فإذا شيخ جميل حسن الوجه نائم ،تحت رأسه لبنة أو بعض لبنة ، فقمت أنظر إليه أتعجب من جماله ، ففتح عينيه فقال : من أنت يا غلام ؟ فأخبرته ، فإذا غلام نائم قريبًا منه فدعاه فلم يجبه ، فقال لي : ادعه! فأخبرته ، فأمره بشيء وقال لي : اقعد . فذهب الغلام فجاء بِحُلَّةٍ وجاء بألف درهم ونزع ثوبي وألبسني الحلة وجعل الألف درهم فيها فرجعت إلى أبي فأخبرته فقال : يا بني من فعل هذا بك ؟ فقلت : لا أدري إلا أنه رجل في المسجد نائم لم أر قط أحسن منه ، قال : ذاك أمير المؤمنين عثمان بن عفان .

كثرة عبادته وتقواه :

روينا عن ابن عمر أنه قال في قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٩] قال : هو عثمان بن عفان .

وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ٧٦] قال : هو عثمان بن عفان .

وقال حسان :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به   يقطع الليل تسبيحًا وقرآنا

قال سفيان بن عيينة : حدثنا إسرائيل بن موسى ، سمعت الحسن يقول : قال عثمان : لو أن قلوبنا طهرت ما شبعنا من كلام ربنا ، وإني لأكره أن يأتي عليَّ يوم

لا أنظر في المصحف .

وقال أنس ومحمد بن سيرين : قالت امرأة عثمان يوم الدار : اقتلوه أو دعوه لقد كان يحيي الليل بالقرآن في ركعة .

رحمته بأهله وخدمه :

قال غير واحد : إنه ﷺ كان لايوقظ أحدًا من أهله إذا قام من الليل ليعينه على وضوئه ، إلا أن يجده يقظان ، وكان يصوم الدهر ، وكان يُعَاتَبُ فيقال له : لو أيقظت بعض الخدم فيقول : لا . الليل لهم يستريحون فيه ، وكان إذا اغتسل لا يرفع المئزر عنه وهو في بيت مغلق عليه ، ولا يرفع صلبه جيدًا من شدة حيائه ﷺ .

سماحته وسهولته في معاملاته :

قال أحمد : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا يونس – يعني ابن عبيد – حدثني عطاء ابن فروخ مولى القرشيين : أن عثمان اشترى من رجل أرضًا فأبطأ عليه ، فلقيه فقال : ما منعك من قَبْضِ مالك ؟ قال : إنك غبنتني فما ألقى من الناس أحدًا إلا وهو يلومني ، قال : أذلك يمنعك؟ قال : نعم . قال : فاختر بين أرضك ومالك ، ثم قال : قال رسول الله ﷺ : « **أدخل الله الجنة رجلًا كان سهلًا مشتريًا وبائعًا وقاضيًا ومقتضيًا** » .

وروى ابن جرير أن طلحة لقي عثمان وهو خارج إلى المسجد فقال له طلحة : إن الخمسين ألفًا التي لك عندي قد حصلت فأرسل من يقبضها ، فقال له عثمان : إنا قد وهبناكها لمروءتك .

وقال الأصمعي : استعمل عامر بن قطن ابنُ عوف الهلالي على كرمان ، فأقبل جيش من المسلمين – أربعة آلاف – وجرى الوادي فقطعهم عن طريقهم ، وخشي ابن قطن الفوت فقال : من جاز الوادي فله ألف درهم ، فحملوا أنفسهم على العوم ، فكانوا إذا جاز الرجل منهم قال ابن قطن : أعطوه جائزته ، حتى جازوا جميعًا وأعطاهم كل واحد ألف درهم ، فأبى ابن عامر أن يحسبها له ، فكتب بذلك إلى عثمان بن عفان ، فكتب عثمان : أن احسبها له ، فإنه إنما أعان المسلمين في سبيل الله فمن ذلك اليوم سميت الجوائز لإجازة الوادي .

* * *

اختياره خليفة بعد عمر بن الخطاب :

لما طعن عمر ﷺ وأحس بالموت طلب إليه أن يعهد إلى خليفة من بعده ، فتردد وقال : إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني (يريد أبا بكر) وإن أترك فقد ترك من هو خير مني (يريد رسول الله ﷺ) وقال : لو كان أبو عبيدة حيًّا لاستخلفته فإن سألني ربي قلت : سمعت نبيك ﷺ يقول : « **إنه أمين هذه الأمة** » ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيًّا لاستخلفته فإن سألني ربي قلت : سمعت نبيك ﷺ يقول : « **إن سالمًا شديد الحب لله** » فقال له رجل : أدلك على عبد الله بن عمر ، فقال : قاتلك الله ، والله ما أردت الله بهذا ، ويحك كيف أستخلف رجلًا عجز عن طلاق امرأته ؟! لا أرب لنا في أموركم ، ما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي ، إن كان خيرًا فقد أصبنا منه وإن كان شرًّا فأمرنا إلى الله ، حسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد ﷺ ، أما لقد أجهدت نفسي وحرمت أهلي وإن نجوت كفافًا لا وزر ولا أجر إني لسعيد . ثم كرر عليه القول بعد هنيهة وطلب الاستخلاف ، فقال :كنت أجمعت بعد مقالتي لكم أن أنظر فأولي رجلًا أمركم هو أحراكم أن يحملكم على الحق وأشار إلى عليٍّ ، ثم رأيت أن لا أتحمل أمركم حيًّا وميتًا ، عليك هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله أنهم من أهل الجنة : علي وعثمان ابنا عبد مناف ، وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله ﷺ ، والزبير بن العوام حواريه ، وابن عمته ، وطلحة الخير بن عبيد الله ، فليختاروا منهم رجلًا فإذا ولوا واليًا فأحسنوا مؤازرته وأعينوه . وإن ائتمن أحدًا منكم فليؤد أمانته ، ثم دعا هؤلاء الرهط وقال لهم : إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض ، إني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ، ولكن أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ثم عين لهم الأجل الذي يتم فيه الانتخاب وهو ثلاثة أيام من بعد موته ، وقال للمقداد ابن الأسود : إذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلًا منهم ، وقال لصهيب : صلِّ بالناس ثلاثة أيام وأدخل عليًّا وعثمان و الزبير وسعدًا وعبد الرحمن بن عوف وطلحة إن قدم (وكان غائبًا) وأحضر عبد الله بن عمر ولاشيء له من الأمر ، وقم على رؤوسهم ، فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلًا وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف ، وإن اتفق أربعة فرضوا رجلًا منهم وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما ، فإن رضي ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً

فحكموا عبد اللَّه بن عمر ، فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلًا منهم فإن لم يرضوا بحكم عبد اللَّه ابن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس .

فلما دفن عمر ﷺ جمع المقداد أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة وقيل : في حجرة عائشة ولم يكن قد حضر طلحة ، فكانوا خمسة ومعهم عبد اللَّه بن عمر وأمروا أبا طلحة أن يحجبهم ، فتنافس القوم في الأمر وكثر بينهم الكلام ، فقال أبو طلحة : أنا كنت لأن تدفعوها أخوف مني لأن تنافسوها ، والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي أمرتم ثم أجلس في بيتي فأنظر ما تصنعون ، فقال عبد الرحمن بن عوف : أيكم يُخرج نفسه منها ويتقلد على أن يوليها أفضلكم فلم يجبه أحد ، قال : فأنا أنخلع منها ، قال عثمان : فأنا أول راض ثم تتابع القوم على الرضا وعليٌّ ساكت فقال : ما تقول يا أبا الحسن ، قال : أعطني ميثاقًا لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى ، ولا تخص ذا رحم ، ولا تألو الأمة ، فقال عبد الرحمن : أعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي على من بدل وغير ، وأن ترضوا من اخترت لكم وعليَّ ميثاق اللَّه أن لا أخص ذا رحم لرحمه ، ولا آلو المسلمين .فأخذ منهم ميثاقًا وأعطاهم مثله ، وبذلك صار الأمر في عنق عبد الرحمن بن عوف فدار لياليه يلقى أصحاب رسول اللَّه ﷺ ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يشاورهم ولا يخلو برجل إلا أمره بعثمان حتى إذا كانت الليلة التي يستكمل في صبيحتها الأجل أتى منزل المسور بن مخرمة وأمره أن يدعو إليه الزبير وسعدًا فدعاهما ، فبدأ بالزبير في مؤخر المسجد في الصفة التي تلي دار مروان فقال له : خل ابني عبد مناف وهذا الأمر ، فقال الزبير : نصيبي لعلي . وقال لسعد : أنا وأنت كلالة فاجعل نصيبك لي فأختار قال : إن اخترت نفسك فنعم وإن اخترت عثمان فعليٌّ أحب إليَّ . أيها الرجل بايع نفسك وأرحنا . قال : يا أبا إسحاق إني خلعت نفسي منها على أن أختار ولو لم أفعل وجعل الخيار إليَّ لم أرُدَّها ، ثم قال : لا يقوم بعد أبي بكر وعمر أحد فيرضى الناس عنه ، ثم انصرف الزبير وسعد وأرسل المسور إلى عليٍّ فجاء فناجاه طويلًا ، ثم أرسل إلى عثمان فجاء فناجاه حتى فرق بينهما الصبح ، فلما صلوا الصبح جمع رجال الشورى وبعث إلى من حضر من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار والأمراء حتى ارتج المسجد بأهله ، فقال : أيها الناس : إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم ، وقد علموا من أميرهم ، فتكلم الناس من جوانب المسجد مبدين آراء لهم ، فقال سعد : يا عبد الرحمن : افرغ

قبل أن يفتتن الناس ، فقال عبد الرحمن : إني قد نظرت وشاورت فلا تجعلُنَّ أيها الرهط على أنفسكم سبيلًا ، ودعا عليًّا فقال : عليك عهد اللَّه وميثاقه لتعملن بكتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ وسنة الخليفتين من بعده ، قال : أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي ، ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلي فقال : نعم فبايعه عبد الرحمن بالخلافة . ولما رأى ذلك عليٌّ تأخر وهو يقول : سيبلغ الكتاب أجله ثم أقبل الناس يبايعون عثمان ورجع علي يشق الناس حتى بايع عثمان وكانت بيعة عثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ٢٣ فاستقبل بخلافته المحرم سنة ٢٤ .

* * *

أول خطبة له

وكانت أول خطبة له عقيب بيعته : أن صعد المنبر فحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال : إنكم في دار قُلَعة وفي بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أتيتم أصبحتم أو أمسيتم ، ألا وإن الدنيا طويت على الغرور ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم باللَّه الغرور ، واعتبروا بمن مضى ، ثم جدوا ولا تغفلوا فإنه لا يغفل عنكم .

أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلًا ؟ ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رمى اللَّه ، واطلبو الآخرة فإن اللَّه قد ضرب لها مثلًا وبين الذي هو خير فقال ﷻ : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف : ٤٥-٤٦] .

* * *

أول قضية نظر فيها عثمان ﷺ

شاع عقب ضرب عمر أن قَتْلَهُ لم يكن عمل أبي لؤلؤة وحده ، بل كان هناك أشخاص شاركوا في دمه ، فقد قال عبد الرحمن بن أبي بكر غداة طُعِن عمر : مررت على أبي لؤلؤة أمس ومعه جفينة و الهرمزان وهم نَجِيٌّ ، فلما رهقتهم ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه ، فانظروا بأي شيء قتل ، فجاءوا بالخنجر الذي ضَرب به أبو لؤلؤة فإذا هو على الصفة التي وصفها عبد الرحمن ، وكان رجل من تيم قد اتبع أبا لؤلؤة فقتله وأخذ منه الخنجر، فلما رأى ذلك عبيد اللَّه بن عمر أمسك حتى مات عمر ثم اشتمل على سيفه

فأتى الهرمزان فقتله ، ثم مضى حتى أتى جفينة وكان نصرانيًا من أهل الحيرة أقدمه سعد ابن أبي وقاص إلى المدينة ليعلِّم بها الكتابة فعلاه عبيد اللَّه بالسيف ، فلما سمع بذلك صهيب وهو القائم مقام الخليفة أرسل إليه من أتى به وأخذ منه السيف وسجنه حتى يتم أمر الاستخلاف وينظر في أمره ، فلما بويع عثمان جلس في المسجد ودعا بعبيد اللَّه بن عمر ثم قال لجماعة المهاجرين و الأنصار : أشيروا عليَّ في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق ، فقال عليٌّ : أرى أن تقتله ، فقال بعض المهاجرين : قُتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم ؟ فقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين إن اللَّه قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان ، إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك ، قال عثمان : أنا وليهم قد جعلتها دية واحتملتها في مالي وكان ذلك حلًّا حسنًا لتلك المشكلة .

* * *

كتبه إلى أمراء الأمصار

كتب عثمان إلى أمراء الأمصار كتابًا عامًّا هذه صورته : أما بعد ، فإن اللَّه أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يصيروا رعاة ، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء ، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تعتنوا بأهل الذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم ، ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء .

كتبه إلى الأجناد عمال الخراج والعامة :

وكتب إلى أمراء الأجناد بالثغور : أما بعد ، فإنكم حماة الإسلام ودارتهم ، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل على مَلَأٍ منا ، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير اللَّه بكم ويستبدل بكم غيركم ، فانظروا كيف تكونوا فإني أنظر فيما ألزمني اللَّه النظر فيه والقيام عليه .

وكتب إلى عمال الخراج : أما بعد ، فإن اللَّه خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق ، خذوا الحق وأعطوا الحق ، والأمانة الأمانة : قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم ، والوفاءَ الوفاءَ لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن اللَّه خصم لمن ظلمهم .

وكتب إلى العامة من المسلمين بالأمصار : أما بعد ، فإنما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع فلا تلفتكم الدنيا عن أمركم ، فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامل النعم وكثرة أولادكم من السبايا ، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن ؟ فإن رسول الله ﷺ قال : « **الكفر في العجمة فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا أو ابتدعوا** » .

* * *

الأمصار والأمراء لأول عهد عثمان

كانت الأمصار الكبرى لآخر عهد عمر وأول عهد عثمان هي :

١ - **مكة** : وأميرها نافع بن الحارث الخزاعي .

٢ - **الطائف** : وأميرها سفيان بن عبد الله الثقفي .

٣ - **صنعاء** : وأميرها يعلي بن منبه حليف بني نوفل بن عبد مناف .

٤ - **الجند** : وأميرها عبد الله بن أبي ربيعة .

٥ - **البحرين وما والاها** : وأميرها عثمان بن أبي العاص الثقفي . وهذه الخمس في الجزيرة العربية .

٦ - **الكوفة وما يتبعها** : وأميرها المغيرة بن شعبة الثقفي .

٧ - **البصرة وما يتبعها** : وأميرها أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري وهاتان بالعراق .

٨ - **دمشق** : وأميرها معاوية بن أبي سفيان الأموي .

٩ - **حمص** : وأميرها عمير بن سعد . وهاتان بالشام .

١٠ - **مصر** : وأميرها عمرو بن العاص السهمي .

* * *

جمعه القرآن الكريم

ومن مناقبه الكبار وحسناته العظيمة : أنه جمع الناس على قراءة واحدة ،وكتب المصحف على العرضة الأخيرة التي درسها جبريل على رسول الله ﷺ في آخر سني حياته ، وكان سبب ذلك أن حذيفة بن اليمان كان في بعض الغزوات ،وقد اجتمع فيها

خلق من أهل الشام ممن يقرأ على قراءة المقداد بن الأسود ، وأبي الدرداء ، وجماعة من أهل العراق ، ممن يقرأ على قراءة عبد اللّه بن مسعود ، وأبي موسى ، وجعل من لا يعلم بِسوَغَان القراءة على سبعة أحرف يفضل قراءته على قراءة غيره ، وربما خطَّأ الآخر أو كفَّره ، فأدى ذلك إلى اختلاف شديد ، وانتشار في الكلام السيئ بين الناس ، فركب حذيفة إلى عثمان فقال : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن تختلف في كتابها كاختلاف اليهود والنصارى في كتبهم . وذكر له ما شاهد من اختلاف الناس في القراءة ، فعند ذلك جمع عثمان الصحابة وشاورهم في ذلك ، ورأى أن يكتب المصحف على حرف واحد وأن يجمع الناس في سائر الأقاليم على القراءة به دون ما سواه ، لما رأى في ذلك من مصلحة كف المنازعة ، ودفع الاختلاف . فاستدعى بالصحف التي كان الصديق أمر زيد بن ثابت بجمعها ، فكانت عند الصديق أيام حياته ثم كانت عند عمر ، فلما توفي صارت إلى حفصة أم المؤمنين ، فاستدعى بها عثمان وأمر زيد بن ثابت الأنصاري أن يكتب وأن يملي عليه سعيد بن العاص الأموي ، بحضرة عبد اللّه بن الزبير الأسدي وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي ، وأمرهم إذا اختلفوا في شيء أن يكتبوه بلغة قريش ، فكتبوا لأهل الشام مصحفًا ، ولأهل مصر آخر ،وبعث إلى البصرة مصحفًا ، وإلى الكوفة بآخر ، وأرسل إلى مكة مصحفًا وإلى اليمن مثله ، وأقر بالمدينة مصحفًا ، ويقال لهذه المصاحف الأئمة ، وليست كلها بخط عثمان ، بل ولا واحد منها ، وإنما هي بخط زيد بن ثابت ، وإنما يقال لها : المصاحف العثمانية نسبة إلى أمره وزمانه وإمارته كما يقال : دينار هرقلي ،أي ضُربَ في زمانه ودولته .

قال الواقدي : حدثنا ابن أبي سبرة عن سهيل ابن صالح عن أبيه عن أبي هريرة ورواه غيره من وجه آخر عن أبي هريرة قال : لما نسخ عثمان المصاحف دخل عليه أبو هريرة فقال : أصبت ووفقت ، أشهد لسمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « **إن أشد أمتي حبًّا لي قوم يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني يعملون بما في الورق المعلق** » فقلت : أي ورق ؟ حتى رأيت المصاحف . قال : فأعجب ذلك عثمان وأمر لأبي هريرة بعشرة آلاف وقال : واللّه ما علمت : إنك لتحبس علينا حديث نبينا ﷺ ثم عمد إلى بقية المصاحف التي بأيدي الناس مما يخالف ما كتبه فحرقه لئلا يقع بسببه اختلاف . **فقال أبو بكر بن أبي داود – في كتاب المصاحف –** : حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر وعبد الرحمن قالا : حدثنا شعبة عن علقمة بن مرثد عن رجل عن سويد بن غفلة قال : قال لي عليٌّ حين حرق عثمان المصاحف : لو لم يصنعه هو لصنعته وهكذا رواه أبو داود الطيالسي وعمرو بن مرزوق عن شعبة مثله .

وقد رواه البيهقي وغيره من حديث محمد بن أبان - زوج أخت حسين - عن علقمة ابن مرثد قال : سمعت العيزار بن جرول قال : سمعت سويد بن غَفَلة قال : قال عليٌّ : أيها الناس إياكم والغلو في عثمان تقولون : حرق المصاحف ، و اللّه ما حرقها إلا عن ملأ من أصحاب محمد ﷺ ، ولو وليت مثل ما ولي لفعلت مثل الذي فعل . وقد روي عن ابن مسعود أنه تعتب لما أخذ منه مصحفه فحرق ، وتكلم في تقدم إسلامه على زيد بن ثابت الذي كتب المصاحف وأمر أصحابه أن يغلوا مصاحفهم ، وتلا قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ فكتب إليه عثمان ﷺ يدعوه إلى اتباع الصحابة فيما أجمعوا عليه من المصلحة في ذلك ، وجمع الكلمة وعدم الاختلاف فأناب وأجاب إلى المتابعة وترك المخالفة رضي اللّه عنهم أجمعين .

وقد قال أبو إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد : إن عبد اللّه بن مسعود دخل مسجد منى ، فقال : كم صلى أمير المؤمنين الظهر ؟ قالوا : أربعًا ، فصلى ابن مسعود أربعًا ، فقالوا : ألم تحدثنا أن رسول اللّه ﷺ وأبا بكر وعمر صلوا ركعتين ؟ فقال : نعم ! وأنا أحدثكموه الآن ولكنني أكره الاختلاف .

وفي الصحيح : أن ابن مسعود قال : ليت حظي من أربع ركعات ركعتان متقبلتان . وقال الأعمش : حدثني معاوية بن قرة - بواسط - عن أشياخه ، قالوا : صلى عثمان الظهر بمنى أربعًا فبلغ ذلك ابن مسعود فعاب عليه ، ثم صلى بأصحابه العصر في رحله أربعًا ، فقيل له : عتبت على عثمان وصليت أربعًا ؟ فقال : إني أكره الخلاف ، وفي رواية : الخلاف شر .

فإذا كان هذا متابعة من ابن مسعود إلى عثمان في هذا الفرع فكيف بمتابعته إياه في أصل القرآن ؟ والاقتداء به في التلاوة التي عزم على الناس أن يقرأوا بها لا بغيرها .

وقد حكى الزهري وغيره أن عثمان إنما أتم خشية على الأعراب أن يعتقدوا أن فرض الصلاة ركعتان ، وقيل : بل قد تأهل بمكة ، فروى يعلى وغيره من حديث عكرمة بن إبراهيم حدثني عبد اللّه بن عبد الرحمن بن الحارث عن أبي ذباب عن أبيه : أن عثمان صلى بهم بمنى أربع ركعات ،ثم أقبل عليهم ، فقال : إني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « **إذا تزوج الرجل ببلد فهو من أهله** » وإني أتممت لأني تزوجت بها منذ قدمتها .

وهذا الحديث لا يصح ، وقد تزوج رسول اللّه ﷺ في عمرة القضاء بميمونة بنت الحارث ولم يتم الصلاة ، وقد قيل : إن عثمان تأول أنه أمير المؤمنين حيث كان وهكذا تأولت عائشة فأتمت ، وفي هذا التأويل نظر ؛ فإن رسول اللّه ﷺ هو رسول اللّه حيث كان ، ومع هذا ما أتم الصلاة في الأسفار .

الفتوح في عهد عثمان

كانت غزوات أهل الكوفة جهة الرَّي وأَذْرَبيجان وكان قد أعد لهذين الثغرين عشرة آلاف مقاتل من أهل الكوفة : ستة آلاف تكون بأذربيحان ، وأربعة آلاف بالرَّي ، وكان بالكوفة إذ ذاك أربعون ألف مقاتل ، وكان يذهب لهذين الثغرين منهم عشرة آلاف مقاتل كل سنة فكان الرجل يصيبه في كل أربع سنين غزوة ، وكانت هذه الغزوات لتأييد الفتح الإسلامي في تلك البلاد و المحافظة على الثغور من أن ينتابها عدو ، وإعادة مَن شَقَّ العصا إلى الطاعة .

ففي عهد إمارة الوليد بن عقبة على الكوفة : انتقضت أَذْرَبيجان ومنعت ما كانت صالحت عليه ، فغزاها الوليد حتى رضيت بأن تؤدي ما كانت صولحت عليه ، وسير سليمان بن ربيعة الباهلي إلى أرمينية فشتت شمل المجتمعين بها ممن أراد نقض الطاعة .

وفي عهد إمارة سعيد بن العاص : فتحت طبرستان (وهي بلدان واسعة على شاطئ بحر الخزر عاصمتها آمُل وطبرستان بين الرَّي وقومِس والبحر وبلاد الديلم والجبل) سار إليها بجند كثيف فيه الحسن والحسين ابنا علي ، و العبادلة أبناء عباس ، وعمر ، وعمرو بن العاص ، و الزبير ، وحذيفة بن اليمان وغيرهم ، فقاتل أهل طبرستان حتى طلبوا الصلح .

وفي سنة ٣٢ : أوغل عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي في بلاد الخزر (هي بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف بالدربند) حتى وصل بَلَنْجَرَ وهي أكبر مدنهم خلف باب الأبواب ، ولكن الترك تجمعوا عليهم هناك وصادموهم بجمعهم الكبير ، فأصيب عبد الرحمن بن ربيعة ، وانهزم المسلمون فتفرقوا فرقتين : فرقة عادت فقابلت سلمان بن ربيعة الذي كان قد أرسل مددًا لأخيه فنجت ، وفرقة أخرى أخذت طريق جَيلان وجُرْجان ،وجعل على ثغر الباب بعد عبد الرحمن أخاه سلمان .

أما البصرة : فكانت غزواتها في بلاد فارس وخراسان وثغر السند .

ففي عهد إمارة عبد الله بن عامر : انتقض أهل فارس وقتلوا أميرهم عبيد الله بن معمر، فسار إليهم ابن عامر وأوقع بهم وقعة شديدة .

وفي عهد إمارة ابن عامر على البصرة : قتل يزدجرد آخر ملوك الفرس ، وبموته انقضت الدولة الساسانية .

وفي سنة (٣١هـ) : انتقض أهل خراسان فخرج إليهم ابن عامر في جيش كثيف فلما وصل الطَّبَسَين وهما بابا خراسان تلقاه أهلها بالصلح ، ثم سار إلى قهستان فقاتل

أهلها حتى طلبوا الصلح فصالحهم ، ثم قصد نَيسَابور فصالحهم ، ثم وجه الأحنف بن قيس إلى طخارستان (ولاية واسعة من نواحي خراسان) ثم إلى مَرْو الرُّوذ فلقيته جموع هزمها ، وكانت للأحنف فتوح كثيرة في تلك الجهات ، ثم صار إلى بَلْخ فصالحه أهلها ، ثم ذهب إلى خَوارِزم ، فاستعصت عليه فعاد عنها ، ولما تمَّ لابن عامر هذه الفتوح عاد إلى البصرة .

وأما الشام : فقد كانت جُمعت كلها لمعاوية بن أبي سفيان وكانت له غزوات مع الروم ، فبلغ عَمُّورية وأسكن الحصون التي في طريقه جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة ، وسيَّر حبيب بن مسلمة بأمر عثمان إلى أرمينية فسار حتى أتى تاليقلا فصالحه أهلها ثم استمر في فتوحه حتى وصل تِفْلِيسَ (وهي مدينة بأرمينية الأولى) .

وفي سنة ٢٨ هـ فتح معاوية جزيرة قبرص وغزا معه جمع كثير من الصحابة منهم عبادة بن الصامت ومعه زوجته أم حرام بنت ملحان .

وكان معاوية كثيرًا ما يتمنى غزو الروم في البحر إلا أن عمر كان يمنعه من ذلك ؛ لأنه كان يرى الغزو فيه تغريرًا بالمسلمين .

كتب عمر إلى عمرو بن العاص : صف لي البحر وراكبه فإن نفسي تنازعني إليه فكتب إليه عمرو : إني رأيت خلقًا كبيرًا يركبه خلق صغير إن ركن خرق القلوب ، وإن تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود إن مال غرق وإن نجا برق . فلما قرأه عمر كتب إلى معاوية : لا والذي بعث محمدًا ﷺ بالحق لا أحمل فيه مسلمًا أبدًا .

فلما كان زمن عثمان أذن له في ذلك وقال : لا تنتخب الناس ولا تُقْرع بينهم ، فمن اختار الغزو طائعًا فاحمله وأَعِنْه؟ ففعل ، وسار إلى قبرص ، وأمده من مصر عبد اللّٰه بن سعد بن أبي السرح أميرها بنفسه ففتحوها صلحًا على سبعة آلاف دينار كل سنة ، يؤدون إلى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون من ذلك ، وليس على المسلمين منعهم ممن أرادهم من ورائهم ، وعليهم أن يُعْلِمُوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم ، ويكون طريق المسلمين إلى العدو عليهم .

وقد رتب معاوية أمر الغزو في البحر وأعَدَّ لذلك أسطولًا جعل أميره عبد اللّٰه بن قيس الحارثي حليف بني فزارة ، فكان يغزو كثيرًا مابين شاتية وصائفة في البحر ، ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب ، ولكنه خرج في يومٍ طليعةً في قارب فانتهى إلى المرقى من أرض الروم فَنُذِرَ به (رأوه) فتكاثروا عليه وقتلوه . [اهـ . من تاريخ الأمم الإسلامية] .

الحال في مصر

وأما في مصر : فإن عمر بن الخطاب لم يرض بمقدار الخراج الذي جباه عمرو بن العاص ، فظن فيه الظنون وأرسل ابن مسلمة ليقاسمه ماله ، ثم عزله سنة (٢٣ هـ) ، أي قبل وفاته بقليل عن ولاية الصعيد وقلدها عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح .

فلما ولي عثمان الخلافة عزل عمرًا بعد أن وليها أربع سنين وأشهرًا ، وولى ابن أبي سرح مصر جميعها . فكان هذا سبب الجفاء والعداوة بين عمرو وعثمان حتى قيل أن عمرًا أخذ يؤلب الناس على عثمان وعلى سياسته وأن له يدًا في قتله .

على أن ابن أبي سرح لم يكد يستقر في ولاية مصر حتى غدر الروم فيها ، وكتب الروم من أهل الإسكندرية إلى الإمبراطور قسطنطين بن هرقل يصفون له ما كانوا عليه من الذلة ويهونون عليه فتح الإسكندرية لقلة من كان بها من حامية المسلمين . فأنفذ قسطنطين قائده الأرمني مانويل إلى الإسكندرية على رأس جيش كثيف ، فاستولى عليها ، وأخذ هو وجنده ومن انضم إليهم من الروم المقيمين في الوجه البحري يعيثون في هذه البلاد حتى بلغوا مدينة نَقْيوس .

ولم يرحب القبط بعودة بلادهم إلى الروم يسومونهم الخسف لمظاهرتهم العرب ورضائهم عن حكمهم من جهة ولما كان بينهم وبين الروم من الخلاف المذهبي الذي كان مصدر شقائهم من جهة أخرى . ولهذا كتب القبط إلى الخليفة عثمان يلحون في إسناد حروب الروم إلى عمرو بن العاص لما كسبه في حروبه معهم من خبرة ، فولى عثمان عمرًا الإسكندرية وعهد إليه بحرب الروم وإخراجهم من مصر . وفي مدينة نَقْيوس دار القتال بين جند عمرو وجند مانويل في البر وفي النهر ، وكثر الترامي بالنشاب حتى وقع فرس عمرو من تحته . ثم طلب المسلمون المبارزة بين فارس منهم وفارس من الروم ، فكانت الغلبة لفارس المسلمين ، فثارت حميتهم وشدوا على العدو وانتصروا عليه وقتلوا قائده ، ثم تعقبوا الفارة إلى الإسكندرية وأعملوا السيف في رقابهم ، ثم أمر عمرو بوقف القتال ، وأمر بأن يبنى في الموضع الذي رفع فيه السيف مسجد أطلق عليه فيما بعد مسجد الرحمة ، وهدم سور الإسكندرية ، وكان قد حلف لئن نصره اللّه ليهدمنه .

وبهذا تثبت أقدام العرب في مصر من جديد سنة ٢٥ هـ .

وقد أقام والي مصر الجديد في الفسطاط يرقب الأمور من كثب و ينتظر ما سوف تلده تلك الحرب الناشئة بين العرب و الروم في مصر . ولا شك أن انتصار عمرو وطد

قدم عبد اللّٰه بن سعد في ولايته ، فحذا حذو سلفه في الإصلاح الداخلي وفي الحروب الخارجية . أما الإصلاح الداخلي فإن عمرًا لم يترك له شيئًا جديدًا ، اللهم إلا ما كان من زيادة الخراج في ولايته حتى بلغ [١٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار بدل ١٢,٠٠٠,٠٠٠] .

وأما الأحوال الخارجية فتنحصر في أمرين هما :

١ - موقف مصر من الفتنة التي أدت إلى قتل عثمان وإلى قيام الدولة الأموية .

٢ - الفتوح الخارجية من جهة مصر .

ويهمنا الآن أن نتكلم على الفتوح الخارجية فنقول : إن عمرو بن العاص أمَّن حدود مصر من ناحية الغرب بفتح بَرْقَة صلحًا سنة (٢١ هـ) ، وفتح طَرَابُلُسَ عنوة سنة (٢٢هـ) ثم بعث نافع بن عبد القيس الفهري . وكان أخا العاص بن وائل لأمه إلى بلاد النوبة فقاتل أهلها قتالًا شديدًا فانصرفوا .

فلما ولي مصر عبد اللّٰه بن سعد بن أبي سرح سنة (٢٧ هـ) ، فكر في غزو إفريقية واستأذن الخليفة عثمان ، فأذن له بعد أن استشار كبار الصحابة ، وأرسل إليه من المدينة المنورة جيشًا يضم كثيرًا من أعيان الصحابة .

وسار هذا الجيش إلى إفريقية ، وانقطعت أخباره عن مركز الخلافة . فأرسل عثمان عبد اللّٰه بن الزبير في جماعة لموافاته بأخبار الجند . ولما وصل ابن الزبير إلى إفريقية ، لم ترقه الخطة التي سار عليها ابن أبي سرح في قتال الأعداء ، إذ كان يقاتلهم كل يوم إلى وقت الظهيرة ، ثم يعود الجيشان إلى معسكرهما في اليوم التالي .

وقد أنكر ابن الزبير على ابن أبي سرح خطته هذه لما رأى فيها من إتاحة الفرصة للعدو للاستعداد ، وأشار عليه بتقسيم جيش المسلمين إلى فرقتين : إحداهما تسير لقتال العدو أول النهار ، على حين تأخذ الأخرى قسطها من الراحة وتستعد لمباغتة العدو عندما يأوي إلى معسكره . فنزل ابن أبي سرح عن قيادة الجيش لابن الزبير الذي شرع في تنفيذ خطته .

فلما حان الموعد المضروب لانصراف الجيشين ، استعدت الفرقة التي لم تخرج للحرب أول النهار ، وهجم بها على العدو الذي أنهكته الحرب ، ثم غشيهم في خيامهم وهزمهم هزيمة منكرة ، وقتل ملكهم جرجير . وبذلك تم النصر للمسلمين ؟ ولولا خطة ابن الزبير وحيلته لما أحرز المسلمون هذا النصر السريع ، وقد غنم المسلمون في هذه الحرب غنائم كثيرة حتى قيل أن سهم الفارس بلغ ثلاثة آلاف دينار و الراجل ألف دينار .

عاد ابن الزبير بالغنائم إلى المدينة ، وأخبر عثمان بانتصار المسلمين وما غنموه من ذلك الفتح ، فسر بذلك وطلب منه أن يخطب الناس ، فقال : يا أمير المؤمنين ؟! إني أهيب لك مني لهم . فقام عثمان في الناس خطيبًا ، فحمد اللّٰه وأثنى عليه ، ثم قال : « **أيها الناس ! إن اللّٰه فتح عليكم إفريقية ، وهذا عبد اللّٰه بن الزبير يخبركم بخبرها إن شاء اللّٰه** » . وكان عبد اللّٰه بن الزبير إلى جانب المنبر ، فخطب الناس خطبة طويلة رواها ابن عبد ربه في العقد الفريد .

ثم وجه ابن أبي سرح همه إلى الجنوب فغزا بلاد النوبة من جديد - وكان عمرو قد غزاها من قبل - فبلغ دُنْقُلَة سنة ٣١ هـ وقاتل أهلها قتالًا شديدًا . ولكنه لم يتمكن من فتحها ، فهادن أهلها وعقد معهم صلحًا رواه البلاذري و الكندي ، وهو أشبه بمعاهدة اقتصادية بين مصر وبلاد النوبة ، هذه تمدهم بالحبوب و العدس وتلك ترسل الرقيق إلى مصر .

وفي سنة (٣٤ هـ) : نشب القتال بين عبد اللّٰه بن سعد وبين الروم تحت قيادة ملكهم قسطنطين في البحر الأبيض المتوسط على مقربة من الإسكندرية وكان النصر للعرب في هذه الموقعة التي عرفت بموقعة الصواري أو ذات الصواري ، لكثرة صواري السفن التي اشتركت في المعركة ، حتى قيل إنه اشترك فيها ألف سفينة ، منها مائتان للمسلمين .

وقد دارت هذه الموقعة بالقرب من الساحل الإفريقي في القُرضَة المسماة فُرْضَة « **زيوارة** » . وساعدت السفن التي استولى عليها العرب في هذه الموقعة على إنشاء أسطول مصري كان له أثر كبير في المواقع البحرية التي دارت بين المسلمين والبيزنطيين في أيام الأمويين . [اهـ من كتاب الولاة للكندي] .

ففي عهد عثمان صارت الخلافة الإسلامية دولة بحرية بما صار إليها من مراكب الروم وبما استحدثه معاوية وعبد اللّٰه بن سعد من المراكب ولم يكن من ذلك بد لحماية الثغور الإسلامية التي كان يشن الروم عليها الإغارة من وقت لآخر .

* * *

الأحوال الداخلية والفتن في عهد عثمان ﷺ

الأحوال الداخلية :

لابد من بسط القول فيما كانت عليه أحوال المسلمين في الأمصار المختلفة خصوصًا البصرة والكوفة ومصر ؛ لأن الفتنة الكبرى قد استخدم لها العامة من هذه الأمصار الثلاث .

روى الطبري عن الحسن البصري قال : كان عمر بن الخطاب قد حَجَرَ على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا بإذْنٍ وأَجَلٍ ، فشكوه فبلغه فقال : ألا إني سَنَنْتُ الإسلام سَنَّ البعير يبدأ فيكون جذعًا ثم ثنيًّا ثم رباعيًّا ، ثم سداسيًّا ثم بازلًا (أي يتطور من السن الأصغر إلى الأكبر) ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ؟ ألا وإن الإسلام قد نزل ، ألا وإن قريشًا يريدون أن يتخذوا مال اللَّه معونات دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حَيٌّ فلا ، إني قائم دون شِعْبِ الحرة آخذ بِحَلَاقِيمِ قريش وحُجزِها أن يتهافتوا إلى النار . فلما ولي عثمان لم يأخذهم بالذي يأخذهم به عمر فانساحوا في البلاد فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع من لم يكن له طول ولا مزية في الإسلام فكان مغمورًا في الناس وصاروا أوزاعًا إليهم وأمَّلوهم وتقدموا في ذلك فقالوا : يملكون فنكون قد عرفناهم وتقدمنا في التقرب والانقطاع إليهم ، فكان ذلك أول وهن دخل على الإسلام وأول فتنة كانت في العامة .

وقال الشعبي : لم يمت عمر حتى مَلَّتْه قريش وقد كان حصرهم بالمدينة فامتنع عليهم وقال : إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد ، فإن الرجل ليستأذنه في الغزو وهو ممن حبس بالمدينة من المهاجرين ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة فيقول : قد كان لك من غزوك مع رسول اللَّه ﷺ ما يبلغك ، وخير لك من الغزو اليوم ألَّا ترى الدنيا ولا تراك، فلما كان عثمان خلَّى عنهم فاضطربوا في البلاد وانقطع إليهم الناس فكان أحب إليهم من عمر .

وروى الطبري بسنده قال : لم تمض سنة من إمارة عثمان حتى اتخذ رجال قريش أموالًا في الأمصار،وانقطع إليهم الناس (أي صارت لهم أحزاب) .

ومن الضروري أن نشرح حال المسلمين في عهد عثمان ﷺ حتى يتضح كيف نتجت تلك الثورة المشؤومة التي جنى المسلمون مرَّها أحقابًا طويلة وهم إلى الآن في آلام شديدة من جرائها .

كانت عامة المسلمين حتى آخر حياة عمر ﷺ لا يعرفون الاختلاف بينهم إذ إن دواعي الاختلاف مفقودة وأكبر داعية لنزوع الشر بين العرب أن يختلف رؤساؤهم ثم لا توجد يد قوية شديدة تقف بالمختلفين عند الحد الذي لا ينبغي أن يتجاوزوه ، كانت روح

عمر تخيف الرؤساء وذوي الرؤوس النابغة فلا يجدون سبيلًا إلى نزاع أو شر إلى ما وقر في أنفسهم من الألفة الإسلامية ، ومتى أُمن اختلاف الكبراء فلا معنى للشقاق بين الرعية وظِلُّ العدلِ وارفٌ فوق رؤوسها .

ولي عثمان سعد بن أبي وقاص الكوفة وكان معه عبد اللّٰه بن مسعود على الخراج فاقترض سعد من ابن مسعود مالًا لأجل ولما حَلَّ الأجل جاء ابن مسعود يتقاضاه فلم يتيسر لسعد السداد فارتفع بينهما الكلام حتى استعان ابن مسعود بأناس من الرعية على استخراج المال واستعان سعد بأناس على استنظاره فافترقوا وبعضهم يلوم بعضًا : يلوم هؤلاء سعدًا ويلوم هؤلاء عبد اللّٰه بن مسعود .

بلغ هذا الشقاقُ عثمان فغضب على الرجلين فعزل سعدًا عن إمارة الكوفة وأبقى ابن مسعود على الخراج وولى الكوفة الوليد بن عقبة وكان على غرب الجزيرة عاملًا لعمر بن الخطاب ولما قدم الوليد كان محببًا إلى الناس ورفيقًا بهم .

وحدث في زمنه أن شبابًا من شباب الكوفة نقبوا على رجل منها داره وقتلوه ، وكان له جار قد أشرف على الحادث ورآه فاستصرخ الشرط ، فجاؤوا وقبضوا عليهم ، وفيهم زهير بن جندب الأزدي ، ومورع بن أبي مورع الأسدي ، وشبيل بن أبي الأذي ، فحوكموا وثبتت عليهم جريمة القتل فقتلوا ، فاضطغن آباؤهم لذلك على الوليد ، وصاروا يتحينون الفرص للإيقاع به .

وكان سمار يسمرون عنده ومنهم أبو زبيد الطائي ، وكان أبو زبيد نصرانيًّا ثم أسلم ، وكان معروفًا بشرب الخمر ، فأتى آت أولئك النفر الحاقدين على الوليد فقال لهم : هل لكم في الوليد يعاقر أبا زبيد الخمر ؟ فأذاعوا ذلك بين الناس حتى شاع على ألسنتهم فتوجهوا إلى ابن مسعود فأخبروه بذلك فقال ابن مسعود : من استتر عنا بشيء لم نتبع عورته ولم نهتك ستره ، فأرسل الوليد إلى ابن مسعود فعاتبه في ذلك وقال : أيرضى من مثلك بأن يجيب قومًا موتورين بما أجبت ؟ أي شيء أستتر به ؟ إنما يقال هذا للغريب ، فتلاحيا وافترقا على تغاضب ، ولم يكف ذلك أولئك القوم ، بل صَمَّمُوا على الذهاب إلى دار الخلافة بشكوى الوليد و الشهادة عليه بشرب الخمر ، فقدم من انْتُدِبا للشهادة على عثمان ﷺ ومعهما نفر يعرفهم عثمان ممن قد عزله الوليد عن الأعمال ، فأخبروه الخبر فقال : من يشهد ؟ فقالوا : فلان وفلان فسألهما : كيف رأيتماه ؟ قالا : كنا من غاشيته فدخلنا عليه وهو يقيء الخمر فقال عثمان ﷺ : ما يقيء الخمر إلا شاربها ، فأرسل عثمان إلى الوليد فأقدمه المدينة ، وأفتى عليٌّ بوجوب حده فحدوه حد

شارب الخمر ، وعزله عثمان وولي على الكوفة بدله سعيد بن العاص فخرج حتى أتى الكوفة ومعه أولئك النفر الذين أوقعوا بالوليد ، فلما وصلها صعد منبرها وقال لهم : واللّٰه إني قد بعثت إليكم وأنا كاره ، ولكني لم أجد بدًا إذ أُمِرْتُ أن أأتمر ، ألا إن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينيها ، و اللّٰه لأضربن وجهها أو تعييني ، وإني لرائد نفسي اليوم ، ثم نزل وسأل عن الكوفة وأهلها حتى خبرهم ثم كتب إلى عثمان ﷺ : إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وأمر أهل الشرف منهم البيوتات والسابقة والمقدمة .

والغالب على تلك البلاد روادف ردفت ، وأعراب لحقت حتى ما ينظر إلى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها .

فكتب إليه عثمان ﷺ : أما بعد . ففضل أهل السابقة و التقدمة ممن فتح اللّٰه عليه تلك البلاد ، وليكن من نزلها بسببهم تبعًا لهم إلا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق ، وتركوا القيام به وقام به هؤلاء ، واحفظ لِكُلٍّ منزلته ، وأعطهم جميعًا بقسطهم من الحق ، فإن المعرفة بالناس يصاب بها العدل .

فأرسل سعيد إلى وجوه الناس وأشرافهم من أهل الأيام و القادسية ، فقال لهم : أنتم وجوه الناس من ورائكم ، و الوجه يُنبئ عن الجسد ، فأبلغونا حاجة ذي الحاجة ، وخَلة ذي الخَلَة ، وأدخل معهم من يحتمل من اللواحق و الروادف وخلّص بالقراء والمستمعين لسمره ، فكأنما كانت الكوفة يبسًا شملته نار . فانقطع إلى ذلك الضرب ضربهم وفشت القالة والإذاعة و الفتنة وكتب سعيد إلى عثمان بذلك فجمع أهل المدينة وأخبرهم بما جاء من عند سعيد وبمقار تشاؤمه من حال أهل الكوفة واضطراب أمرهم .

وكان لسعيد مجلس خاصة : وهم من قدمنا صفتهم ، وكان في بعض الأحيان يجلس للناس جلوسًا عامًا ، ولا يحجب عن مجلسه أحد ، فبينما هو ذات يوم في مجلس العامة وهم يتحدثون إذ قال قائل : ما أجود طلحة بن عبيد اللّٰه ، فقال سعيد بن العاص : إن من له مثل النشاستج لحقيق أن يكون جوادًا ، واللّٰه لو أن لي مثله لأعاشكم اللّٰه عيشًا رغدًا ، فقال شاب حَدَث : و اللّٰه لوددت أن هذا المطاط لك (وهو ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذي يلي الكوفة) فقال الناس لذلك الشاب : فض اللّٰه فاك ، تتمنى له سوادًا ؟ ثم ثار إليه جماعة من سفائهم فيهم الأشتر النخعي وعمير بن ضابئ ونظراؤهما ، فأراد أبو الشاب أن يمنع عنه فضربوهما كليهما في مجلس سعيد ، وسعيد يناشدهم ، وكادت تكون فتنة عامة لولا أن هدأها سعيد ، ومنع أولئك النفر من غشيان مجلسه فامتنعوا ولا هَمَّ لهم إلا الوقيعة في سعيد من والاه ، فكتب أشراف أهل

الكوفة إلى عثمان بذلك وطلبوا منه إخراج هؤلاء النفر من الكوفة ، فأمر بنفيهم إلى الشام ليكونوا تحت نظر معاوية بن أبي سفيان ، فلما قدموا على معاوية أراد استصلاحهم بالمعروف وأكرمهم ، ثم قال لهم ذات يوم : إنكم قوم من العرب لكم أسنان ولكم ألسنة ، وقد أدركتم بالإسلام شرفًا ، وغلبتم الأمم وحويتم مراتبهم ومواريثهم ، وقد بلغني أنكم نقمتم قريشًا وإنَّ قريشًا لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم ، إن أئمتكم لكم إلى اليوم جُنَّة ، فلا تسدوا عني جُنتكم ، وإن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور ، ويحتملون منكم المؤونة و اللّه لتنتهن أو ليبتلينكم اللّه بمن يسومكم ثم لا يحمدكم على الصبر ، ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية في حياتكم وبعد موتكم . فردوا عليه ردًّا دل على تمكن الفتنة في رؤوسهم ، فرد عليهم معاوية ردًّا شديدًا ، وعلم أنهم لا يصلحون ، وقال لهم لما ظنوا أنفسهم في الكوفة : مه إن هذه ليست بأرض الكوفة ، واللّه إن رَأَى أهلُ الشام ما تصنعون وأنا إمامهم ما ملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم ، فلعمري وإن صنيعكم ليشبه بعضه بعضًا .

وكتب إلى عثمان بأنه لم يقدر على استصلاحهم ، وأنه لا يود بقاءهم في الشام ، فأمر عثمان بأن يسيرهم إلى حمص عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد .

فأدبهم عبد الرحمن تأديبًا شديدًا حتى أظهروا الرجوع و الندم ، فأمر عثمان أن يعيدهم إلى الكوفة ، فلما عادوا اشتد أمرهم في الوقيعة بعثمان وعماله ، وهؤلاء هم رؤوس الفتنة من أهل الكوفة ، وهم مالك بن الحارث الأشتر ، وثابت بن قيس النخعي ، وكميل بن زياد النخعي ، وزيد بن صوحان العبدي ، وجنوب بن زهير الغامدي ، وجندب بن كعب الأزدي ، وعروة بن الجعد ، وعمر بن الجعد ، وعمر بن الحمق الخزاعي .

وفي آخر عهد عثمان خرج سعيد إليه ليبلغه أحوال الكوفة ، ولما أراد العودة خرج إليه أولئك الناس ومن استغووه ، وقالوا : و اللّه لا يدخلها علينا واليًا أبدًا ، ولما علم بذلك عثمان عزله عنهم وولى عليهم أبا موسى الأشعري حسب طلبهم .

هكذا كان الحال بالكوفة غلب فيها الغوغاء أهل الحلم وضعف سلطان الأمراء وقوة الطاعة لم يبق لها في نفوس القوم من أثر .

وفي البصرة التي هي الحاضرة الثانية للعراق لم تكن الحال خيرًا من ذلك .

ففي سنة ٢٩ هاج أهلها على أبي موسى الأشعري عاملهم ، واستعفوا عثمان منه ، فعزله عنهم ، وولى بدله عبد اللّه بن عامر ، وكان له في أعمال الفتوح بالكوفة أثر جيد ، وكانت إمارته تشمل أعمال البصرة وأعمال البحرين ، ولثلاث سنين من إمارته بلغه أن

في عبد القيس رجلًا نازلًا على حكيم من جبلة ، وكان حكيم رجلًا لصًا إذا قفلت الجيوش خنس عنهم فسعى في أرض فارس ليغير على أهل الذمة ، ويتنكر لهم ، ويفسد في الأرض ، ويصيب ما يشاء ثم يرجع ، فشكاه أهل الذمة و أهل القبلة إلى عثمان ، فكتب إلى ابن عامر يأمره بحبس حكيم ومَن كان مثله بالبصرة ، فلا يخرجَنَّ منها حتى تأنسوا منه رَشَدًا ،فكان لا يستطيع أن يخرج منها .

فلما قدم ذلك الرجل المسمى عبد اللَّه بن سبأ ويكنى بابن السوداء نزل عليه وكان يلقي إلى الناس في السر تعاليم خبيثة ، وأصل هذا الرجل يهودي أظهر الإسلام ليضل الناس ، فصار يقول لهم : عجبت ممن يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة محمد ، فيقبل منه الناس ذلك ، ويقول لهم : عجبًا لكم أيها المسلمون يكون فيكم أهل بيت نبيكم ثم يُقْصَون عن أمركم ، إلى ما يماثل هذا الكلام الذي يسهل قبوله ؛ لأنه جاءهم من قِبَل تعظيم نبيهم ورفعة مقامهم على سائر الأنبياء ، ثم ما هو قريب من ذلك من استهجان ترك آله وإقصائهم عن أمر خلافته ، فبلغ شيء من خبره عبد اللَّه بن عامر ، فأحضره وسأله : من أنت ؟ فقال : رجل من أهل الكتاب رغب في الإسلام ورغب في جوارك ، فقال : ما ينبغي ذلك فاخرج عني ، فخرج حتى أتى الكوفة فأُخرج منها ، فسار إلى مصر ، وهناك وجد مهده بعد أن نفث ما نفث بالعراق .

أما الأمر في مصر فقد كان أشد مما في العراق فإن ابن سبأ لما جاءها ألقى إلى الناس تعاليمه ، ومن ضمنها أنه كان للَّه ألف نبي ووصي ، وكان عليٌّ وصيَّ محمد ، ثم قال : محمد خاتم الأنبياء ، وعليٌّ خاتم الأوصياء ، ثم بعد ذلك من أظلم ممن لم يجز وصية رسول اللَّه ﷺ ، ووثب على وصيه ، وتناول أمر الأمة ؟

ثم قال بعد ذلك : إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا علي وصي رسول اللَّه ﷺ ، فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وابدأوا بالطعن على أميركم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر .

فبث دعاته ، وكاتب من كان استُفْسِد في الأمصار ، وكاتبوه ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم ، وأظهروا الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيب ولاتهم ، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم ، حتى تناولوا بذلك المدينة ، وأوسعوا الأرض إذاعةً ، وهم يريدون غير ما يُظْهرون ، ويُسِرون غير ما يُبْدون ، فيقول أهل كل مصر : إنا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء الناس إلا

أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فأتوا عثمان فقالوا : يا أمير المؤمنين يأتيك عن الناس الذي يأتينا ؟ فقال : لا و اللَّه ما جاءني إلا السلامة فأخبروه بما جاءهم ، فأشاروا عليه أن يبعث إلى الأمصار من يستقي أخبارها ويعلم علم ما فيها ، فندب لذلك رجالًا سيرهم إلى الأمصار .

فسير محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وأسامة بن زيد إلى البصرة ، وعبد اللَّه بن عمر إلى الشام ، وعمار بن ياسر إلى مصر وفرق رجالًا سواهم في البلاد الأخرى فأقبل جميعهم ، إلا عمارًا ، فقالوا : أيها الناس ما أنكرنا شيئًا و لا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم ، أما عمار فقد ورد إلى عثمان كتاب من عبد اللَّه بن سعد بن أبي سرح أمير مصر يخبره فيه أنه قد استماله قوم بمصر وانقطعوا إليه ، منهم عبد اللَّه بن السوداء وخالد ابن ملجم ، وسودان بن حمران وكنانة بن بشر .

وكان من أشد المؤلبين على عثمان بمصر رجلان : **الأول** : محمد بن أبي حذيفة ، وكان الذي دعاه إلى ذلك أنه كان يتيمًا في حجر عثمان ، فكان عثمان والي أهل بيته ومحتمل كَلِّهم ، فسأل محمد عثمان ﷺ العملَ حين وُلِّيَ فقال : يا بني لو كنت رضِيًّا ثم سألتني العمل لاستعملتك ولكن لست هناك ، قال : فأذن لي فلأخرج فلأطلب ما يقوتني ، قال : اذهب حيث شئت ، وجهزه من عنده وحمله ، وأعطاه ، فلما وقع إلى مصر كان فيمن تغير عليه ؛ لأنه منعه الولاية .

والثاني : محمد بن أبي بكر ، وقد كان من الإسلام بالمحل الذي هو به ، وغره أقوام فطمع ، وكانت له دالة على عثمان ، فلزمه حد من حدود اللَّه فأخذه عثمان من ظهره ولم يداهن ، فاجتمع هذا إلى هذا فصار كما يقول سالم بن عبد اللَّه بن عمر : مُذَمَّمًا بعد أن كان محمدًا وإنما مال إليهم عمار بن ياسر لأنه كان كذلك حاقدًا على عثمان ، فقد قال سعيد بن المسيب إنه كان بينه وبين عباس بن عتبة بن أبي لهب كلام ، فضربهما عثمان وكان قذفًا .

أما الحال في الشام : فقد كانت أحسن الأحوال لما عُرف به معاوية من الحزم والضبط إلا أنه كان فيها حادثة استعملها أولئك الضالون في التشنيع على عثمان وعماله .

وذلك أن ابن السوداء لما أتى الشام جاء أبا ذر ، فقال : يا أبا ذر ، ألا تعجب من معاوية يقول : المال مال اللَّه ألا إن كل شيء للَّه كأنه يريد أن يحتجنه (يختص به نفسه) دون المسلمين ويمحوَ اسم المسلمين ، فأتاه أبو ذر فقال:ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال اللَّه ؟ قال : يرحمك اللَّه يا أبا ذر ، ألسنا عباد اللَّه والمال ماله والخلق

خلقه والأمر أمره ؟ قال : فلا تقله ، قال : فإني لا أقول : إنه ليس لله ، ولكن سأقول : مال المسلمين .

ثم أتى ابنُ السوداء أبا الدرداء ، فقال له أبو الدرداء : من أنت ؟ أظنك يهوديًّا ، ثم أتى عبادة بن الصامت فتعلق به وأتى به إلى معاوية ، فقال : هذا و الله الذي بعث عليك يا أبا ذر ، ثم أقام أبو ذر بالشام وجعل يقول : يا معشر الأغنياء ، واسوا الفقراء ، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من النار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، فما زال حتى ولِعَ الفقراء بمثل ذلك ، وأوجبوه على الأغنياء ، وحتى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس ، فكتب معاوية إلى عثمان بذلك ، فأمره عثمان أن يجهز أبا ذر ، فأرسله إليه ، فلما قدم عليه ورأى المجالس في أصل سَلْع قال : بَشِّر أهل المدينة بغارة شوهاء وحرب مِذْكار ، ولما دخل على عثمان قال : يا أبا ذر ، ما لأهل الشام يشكون ذَرَبَ لسانك ؟ (انتقاده لهم) فأخبره أنه لا ينبغي أن يقال : مال الله ، و لا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالًا ، فقال : يا أبا ذر ، عليَّ أن أقضي ما عليَّ وآخذ ما على الرعية ولا أجبرهم على الزهد ، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد و الاقتصاد .

وكان هذا الرأي الاشتراكي متمكنًا من أبي ذر وقد وجد الخليفة أنه رأيٌ يخص قائله ، فأمر أبا ذر أن يخرج إلى الرَّبَذَة فيقيم بها ، ويقال : إن أبا ذر هو الذي طلب منه ذلك ، فسيره وأجرى عليه رزقًا ، وعلى رافع بن خديج مثله ، وقد توفي أبو ذر بالرَّبَذة سنة (٣٢ هـ) ، وكان من السابقين إلى الإسلام .

أما الحال في المدينة : فقد كانت تلك الكتب التي يرسلها السبئيون سببًا لكثرة الحديث في عمال عثمان وفشوِّ القالة حتى تأثرت بذلك نفوس الكثير منهم ، وفيهم من هو حاقد على عثمان لأسباب تخصه ، وقد بلغ الحال أن بعضهم واجه عثمان بما يسوؤه من الكلام فكان يتحمل ذلك بصبر جميل .

لما رأى عثمان كثرة الكلام أرسل إلى عماله بالأمصار أن يوافوه جميعًا بالموسم فقدموا عليه : عبد الله بن عامر ، ومعاوية ، وعبد الله بن سعد ، وأدخل معهم في المشورة سعيد بن أبي العاص ، وعمرو بن العاص ، فقال لهم : ويحكم ما هذه الشكاية ؟ وما هذه الإذاعة ؟ إني و الله لخائف أن تكونوا مصدوقًا عليكم (وما يعصب هذا إلا بي) فقالوا له : ألم تبعث ؟ ألم يرجع إليك الخبر عن القوم ؟ ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشيء ؟ لا ، والله ما صدقوا ولا بروا ولا نعلم لهذا الأمر أصلًا ، ما كنت لتأخذ به أحدًا فيقيمك على شيء ، وما هي إلا إذاعة لا يحل الأخذ بها ولا الانتهاء

إليها ، قال : فأشيروا عليَّ ، فقال سعيد بن العاص : هذا أمر مصنوع يصنع في السر فيلقى به غيرُ ذي المعرفة فيخبر به فيتحدث به الناس في مجالسهم ، قال : فما دواء ذلك ؟ قال : طلب هؤلاء القوم ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم .

وقال عبد اللّه بن سعد : خذ من الناس الذي عليهم إذا أعطيتهم الذي لهم فإنه خير من أن تدعهم .

وقال معاوية : قد وليتني فوليت قومًا لايأتيك عنهم إلا الخير والرجلان أعلم بناحيتيهما ، قال : فما الرأي ؟ قال :حسن الأدب . قال : فما ترى يا عمرو ؟ قال : أرى أنك قد لِنْتَ لهم وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر ، فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك فتشتد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين ، إن الشدة تبتغى لمن يألو الناس شرًّا ، واللين لمن يخلف الناس بالنصح وقد فرشتهم جميعًا باللين .

فترون أن جميعهم أشاروا عليه باستعمال الشدة مع هؤلاء الذين لا همَّ لهم إلا إذاعة الأكاذيب لتنفيذ أغراض في أنفسهم ، فقال لهم عثمان : كل ما أشرتم به عليَّ قد سمعت ولكل أمر باب يؤتى منه ، إن هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمة كائن وإن بابه الذي يغلق عليه فيكفكف به اللين و المؤاتاة و المتابعة إلا في حدود اللّه التي لا يستطيع أحد أن يبادئ بعيب أحدها ، فإن سده شيء فرفق فذاك ، و اللّه ليُفْتَحَنَّ وليست لأحد عليَّ حجة حق ولقد علم اللّه أني لم آل الناس ولا نفسي ، واللّه إن رحا الفتنة لدائرة ، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها كفكفوا الناس ، وأعطوهم حقوقهم ، واغتفروا لهم ، وإذا تعوطيت حقوق اللّه فلا تدهنوا فيها ، ثم رد الأمراء إلى أعمالهم ولم يأمر بشيء مما أشاروا به ، وقد عرض معاوية على عثمان أن يسير معه إلى الشام فأبى ، وقال : لا أبيع جوار رسول اللّه ﷺ بشيء وإن كان فيه قطع خيط عنقي ، فعرض عليه أن يرسل إليه جندًا يقيمون معه بالمدينة للمحافظة عليه فأبى وقال : لا أقتر على جيران رسول اللّه ﷺ الأرزاق بجندٍ يساكنهم وأضيق على أهل الهجرة والنصرة .

* * *

وفد الفتنة في حضرة عثمان رضي الله عنه

كان التصميم الذي دبره السبئية أن يثوروا بعد مبارحة أمرائهم للأمصار فلم يتهيأ لهم ذلك ولم ينهض إلا أهل الكوفة ، فقد خرجوا بحجة أنهم يستعفون عثمان من سعيد بن العاص ، فخرجوا حتى إذا قابلوا سعيدًا بالجرعة ردوه واجتمع الناس على أبي موسى

الأشعري ، وأقره عثمان ، ولما رجع الأمراء لم يكن للسبئية سبيل إلى الخروج ، فكاتبوا أشياعهم من أهل الأمصار أن يتوافوا بالمدينة لينظروا فيما يريدون وأظهروا أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويسألون عثمان عن أشياء لتطير في الناس ولتحق عليه ، فخرجت وفود من الأمصار الثلاثة حتى قاربت المدينة ، فلما علم عثمان بمجيئهم أرسل إليهم رجلين ليعلما علم القوم وماذا يريدون ؟ وكان الرجلان ممن ناله أدب من عثمان فاصطبرا ولم يضغنا ، فلما رآهما أولئك القادمون أخبروهما بما يريدون ، فقالوا : إنا نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنا قررناه بها فلم يخرج منها ولم يتب ، ثم نخرج كأنا حجاج حتى نقدم فنحيط به فنخلعه ، فإن أبى قتلناه .

فرجع الرجلان إلى عثمان وأخبراه الخبر فضحك ، ثم أحضر هؤلاء القوم وجمع الناس وأخبرهم خبر القوم ، فأشار عليه بعض المشيرين منهم أن يقتلهم ، فقال عثمان : بل نعفو و نقبل ونبصرهم بجهدنا ولا نحاد أحدًا حتى يركب حدًّا أو يبدي كفرًا ، إن هؤلاء ذكروا أمورًا قد علموا منها مثل الذي علمتم ، ألا إنهم زعموا أنهم يذكرونيها ليوجبوها عليَّ عند من لا يعلم قالوا : أتمَّ الصلاة في السفر وكانت لا تتم ، ألا وإني قدمت بلدًا فيه أهلي فأتممت في هذين الأمرين أوَ كذلك هو ؟ قالوا : نعم .

وقالوا : حميت حمى : وإني والله ما حميت حمى قبلي ، والله ما حموا شيئًا لأحد ، ما حموا إلا ما غلب عليه من أهل المدينة ، ثم لم يمنعوا من رعيه أحد واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع ثم ما منعوا ولا نحوًا منها أحدًا إلا من ساق درهمًا ، ومالي من بعير غير راحلتين ، ومالي من ثاغية ولا راغية ، وإني قد وليت وإني أكثر العرب بعيرًا و شاة فمالي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجي أكذلك هو : قالوا : اللهم نعم .

وقالوا : كان القرآن كتبًا فتركتها إلا واحدًا ألا وإن القرآن واحد جاء من عند واحد وإنما أنا في ذلك تابع لهؤلاء أكذلك هو ؟ قالوا : نعم .

وقالوا : إني رددت الحكم وقد سيره رسول الله ﷺ . والحكم مكي سيره رسول الله ﷺ من مكة إلى الطائف ثم رده رسول الله ﷺ فرسول الله ﷺ سيَّره ورسول الله رده أكذلك هو ؟ قالوا : نعم .

وقالوا : استعملت الأحداث ولا أستعمل إلا مجتمعًا محتملًا مرضيًّا وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه ، وهؤلاء أهل بلده ولقد ولِّي مَنْ قبْلي أحدثَ منهم .

وقيل في ذلك لرسول الله ﷺ أشد مما قيل لي في استعماله أسامة ، قال : أكذلك

هو ؟ قالوا : نعم .

وقالوا : إني أعطيت ابن أبي سرح ما أفاء اللَّه عليه وإني إنما نفلته خمس ما أفاء اللَّه عليه من الخمس ، وكان مائة ألف ، وقد نفل مثل ذلك أبو بكر وعمر ، فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم ، وليس ذلك لهم أكذلك هو ؟ قالوا : نعم .

وقالوا : إني أحب أهل بيتي وأعطيهم فأمَّا حبي فإنه لم يكن معهم على جور بل أحمل الحقوق عليهم ، وأما إعطاؤهم فإني إنما أعطيهم من مالي ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس ، ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي أزمان رسول اللَّه ﷺ وأبي بكر وعمر ، وأنا يومئذ حريص شحيح أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي وفني عمري وودعت الذي لي في أهلي قال الملحدون ما قالوا وإني واللَّه ما حملت على مصر من الأمصار فضلًا فيجوز ذلك لمن قاله ولقد رددته عليهم ، وما قدم إلا الأخماس ولا يحل لي منها شيء ، فولي المسلمون وضعها في أهلها دوني ولا تبلغت من مال اللَّه بفلس فما فوقه وما أتبلغ منه ما آكل إلا من مالي .

وقالوا : أعطيت الأرض رجلًا وإن هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتتحت فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله ومن رجع إلى أهله لم يذهب ذلك ما حوى اللَّه له فنظرت في الذي يصيبهم مما أفاء اللَّه عليهم فبعته لهم بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب فنفلت إليهم نصيبهم فهو في أيديهم دوني .

وكان عثمان ﷺ قد قسم ماله وأرضه في بني أمية وجعل ولده كبعض من يعطى فيه فبدأ ببني أبي العاص فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف فأخذوا مائة ألف وأعطى بني عثمان مثل ذلك ، وقسم في بني العاص وفي بني العيص وفي بني حرب ولانت حاشية عثمان لأولئك الطوائف .

* * *

اتفاق المتآمرين على الهجوم على المدينة

اكتفى عثمان ﷺ بهذا الدفاع عن نفسه ولم يفعل شيئًا مع ذلك الوفد بل أعادهم إلى أمصارهم ، فكاتبوا بينهم ، واتفقوا على أن يخرجوا من أمصارهم كأنهم عمار ثم يوافوا بالمدينة لتنفيذ ما عزموا عليه .

فخرج أهل مصر في أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم بين الستمائة والألف وأميرهم جميعًا الغافقي بن حريب العكي ، ولم يتجرئوا أن يُعلموا الناس بخروجهم إلى

الحرب ، وإنما خرجوا كالحجاج ومعهم ابن السوداء .

وخرج أهل الكوفة في أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعًا عمرو بن الأصم .

وخرج أهل البصرة في أربع رفاق وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعًا حرقوص ابن زهير السعدي .

وكانت أهواء أهل الأمصار الثلاثة مختلفة ، فأهل البصرة كانوا يريدون طلحة ؛ لأن ضياعه كانت ببلدهم ، وأهل الكوفة كانوا يريدون الزبير ، وأهل مصر كانوا يريدون عليًا ، لتعاليم ابن السوداء ولوجود ابن أبي بكر ، وهو ربيب علي ﷺ وابن أبي حذيفة بينهم .

ولما كان من المدينة على ثلاثة تقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا ذا خُشب ، وناس من أهل الكوفة فنزلوا الأعوص وجاءهم هناك ناس من أهل مصر ،وتركوا عامتهم بذي المروة ، واتفقوا جميعًا أن يُقَدموا روادًا ليدخلوا المدينة وينظروا هل وصل المدينة خبرهم؟ لأنهم كانوا يخافون أن يستعد لهم أهل المدينة بحرب ، فأرسلوا لذلك رجلين ، فلما دخلا المدينة كلما عليًا وطلحة والزبير وقالا : إنما نأتم هذا البيت ونستعفي هذا الوالي من بعض عمالنا ، ما جئنا إلا لذلك واستأذناهم للناس بالدخول ، فكلهم أبى ذلك عليهما فرجع الرائدان إلى قومهما وأخبراهم الخبر ، فاجتمع من أهل مصر نفر أتوا عليًا ، ومن أهل البصرة نفر أتوا طلحة ، ومن أهل الكوفة نفر أتوا الزبير ، فسلم المصريون على عليّ ﷺ وعرضوا له بالأمر فرد عليهم ردًا شديدًا ، وكذلك فعل طلحة و الزبير بمن جاءهم فخرج القوم وأروهم أنهم راجعون حتى انتهوا إلى عساكرهم وهي على ثلاث مراحل كي يفترق أهل المدينة ثم يكروا راجعين ، فافترق أهل المدينة لخروجهم ، فلما بلغ القومُ عساكرهم كروا بهم فبغتوهم فلم يفجأ أهل المدينة إلا والتكبير في نواحيها فنزلوا مواضع عساكرهم وأحاطوا بعثمان ، وقالوا : من كف يده فهو آمن فلزم الناس بيوتهم ، فأتاهم عليّ ﷺ فكلمهم ، وقال : ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم ؟ فقال المصريون : أخذنا مع البريد كتابًا بقتلنا ، وقال الكوفيون و البصريون : جئنا ننصر إخواننا كأنما كانوا على ميعاد ، فقال لهم عليّ ﷺ كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم مراحل ثم طويتم نحونا ؟ هذا – والله – أمر أبرم بالمدينة . قالوا : فضعوه كيف شئتم لا حاجة لنا في هذا الرجل ليعتزلنا ، ثم قالوا لعليّ : إن الله قد أحل لنا دم هذا الرجل ، قم معنا إليه ، قال : و الله لا أقوم معكم . إلى إن قالوا : فلمَ كتبت إلينا ؟ فقال عليّ : والله ما كتبت لكم كتابًا ، فنظر

بعضهم إلى بعض (تأملوا كيف استغل المفسدون اسمه ليهيجوا الناس) ثم تركهم عليٌّ وخرج من المدينة ، ثم دخلوا بالكتاب على عثمان فقالوا : كتبت فينا بكذا وكذا فقال : إنما هما اثنتان أن تقيموا علي رجلين من المسلمين (يشهدان بذلك) أو يميني بالله لا إله إلا هو ما كتبت ولا أمليت ولا علمت ، وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل ، وقد ينقش الخاتم على الخاتم فقالوا : قد - والله - أحل الله دمك ونقضت العهد والميثاق ، فتركهم عثمان .

وكان القوم يحاولون منه أن يخلع نفسه من الخلافة وهو يأبى ، وكان لا يزال يصلي بهم ، ثم منعوه من الصلاة في المسجد وحصروه في داره وكان عثمان بدون ريب يفكر وهو محصور أن علي بن أبي طالب لم يفعل ما يمكنه لرد هؤلاء الناس ، فكانت بينهما المراسلات يطلب إليه فيها أن يجتهد في تخفيف هذا الحصار عنه .

ومن ذلك : ما رواه أبو العباس محمد بن يزيد المبرد في كتابه « الكامل » : أن عثمان كتب إلى علي وهو محصور : أما بعد فقد بلغ السيلُ الزُّبى وجاوز الحِزامُ الطُّبْيين وبلغ الأمر أشده . ثم تمثل بهذا البيت :

فإن كنت مأكولًا فكن خير آكلٍ وإلا فأدركني ولـمّا أُمَزَّقِ

كانت حاشية عثمان من بني أمية ترى أن لعلي ضلعًا في هذا الأمرفكانت الوجوه تتقابل عابسة وتبدي عما في القلوب العيونُ ، فلم يكن هناك سبيل لعمل صالح في مصلحة المسلمين ، وقد أدت الحال إلى أن ترك عليٌّ المدينة رأسًا ، وفي هذه الفتنة التي نظن أنه لم يمكن قمعها إلا أنه كان هناك شيء واحد في هذا الوقت الحرج ، وهو تناسي كل ما في النفوس ؛ لأن الأمر كان أعظم من أن يذكر كل فريق عيب صاحبه ، ولا يغيب عن الفكر أن رؤوس المسلمين لو كانت متفقة تمامًا لأمكنهم أن يقاوموا هذا السيل الذي أقبل عليهم ، ولكن القلوب كانت قد انصدعت ألفتها فغلب السفهاء على الأمر وفعلوا ما فعلوا ، لو كان هناك نظر بعيد لرؤوس المسلمين الذين كانوا بالمدينة وفيهم القواد العظام والأئمة الأعلام لما كان لسفهاء الأمصار مهما كثر عددهم أن ينفذوا رغبتهم التي فرقت كلمة المسلمين .

استمر الحصار على عثمان ﷺ واشتد عليه حتى منعوه الماء فكان لا يصل منه إليه شيء إلا خفية ، وكان عثمان يطل عليهم من آن لآخر ، ويعظهم فلا تؤثر فيهم الموعظة ثم شددوا عليه الحصار لما بلغهم أن جندًا من الأمصار أقبلت لنصر عثمان .

وفي أثناء الحصار ولّى عبدَ الله بن عباس موسم الحج وكتب معه كتابًا مطولًا يقرؤه

على المسلمين في الموسم ويعلمهم بما هو فيه ، فسار ابن عباس أميرًا على هذا الموسم فقرأ الكتاب على المسلمين ولكن ذلك جاء بعد أن فات الوقت .

أراد المحاصرون التعجيل بالأمر خوفًا من خطر يفاجئهم فأحرقوا أبواب الدار ، ومنهم من تسور من دار ابن حزم وكان جارًا له ، ولما رأى ذلك عثمان ﷺ استسلم للقضاء وأمر من يريد الدفاع عنه أن ينصرف وهم قليلون لا يغنون شيئًا ، ودخل عليه جماعة فيهم محمد بن أبي بكر مريدًا قتله ، فلم يصنع شيئًا فتقدم غيره فضربه الغافقي بحديدة كانت معه ، وجاء سودان بن حمران ليضربه فأكبت على عثمان زوجه البارة نائلة بنت الفرافصة ، واتقت السيف بيدها فتعمدها ونفح أصابعها فقطع أصابع يدها . ثم أهوى له بعضهم فضرب عنقه ، وانتهبوا ما في البيت وأخرجوا من فيه ، ثم أتوا بيت المال فانتهبوه ، وأذاعوا في المدينة خبر قتله ، وكانت مدة حصاره اثنين وعشرين يومًا ، وكان قتله لثمان عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ٣٥ (٢٠ مايو سنة ٦٥٦ م) وذلك افتتاح التاريخ المشؤوم اهـ .

[تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ملخصًا من الكامل لابن الأثير وتاريخ الأمم للطبري] .

* * *

إجمال الأسباب التي أدت إلى قتل عثمان

السبب الأول :

مهما كانت رؤساء الأمة مخلصين بعضهم لبعض يتعاونون فيما بينهم على قضاء المصالح العامة فقلما يجد مريد السوء سببًا للفتن والثورات ، وإذا انصدع شمل القلوب وحلت الكراهية محل المحبة والتحاسد محل التناصر انفسح المجال لرواد الفتن ومحبي الاضطراب وعلى هذا كان الحال في المدينة حاضرة الخلافة ومجمع رؤساء المسلمين والمرشحين منهم لولاية الأمر ، فإن من يتصفح أحوالهم وما كان يبدو على ألسنتهم من الكلمات الشديدة المؤلمة في حق عثمان سواء في وجهه أو في غيبته يحكم أن النفوس قد انطوت على كراهته حتى كانوا يلقبونه في بعض الأحيان (نعثلا) ونعثل رجل مصري كان طويل اللحية شبهوه به للغض منه ويقول في لسان العرب : إنهم لم يجدوا فيه عيبًا سوى هذا وحتى قام من بينهم رجل أخذ العصا التي كان عثمان يخطب عليها فكسرها وهي عصا رسول اللّٰه ﷺ ، وقد أُثِرت كلمات في حق عثمان ﷺ عن كثير من كبراء المدينة . كل ذلك يقال ويفعل من غير بيان الأسباب التي أدت بهم إلى مثل هذا ومن غير نظر إلى ما تحدثه هذه الكلمات بين العامة خصوصًا إذا صادفت مهيجين مثيرين .

السبب الثاني :

كان عثمان ﷺ معروفًا بخلق الحياء واللين ، أما الحياء فقد كان مشهورًا به في جاهليته وإسلامه حتى قال في حقه رسول اللّٰه ﷺ : « **ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة** » وخلق الحياء يحمل صاحبه على الإغضاء عن كثير مما يكره . أما اللين : فإن الرجل كان كثير التشاؤم يخاف الفتن على المسلمين ، ويود أن لا يكون فتح بابها على يده ، يعرف ذلك مَن استقرأ خطبه وكتبه حتى أن خطبته التي قالها على المنبر لأول مرة لم تخل من هذا . دعاه الخلق الأول إلى التسامح مع من يناله منهم أذى في حق نفسه فلا يوجه إلى واحد منهم كلمة تسوؤه ، وهذا وإن حسن عند الحكماء فإنه لا يحسن أبدًا في سياسة الرعية ، بل لا بد لمقام الخلافة من هيبة في القلوب تقف بالناس عند الحد اللائق بهم ، انظروا إلى ما فعله عمر ﷺ مع سعد بن أبي وقاص حينما زاحم الجموع المحيطة بعمر ووصل إليه مدلًا بمركزه فإنه خفقه بالدرة وقال : جئت لا تهاب سلطان اللّٰه في أرضه فأحببت أن أعلمك أن سلطان اللّٰه لا يهابك . فلابد لسلطان اللّٰه من قوة تمنع عنه ضعفًا أو ذِلة .

والخلق الثاني جعله يمتنع عن عمل أي تدبير لمعاقبة المفسدين الذين رُفعوا إليه وثبت أنهم يدبرون حركة الفتنة من غير مبالاة . وأشار عليه ولاته حينما جمعهم لديه بالموسم أن يستعمل الشدة مع أولئك الذين يثيرون العامة بما يضعونه من الأحاديث الملفقة ، وكانت كلمة العمال في ذلك واحدة ، فلم يعبأ بقولهم بل اختار اللين على الشدة لئلا يكون فاتحًا باب الفتنة الذي يخيفه ثم جاءه بالمدينة نفر من أولئك الناس ، وعلم مقصدهم وأشار عليه مشيره من أهل المدينة بعقوبتهم فلم يفعل بل اكتفى بأن دافع عن نفسه أمامهم بتلك الخطبة التي نقلت عنه ثم تركهم يعودون إلى بلادهم فما زادهم ذلك إلا فسادًا ؛ لأنهم ليسوا بطلاب حق تنفعهم الذكرى وتقنعهم الحجة ، وإنما هم طلاب شر يتطلبون الطريق إليه فكلما أعجزهم باب عدلوا إلى غيره .

السبب الثالث :

ما خالف به عثمان صاحبه عمر ﷺ في أعلام قريش فإن عمر كان يحجر عليهم في المدينة فلا يسمح لهم أن يبارحوها إلا بإذن وأجل ، فلما جاء عثمان سمح لهم بذلك وكان هذا لهم مما حببه إليهم ولكن ترتب عليه ما خافه عمر ، فإنه قد اجتمع إليهم أُناس ممن لا سابقة لهم في الإسلام ، والتصقوا بهم ، وتقربوا إليهم حتى إذا كان الأمر لهم في يوم من الأيام كانوا أقرب الناس إليهم ، فَنَبُه بذلك ذكرهم ، وإلا فلماذا كان أهل البصرة يريدون طلحة ، وأهل الكوفة يريدون الزبير ، وأهل مصر يريدون عليًا ؟ صحيح أن عليًا لم يجيء مصر ولكن جاءها من هو أمس الناس به رحمًا وهو محمد بن أبي بكر (ربيبه) لأن أمه أسماء بنت عميس تزوجها عَلِيٌّ بعد موت أبي بكر ، وكان محمد في حجرها فرباه علي ﷺ ، فلم تكن طلبات أهل الأمصار إلا نتيجة لما فعله عثمان و انقطاع العامة إلى أولئك أو لمن هو منهم بسبيل حتى يكون لهم شأن إذا انتقلت الخلافة إلى صاحبهم ؛ ولذلك لما تم لصاحب المصريين ولم يتم للآخرين اجتمعا عليه .

ولا يمكن لمن قرأ تفصيل الحوادث التي سبقت قتل عثمان أن ينفي عن أعلام قريش تطلعهم إلى ولاية الأمر ، ولكن من الصعب أن يثبت على أحدهم اشتراك حقيقي مع المتآمرين ، والذي يؤخذ عليهم هو هوادتهم في القيام بنصرة عثمان خليفة المسلمين واسترسال بعضهم في الأقوال التي تحط من قدره حتى وقت اشتداد الأزمة وعلى مسمع من رؤساء الثائرين الذين يشتد هياجهم بمثل هذه الكلمات .

السبب الرابع :

سهولة التأثير في الجماعات متى أُتُوا من قِبَل ما يهوون وما يحبون ، وهم في هذه الأحوال لا يصبرون حتى يتثبتوا مما يلقى عليهم بل سرعان ما يصدقونه ويألمون له إن كان مؤلمًا ويُسرُّون إن كان سارًّا .

كان الناس مسلمين يحبون نبيهم أكثر مما يحبون أنفسهم ، عربًا يحبون العدل والمساواة كما عوَّدهم عمر ، فجاءهم ذلك الشيطان عبد الله بن سبأ من الجهة التي يألفونها وهي نقطة ضعفهم ، وصار يضع لهم الكلام في تعظيم الرسول وأهل بيته ويعسوبهم علي بن أبي طالب وَصِيّ رسول الله ﷺ كما كان لكل نبي وصي وأنه من اللازم أن يعطي الأمر لصاحب الحق ؛ لأن من اجترأ عليه فأخذه منه ظالم غاشم ،ثم صار يزيد على ذلك ما يدسه مدحًا لعلي بن أبي طالب حتى علا به إلى درجة لم يطلبها عَلِيٌّ لنفسه ، ومثل هذا الكلام يسهل إدخاله في القلوب خصوصًا إذا كان قد سبقه شيء من الضغينة على من بيده أمر الخلافة ، ولذلك نرى الرجل كان يتتبع مَن أصابهم من ولاة عثمان أذى في نفسه أو ماله ، ثم جاءهم من قِبَل العدل و المساواة فصار يطعن أمراء عثمان مرة بأنهم شبان ، ومرة بأنهم من ذوي قرباه ، ومرة بأنهم ظلمة يسومون الناس خسفًا ، والذين كانوا يؤيدونه لأغراض في أنفسهم اشتغلوا في الأمر بمهارة فصارت شيعتهم في كل مصر تكتب إلى المصر الآخر بما عندهم من المحزنات فَيُقْرأ كتابهم على العامة علنًا فيستغيثون بالله مما حل بأهل ذلك المصر ، ومن ذلك المصر نفسه .

تكتب كتب برسل إلى المصر الأول فتقرأ على العامة فيستغيثون بالله مما حل بإخوانهم ويقولون : نحن في عافية مما ابتلي به هؤلاء الناس حتى أمكنهم أن يوغروا صدر العامة التي تجتمع عليهم وليس لما يكتبون صحة ، فقد كانوا يعيبون معاوية وهذا لم يوجده عثمان بل ولاه رسول الله ﷺ وولاه أبو بكر ، وولاه عمر ، ولم نر من العمال من استمر موثوقًا به من عُمَرَ حياتَه كلها إلا أفرادًا قلائل منهم معاوية بن أبي سفيان ، فقد كان واليًا من أول حياة عمر إلى آخرها ، وكانت الشام أعدل ولايات المسلمين وأهدأها .

وكانوا يعيبون عبد الله بن سعد بن أبي السرح لا لأنه ظالم أو جائر وإنما لأمر آخر وهو أن النبي ﷺ حكم بقتله يوم الفتح ثم استوهبه منه عثمان فعفا عنه ، ولم يعلموا أن الرسول ﷺ كان إذا عفا فإنما جرَّ على الذنب سترًا لا يزول .

وكانوا يعيبون مثل الوليد بن عقبة وهذا كان واليًا لعمر بن الخطاب ، ومات عمر رضي الله عنه وهو وال له .

وكانوا يعيبون سعيد بن العاص وهو باعتراف أهل البصرة من أجود العمال وأحكمهم بالقسط ، فلم تكن هذه المذام موجهة بحق لرفع جور ، وإنما كانت للتأثير في قلوب الناس ، وهم يتأثرون بسرعة من مثل هذا القول ، وساعدهم على ذلك أن أولياء الأمر لم يبادروا بأخذ الحيطة ؛ لأن العمال لم يكن لهم مثل ذلك السلطان ، والخليفة خاف من أن يأمر بذلك ، فضاعت مصلحة الأمة .

وإذا أردنا أن نُحمّل الناس في ذلك الوقت تبعة أعمالهم وجدنا عثمان أقلهم تبعة في ذلك ؛ لأن الحلم واللين لم يكونا في زمن من الأزمان مما يُتَجَنَّى به على أولي الأمر ، والتبعة يحملها من مهدوا السبيل لذلك .

ومن الغريب بعد ذلك أن تبقى هذه الحادثة سببًا دائمًا لتفريق كلمة المسلمين ، ففي بعض الأحيان فُرقة عملية تتوسط فيها السيوف والأسنة ، وفي بعض الأحيان فُرقة كلامية تنتهي بعداء ونفور وليس ذلك إلا لأن المسألة أُلْبِست ثوب الدين ، وكَلٌّ حاول الوصول بما يثبته وما يختلقه للوصول إلى غرض من الأغراض .

ولو نظرنا إلى المسألة بنظر صحيح لقلنا : خليفة من خلفاء المسلمين غضب عليه بعض رعيته . بعضهم سيئ القصد ، والبعض الآخر تابع لهم ثم قاموا عليه وحصروه وقتلوه بشكل وحشي لا يتفق مع أصول الإسلام ،ثم نحكم بأنهم أخطأوا خطأً عظيمًا ، ثم ذهبوا إلى اللَّه الذي له الحق في أن يدينهم ، ولم يبق منهم من يمكننا الانتقام منه لسوء قصده ، أو تبيين الصواب له لخطئه ، وغاية الأمر أن الباقي لنا من كل ذلك هو الاستفادة مما كان . فالعاقل همه أن يتعلم ويفهم لا أن يحقد على قوم لم تبق منهم باقية .

* * *

العبرة من الفتنة

لا يمكن حماية الأمة من أصحاب المقاصد السيئة الذين يريدون فتنتها وتهييجها لغير مصلحتها إلا إذا كان فيها من العقلاء من يُحترم رأيهم وتُسْمع كلمتهم ، فإنهم يبصرون قومهم بما يعود عليهم بالخير والفلاح .وكل أمة فقدت هؤلاء السُّراة العقلاء سهل على مثل ابن سبأ ومن لَفَّ لَفَّهُ أن يفتنوها ويلفتوها عما يصلحها ويجعلوا بأسها بينها شديد . وهم في كل زمن كثيرون ، فما ظنك إن كان سراتها وكبارها ممن يساعدها على فتح باب الشر بإغضائه وتهاونه ؟ إن الشر حينئذ يكون مستطيرًا والبلاء عظيمًا ، نسأل اللَّه للأمة السلامة من الشرور ومن الوقوع في حبائل المغرورين والمغررين .

ما ورد من الآثار في حصار عثمان وقتله

عن نافع قال : حدثني عبد الله بن عمر قال : قال لي عثمان وهو محصور في الدار : ما ترى فيما أشار به عَلَيَّ المغيرة بن الأخنس ؟ قال : قلت : ما أشار عليك ؟ قال : إن هؤلاء القوم يريدون خَلْعِي فإنْ خَلَعْتُ تركوني وإن لم أَخْلَعْ قتلوني ، قال : قلت : أرأيت إن خَلَعْتَ تُترك مخلَّدًا في الدنيا ؟ قال : لا ، قال : فهل يملكون الجنة و النار ؟ قال : لا . قال : فقلت : أرأيتَ إن لم تخلع هل يزيدون على قتلك ؟ قال : لا ، قلتُ : فلا أرى أن تَسُنَّ هذه السُّنَّة في الإسلام كلما سَخِط قوم على أميرهم خلعوه ، لا تخلع قميصًا قَمَّصَكَهُ اللَّه .

وعن عبد الرحمن بن جبير قال : قال رسول اللَّه ﷺ لعثمان : « **إِنِ اللَّه كساك يومًا سِربَالًا فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه لظالم** » .

وعن أبي أمامة بن سهل قال : كنت مع عثمان في الدار وهو محصور قال : وكنا ندخل مدخلًا إذا دخلناه سمعنا كلامَ من على البَلاط ، قال : فدخل عثمان يومًا لحاجة ، فخرج منتقعًا لونُه فقال : يتوعدونني بالقتل آنفًا ، قال : قلنا : يكفيكهم اللَّه يا أمير المؤمنين ، قال : ولم يقتلونني وقد سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول : « **لا يحل دم امرئ المسلم إلا في إحدى ثلاث : رجلٍ كفر بعد إيمانه ، أو زَنَى بعد إحصانه ، أو قتل نفسًا بغير نفس** » فو اللَّه ما زنيت بجاهلية ولا بإسلام قط ولا تمنيت أن لي بديني بدلًا منذ هداني اللَّه ، ولا قتلتُ نفسًا ،ففيم يقتلونني ؟ .

وعن مجاهد قال : أشرف عثمان على الذين حاصروه فقال : يا قوم لاتقتلوني فإني والٍ وأَخٌ مسلم ، فو اللَّه إن أردت إلا الإصلاح ما استطعتُ أصبتُ أو أخطأتُ ، وإنكم إن تقتلوني لاتُصَلوُّا جميعًا أبدًا ، ولاتَغزُوا جميعًا أبدًا ، ولا يُقْسَمْ فيؤكم بينكم ، قال : فلما أَبَوا قال : أُنْشِدُكُمُ اللَّه هل دعوتم عند وفاة أمير المؤمنين بما دعوتم به و أَمركم جميع لم يتفرق ، وأنتم أهل دينه وحقه فتقولون : إن اللَّه لم يُجِبْ دعوتكم أم تقولون : هان الدين على اللَّه ، أم تقولون : إني أخذت هذا الأمر بالسيف و الغلبة ولم آخذه عن مشورة من المسلمين ، أم تقولون إن اللَّه لم يعلم من أول أمري شيئًا كما يعلم من آخره ؟ فلما أبوا قال : اللهم أَحْصِهِمْ عددًا واقتلهم بدَدًا ولا تُبْقِ منهم أحدًا . قال مجاهد :فقتل اللَّه من قتل في الفتنة ، وبعث يزيد إلى أهل المدينة عشرين ألفًا فأباحوا المدينة ثلاثًا يصنعون ما شاؤوا لمداهنتهم .

وعن أبي جعفر محمد بن علي قال : بعث عثمان إلى عَليٍّ يدعوه وهو محصور في

الدار فأراد أن يأتيه فتعلقوا به ومنعوه ، قال : فحلَّ عمامة سوداء على رأسه وقال هذا أو قال : اللهم لا أرضى قتله ولا آمر به . اللهم لا أرضى قتله ولا آمر به .

وعن جعفر بن بُرْقان قال : حدثني راشد بن كَيسان أبو فَزارة العبْسي أن عثمان بعث إلى عليٍّ وهو محصور في الدار أن ائتني ، فقام عَلِيٌّ ليأتيه ، فقام بعض أهل عليٍّ حتى حبسه . وقال : ألا ترى إلى مابينَ يديك من الكتائب ؟ لا تخلص إليه ، وعلى عليٍّ عمامة سوداء فنقضها على رأسه ثم رمى بها إلى رسول عثمان وقال : أخبره بالذي قد رأيت . ثم خرج عَلِيٌّ من المسجد حتى انتهى إلى أحجار الزيت في سوق المدينة فأتاه قتله فقالَ : اللهم إني أبرأ إليك من دمه أن أكون قتلتُ أو مالأتُ على قتله .

قال : وعن كثير بن هشام قال : أخبرنا جعفر بن برقان قال : أخبرنا ميمون بن مهران قال : لما حوصر عثمان بن عفان في الدار بعث رجلًا فقال : سل وانظر ما يقول الناس ، قال : سمعت بعضهم يقول : قد حَلَّ دمه ، فقال عثمان : ما يحل دم امرئ مسلم إلا رجل كَفَر بعد إيمانه أو زنَى بعد إحصانه أو قتل رجلًا فقتل به ، قال : وأحسَبُهُ قال هو أو غيره : أو سعى في الأرض فسادًا .

وعن علقمة بن وقاص قال : قال عمرو بن العاص لعثمان وهو على المنبر : يا عثمان إنك قد ركبت بهذه الأمة نهابير من الأمر فتب و ليتوبوا معك ، قال : فحوَّل وجهه إلى القبلة فرفع يديه فقال : اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك ، ورفع الناس أيديهم .

وعن محمد بن سيرين قال : جاء زيد بن ثابت إلى عثمان فقال : هذه الأنصار بالباب يقولون : إن شئت كنا أنصارًا للّه مرتين ، فقال عثمان : فأما القتال فلا .

وعن أبي هريرة قال : دخلتُ على عثمان يوم الدار فقلت : يا أمير المؤمنين طابٌ أم ضَرْبٌ ؟ فقال : يا أبا هريرة أيسرُّك أن تَقْتُل الناس جميعًا وإياي ؟ قال قلت : لا ، قال : فإنك و اللّه إن قتلت رجلًا واحدًا فكأنما قُتِلَ الناس جميعًا ، قال : فرجعت ولم أقاتل .

وعن عبد اللّه بن الزبير قال : قلت لعثمان يوم الدار : قَاتِلْهم فو اللّه لقد أحلَّ اللّه لك قتالهم . فقال : لا و اللّه لا أقاتلهم أبدًا . قال : فدخلوا عليه وهو صائم ، قال : وقد كان عثمان أمَّر عبد اللّه بن الزبير على الدار ، وقال عثمان : مَن كانت لي عليه طاعة فَلْيُطِع عبد اللّه بن الزبير .

وعن ابن سيرين قال : كان مع عثمان يومئذ في الدار سبعمائة ، لو يَدَعهُمْ لضربوهم إن شاء اللّه حتى يخرجوا من أقطارها ، منهم ابن عمر ، و الحسن بن علي ، وعبد اللّه ابن الزبير .

وعن عبد الملك بن أبي سليمان قال : حدثني أبو ليلى الكِنْدي قال : شهدت عثمان وهو محصور فاطلع من كُوَّةٍ وهو يقول : يا أيها الناس لا تقتلوني واستَتِيبُوني ، فوالله لئن قتلتموني لا تُصلُّون جميعًا أبدًا ولا تجاهدون عدوًّا جميعًا أبدًا ، ولتختلفن حتى تصيروا هكذا ، وشَبَّك بين أصابعه ، ثم قال : يا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثلُ ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد . وأرسل إلى عبد الله ابن سلام فقال : ماترى ؟ فقال : الكف الكف فإنه أبلغ لك في الحجة .

وعن أبي جعفر القارئ مولى ابن عباس المخزومي قال :كان المصريون الذين حصروا عثمان ستمائة ، رأسهم عبد الرحمن بن عديس البَلَوي ، وكنانة بن بشر بن عَتَّاب الكندي ، وعمرو بن الحَمِق الخزاعي . و الذين قدموا من الكوفة مائتين ، رأسهم مالك الأشتر النخعي . والذين قدموا من البصرة مائة رجل رأسهم حُكَيم بن جبلة العبدي ، وكانوا يدًا واحدة في الشر ، وكانوا حُثَالة من الناس قد ضَوا إليهم قد مُزِجَتْ عهودهم وأماناتهم مفتونون ، وكان أصحاب النبي ﷺ الذين خذلوه كرهوا الفتنة وظنوا أن الأمر لا يبلغ قتله ، فَندِمُوا على ما صنعوا في أمره ، ولعمري لو قاموا أو قام بعضهم فَحَثَا في وجوههم التراب لانصرفوا خاسرين .

وعن أبي عون مولى المسْوَر بن مخرمة قال : ما زال المصريون كافِّين عن دمه وعن القتال حتى قَدِمَتْ أمداد العراق من الكوفة ومن البصرة ومن الشام فلما جاؤوا وشَجُعَ القوم حين بلغهم أن البعوث قد فَصَلَتْ من العراق من عند ابن عامر ، ومن مصر من عند عبد الله بن سعد فقالوا : نُعاجله قبل أن تَقْدم الأمداد .

وعن مالك بن أبي عامر قال : خرج سعد بن أبي وقاص حتى دخل على عثمان ﷺ ، وهو محصور ، ثم خرج من عنده فرأى عبد الرحمن بن عُدَيس ، ومالكًا الأشتر ، وحكيم بن جبلة ، فَصَفَقَ بيديه إحداهما على الأخرى ، ثم استرجع ، ثم أظهر الكلام فقال : والله إن أمرًا هؤلاء رؤساؤه لأمر سَوء . [اهـ من طبقات ابن سعد] .

وعن الحسن قال : أنبأني وثَّاب ، وكان فيمن أدركه عتق أمير المؤمنين عمر ، وكان بين يدي عثمان ورأيت بحلقه أثر طعنتين كأنهما كَيَّتان ، طُعِنَهُما يومئذ يومَ الدار دار عثمان ، قال : بعثني عثمان فدعوت له الأشتر فجاء ، قال ابن عون : أظنه قال : فطرحت لأمير المؤمنين وسادة وله وسادة فقال : يا أشتر ما يريد الناس مني ؟ قال : ثلاثًا ليس لك من إحداهن بُدٌّ ، قال : ما هن ؟ قال : يخيرونك بين أن تخلع لهم أمرهم فتقول : هذا أمركم فاختاروا له من شئتم ، وبين أن تُقِصَّ من نفسك ، فإن أبيتَ هاتين

فإن القوم قاتلوك ، قال : أمَا من إحداهن بُدٌّ ؟قال : لا ما من إحداهن بد .قال : أمَّا أن أخلع لهم أمرهم فما كنت لأخلع سِرْبَالًا سَرْبَلَنِيه اللّه ، قال : وقال غيره : واللّه لأن أُقَدَّم فَتُضْرَبَ عنقي أحب إلي من أن أَخْلَعَ أمة محمد بعضها على بعض ، قالوا : هذا أشبه بكلام عثمان ، وأما أن أُقِصَّ من نفسي فو اللّه لقد علمت أن صاحبيَّ بين يدي قد كانا يعاقبان وما يقوم بُدٌّ في القصاص ، وأما أن تقتلوني فو اللّه لئن قتلتموني لا تتحابون بعدي أبدًا ولا تُصَلُّونَ بعدي جميعًا أبدًا ، ولاتقاتلون بعدي عدوًّا جميعًا أبدًا ، ثم قام فانطلق، فمكثنا فقلنا لعل الناس ، فجاء رُوَيجِلٌ كأنه ذئب فاطلع من باب ثم رجع ، فجاء محمد بن أبي بكر في ثلاثة عشر رجلًا حتى انتهى إلى عثمان فأخذ بلحيته فقال بها حتى سُمِعَ وَقْع أضراسه فقال : ما أغنى عنك معاوية ، ما أغنى عنك ابن عامر ، ما أغنت عنك كُتُبُك ، فقال : أرسل لي لحيتي يا ابن أخي ، أرسل لي لحيتي يا ابن أخي ، قال : فأنا رأيت استعداء رجل من القوم يعينه فقام إليه بمشقص حتى وجأ به في رأسه ، قال : ثم قلت : مه ؟ قال ثم تغاووا واللّه عليه حتى قتلوه ، ﷺ .

وعن عبد الرحمن بن محمد بن عبد : أن محمد بن أبي بكر تسوَّر على عثمان من دار عمرو بن حزم ومعه كنانة بن بشر بن عتاب ، وسودان بن حمران ، وعمرو بن الحمق فوجدوا عثمان عند امرأته نائلة وهو يقرأ في المصحف سورة البقرة ، فتقدمهم محمد بن أبي بكر فأخذ بلحية عثمان فقال : قد أخزاك اللّه يا نَعْثَلُ ، فقال عثمان : لست بنعثل ولكن عبد اللّه وأمير المؤمنين ، فقال محمد : ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان ، فقال عثمان : يا ابن أخي دع عنك لحيتي فما كان أبوك ليقبض على ما قبضت عليه . فقال محمد : ما أريد بك أشد من قبضي على لحيتك ، فقال عثمان : أستنصر اللّه عليك وأستعين به ، ثم طعن جبينه بمشقص في يده ، ورفع كنانة بن بشر بن عتاب مشاقص كانت في يده فوجأ بها في أصل أُذُن عثمان فمضت حتى دخلت في حلقه ، ثم علاه بالسيف حتى قتله .

قال عبد الرحمن بن عبد العزيز : فسمعت ابن أبي عون يقول : ضرب كنانة بن بشر جبينه ومقدم رأسه بعمود حديد فخرَّ لجنبه ، وضربه سودان ابن حمران المرادي بعد ما خر لجنبه فقتله ، وأما عمرو بن الحمق فوثب على عثمان فجلس على صدره وبه رمق فطعنه تسع طعنات ، وقال : أما ثلاث منهن فإني طعنتهن للّه ، وأما ست فإني طعنت إياهن لما كان في صدري عليه .

وعن الزهري قال : قُتل عثمان عند صلاة العصر ، وشَدَّ عبد لعثمان أسود على كنانة

ابن بشر فقتله ، وشد سودان على العبد فقتله ، ودخلت الغوغاء دار عثمان فصاح إنسان منهم : أيحل دم عثمان ولا يحل ماله ؟ فانتبهوا متاعه فقامت نائلة ، فقالت : لصوص ورب الكعبة ؟! يا أعداء الله ما ركبتم من دم عثمان أعظم ، أما والله لقد قتلتموه صوَّامًا قوَّامًا يقرأ القرآن في ركعة ؟ ! ثم خرج الناس من دار عثمان فأغلق بابه على ثلاثة ، قتلوا : عثمان وعبد عثمان الأسود ، وكنانة بن بشر .

وعن نافع قال : أصبح عثمان بن عفان يوم قُتِل يَقُص رؤيا على أصحابه رآها فقال : رأيت رسول الله ﷺ البارحة ، فقال لي : يا عثمان ، أَفطِر عندنا ، فأصبح صائمًا وقُتل في ذلك اليوم رضي الله عنه .

وعن أبي علقمة مولى عبد الرحمن بن عوف عن كثير بن الصلت الكندي قال : نام عثمان بن عفان في اليوم الذي قتل فيه ، وذلك يوم الجمعة ، فلما استيقظ قال : لولا أن يقول الناس تمنى عثمان أمنية لحدثتكم حديثًا ، قال : قلنا :حدِّثنا أصلحك الله فلسنا على ما يقول الناس ، قال : إني رأيت رسول الله ﷺ في منامي هذا فقال : إنك شاهد فينا الجمعة .

وعن زياد بن عبد الله عن أم هلال بنت وكيع عن امرأة عثمان ، قال : وأحسبها بنت الفُرافصة ، قالت : أُغْفي عثمان فلما استيقظ قال : إن القوم يقتلونني ، فقلت : كلا يا أمير المؤمنين ، قال : إني رأيت رسول الله ﷺ ، وأبا بكر ، وعمر فقالوا : أفطر عندنا الليلة ، أو قالوا : إنك تفطر عندنا الليلة : [اهـ من الطبقات] .

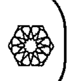
* * *

ذكر ما كان في بيت المال يوم قتل عثمان

عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : كان لعثمان بن عفان عند خازنه يوم قتل ثلاثون ألف ألف درهم ، وخمسمائة ألف درهم ، وخمسون ومائة ألف دينار فانتهبت وذهبت ، وترك ألف بعير بالربذة ، وترك صدقات كان تصدق بها ببراديس وخيبر ووادي القرى قيمة مائتي ألف دينار .

كان الناس يتوقون أن يدفنوا موتاهم في حشّ (بستان) كوكب فكان عثمان بن عفان يقول : يوشك أن يَهْلِكَ رجل صالح فَيُدْفَن هناك فيأتسي الناس به ، قال مالك بن أبي عامر : فكان عثمان بن عفان أول مَن دُفِنَ هناك .

* * *



الآثار في ذكر من دفن عثمان ؟ ومتى دفن ؟ ومن حمله ؟ ومن صلى عليه ؟

وعن عبد الله نيار الأسلمي عن أبيه قال : لما حجَّ معاوية نظر إلى بيوت أسلم شوارع في السوق فقال : أَظلموا عليهم بيوتهم أَظْلَمَ اللَّه عليهم قبورهم قَتَلَةَ عثمان ، قال نيار ابن مُكرَم : فخرجت إليه ، فقلت له : إن بيتي يُظْلِمُ عَلَيَّ وأنا رابع أربعة حملنا أمير المؤمنين وقبرناه وصلينا عليه ، فعرفه معاوية فقال : اقطعوا البناء لا تبنوا على وجه داره ، قال : ثم دعاني خاليًا فقال : متى حملتموه ومتى قبرتموه ومنَ صَلَّى عليه ؟ فقلت : حملناه ليلة السبت بين المغرب والعشاء، فكنت أنا وجبير بن مطعم وحكيم بن حزام وأبو جهم بن حذيفة العدوي ، وتقدم جُبير بن مطعم فصلى عليه ، فصدقه معاوية ، وكانوا هم الذين نزلوا في حفرته .

وعن محمد بن يوسف قال : خرجت نائلة بنت الفرافصة تلك الليلة وقد شَقَّتْ جَيبَهَا قُبُلًا ودبُرًا ومعها سراج وهي تصيح : وا أمير المؤمنيناه ؟! قال : فقال لها جبير ابن مطعم : أطفئي السراج لايُفْطَن بنا ، فقد رأيت الغُواة الذين على الباب ، قال : فأطفأت السراج وانتهوا إلى البقيع فصلى عليه جبير بن مطعم وخَلْفه حكيم بن حزام ، وأبو جهم بن حذيفة ، ونيار بن مكرم الأسلمي ، ونائلة بنت الفرافصة ، وأم البنين بنت عيينة امرأتاه ، ونزل في حفرته نيار بن مكرم ، وأبو جهم بن حذيفة ، وجبير بن مطعم ، وكان حكيم بن حزام ونائلة وأم البنين يُدَلُّونَه على الرجال حتى لَحَدُوا له وبُنِيَ عليه وغَيَّبُوا قبره وتفرقوا .

وعن عبد الله البهي : أن جبير بن مطعم صلى على عثمان في ستة عشر رجلًا بجبير سبعة عشر .

قال ابن سعد : الحديث الأول : صَلَّى عليه أربعة ؛ أثبت .

وعن عبد الرحمن بن أبي الزناد قال : حمل عثمان بن عفان أربعة : جبير بن مطعم ، وحكيم بن حزام ، ونيار بن مكرم الأسلمي ، وفتى من العرب ، فقلت له : الفتى جد مالك بن أبي عامر ، فقال : لم يُسَمَّ لي قال : والعثمانيون أعرف مني بتلك الحرمة وأرعاهم لها .

وعن حميد بن أبي هلال عن عبد الله بن عُكَيم قال : لا أعين على دم خليفة أبدًا بعد عثمان ، قال : فيقال له : يا أبا معبد أو أَعَنْتَ على دمه ؟ فقال : إني لأَعُدُّ ذِكْرَ

مساويه عونًا على دمه .

وعن ابن عباس قال : لو أجمع الناس على قَتْلِ عثمان لَرُمُوا بالحجارة كما رُمِيَ قوم لوط .

وعن زَهْدم الجَرْمي قال : خطب ابن عباس فقال : لو لم يطلب الناس بدم عثمان لرُمُوا بالحجارة من السماء .

وعن ميمون بن مهران قال : لما قتل عثمان قال حذيفة هكذا وحلَّق بيده - يعني عقد عشرة ، فُتِقَ في الإسلام فَتْقٌ لا يُرْتِقُهُ جبل .

وعن أبي قلابة قال : لما بلغ ثُمامةَ بن عدي قتلُ عثمان ، وكان أميرًا على صنعاء ، وكانت له صحبة ، بكى فطال بكاؤه ثم قال : هذا حين أُنْزِعَتْ خلافة النبوة من أمة محمد ﷺ وصار مُلكًا وجَبْرية ، من غَلَبَ على شيء أكله .

وقال أبو حُمَيْدُ الساعدي : لما قتل عثمان ، وكان ممن شهد بدرًا : اللهم إن لك عَلَيَّ ألا أفعل كذا ولا أفعل كذا ولا أضحك حتى ألقاك .

وعن أبي صالح قال : كان أبو هريرة إذا ذُكِرَ ما صُنِعَ بعثمان بكى ، قال : فكأني أسمعه يقول : هاه هاه ينتحب .

وعن زيد بن علي أن زيد بن ثابت كان يبكي على عثمان يوم الدار .

وأخبرنا مالك بن دينار : أخبرني من سمع عبد اللّه بن سلام يقول يوم قتل عثمان : اليوم هَلَكَت العرب .

وعن أبي صالح قال : سمعت عبد اللّه بن سلام يوم قتل عثمان يقول : و اللّه لا تُهَرِّقون محجمًا من دم إلا ازددتم به من اللّه بعدًا .

وعن طاوس قال : قال عبد اللّه بن سلام : يُحَكَّمُ عثمان بن عفان يوم القيامة في القاتل والخاذل .

وعن ابن عباس قال : سمعت عليًا يقول حين قتل عثمان : و اللّه ما قتلت و لا أمرت ولكن غُلِبْتُ . يقول ذلك ثلاث مرات .

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : رأيت عليًا عند أحجار الزيت رافعًا ضَبْعَيهِ يقول : اللهم إني أبرأ إليك من أمر عثمان .

وعن خالد الربعي قال : إن في كتاب اللّه المبارك أن عثمان بن عفان رافع يديه إلى اللّه يقول : يارب قتلني عبادك المؤمنون .

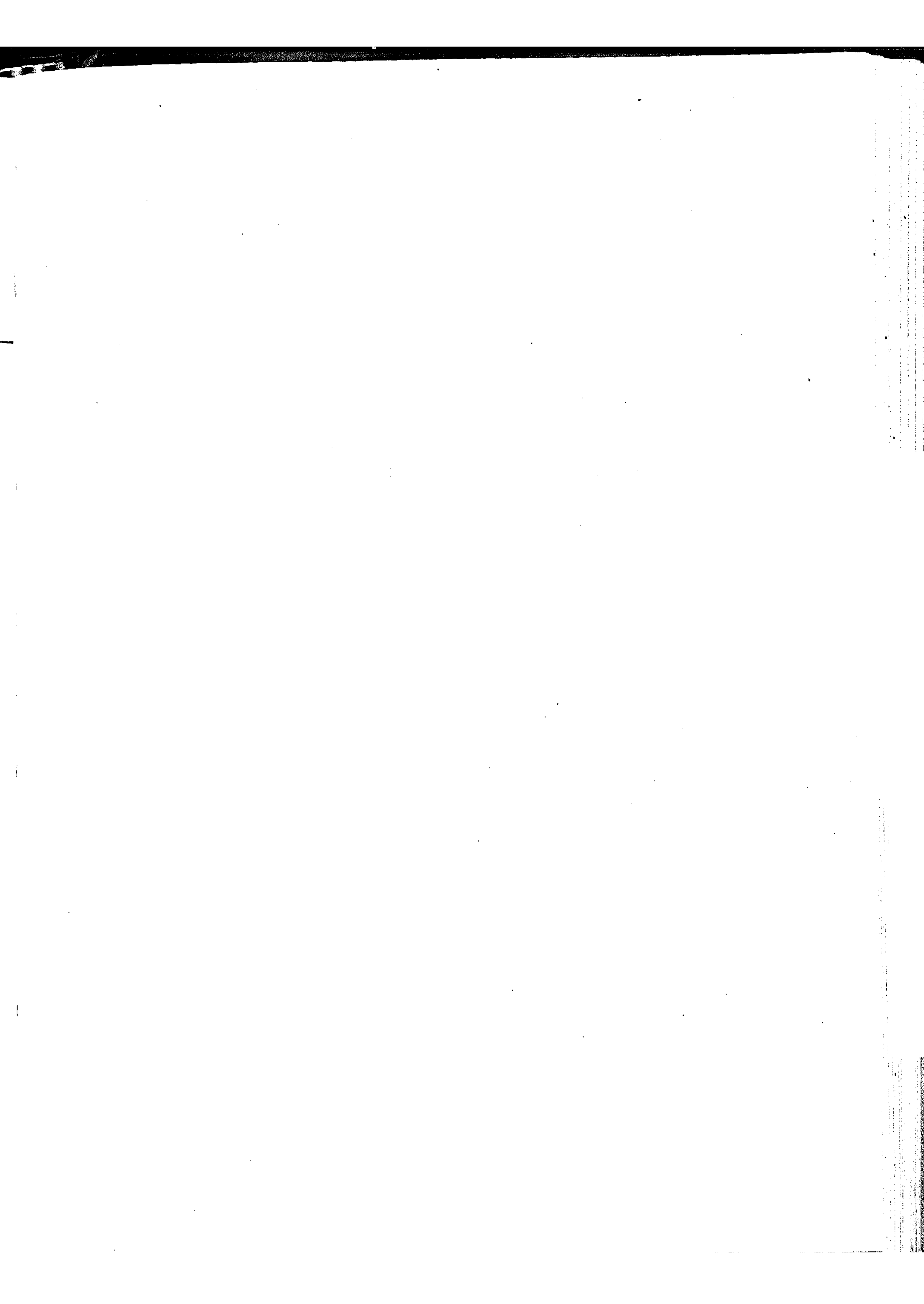
وعن مسروق عن عائشة قالت حين قتل عثمان : تركتموه كالثوب النقي من الدنس

ثم قربتموه تذبحونه كما يُذبح الكبش هَلَّا كان هذا قبل هذا ؟ فقال لها مسروق : هذا عَمَلُكِ ، أنت كتبت إلى الناس تأمرينهم بالخروج إليه ، قال : فقالت عائشة : لَا و الذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبتُ إليهم بسوداء في بيضاء حتى جلستُ مجلسي هذا . **قال الأعمش** : فكانوا يرون أنه كُتِبَ على لسانها .

وأخبرنا الحسن قال : لما أُدرِكوا بالعقوبة ، يعني قتلة عثمان ،قال : أُخِذَ الفاسق ابن أبي بكر ، قال أبو الأشهب : وكان الحسن لا يسميه باسمه ، إنما كان يسميه الفاسق ، قال : فأُخِذ فَجُعِل في جوف حمار ثم أُحرق عليه .

وعن محمد بن سيرين أن حذيفة بن اليمان قال : اللهم إن كان قتل عثمان خيرًا فليس لي منه نصيب ، وإن كان قتله شرًّا فإني منه بريء ، والله لئن كان قتله خيرًا لَيَحْلبُنهَّا لبنًا ، و لئن كان قتله شرًّا لَيَمْتَصُّنَّ بها دمًا . **وعن عبد الله بن سلام قال** : ما قُتِل نبي قط إلا قُتل به سبعون ألفًا من أمته ، ولا قتل خليفة قط إلا قُتل به خمسة وثلاثون ألفًا . [اهـ من الطبقات] .

* * *





علي بن أبي طالب
كرم الله وجهه

البداية :

كان علي – كرم اللّٰه وجهه ورضي اللّٰه عنه – قد تربى في بيت النبي محمد ﷺ من صغره وكان عنده ذكاء شديد وسرعة بديهة وفهم لأمور لا يدركها إلا الشباب الناضج ، أو الرجل الرشيد .

يبدو ذلك واضحًا في إسلامه وهو صبي لم يبلغ الحلم بينما أبوه وقومه جميعًا لم يؤمن منهم حينئذ أحد ، ولم يعبأوا بما جاء به محمد ﷺ ، ولم يرفعوا له رؤوسًا في بادئ الأمر ، ولما كانت حياته في بيت النبي ﷺ فإنه عرف جميع أموره الداخلية ، ودرس أحواله وأخلاقه عن قرب ، وشرب من مشربه ، وتربى على أخلاقه ﷺ وعاداته ، وتصرفاته فلبس ثياب الطهر في صغره ، وبعد عن الأصنام وناصبها العداء من بداية أمره ، وشغل بأمر النبي ﷺ طيلة حياته ، لأنه كان دائم القرب منه ، والصلة به والعمل على راحته و خدمته ، والاستضاءة بنوره ، و الشرب من منهله أكثر من غيره . وكان مع ذلك قد أوتي ذاكرة واعية ، وعقلًا متفتحًا ، وذكاء نادرًا ، وشجاعة فذة ، وقوة لا مثيل لها عند غيره .

وكان قد اعتاد أن يحيا حياة النبي ﷺ في زهده وتقشفه وورعه وخوفه من اللّٰه ، وصلابته في الحق ، وثباته عليه ، و الدعوة إليه .

وكان عنده من عمر ﷺ عزمه و حزمه ، وشدته في اللّٰه وصلابته ، وسرعة بته في الأمور ، وانقضاضه على الباطل وأهله في غير مهادنة أو مداهنة .

ولم يكن علي ﷺ يعرف مجاملة الناس في سبيل نصرة الحق وإزهاق الباطل ، وليس عنده استعداد أن يدير سياسة الرعية حسبما تقتضي أصول السياسة بعيدًا عن أصول الدين وفروعه وما كان عليه رسول اللّٰه ﷺ و الخليفتان من بعده .

لذلك لما تسلم الخلافة بعد عثمان ﷺ وكانت الفتنة قد اشرأبت أعناقها واشتعلت في كل قطر نيرانها ، وصار لها رؤوس ومدبرون ، وأنصار ومساعدون ، وطمع عدد من الصحابة في أن يكونوا خلفاء ، بعد أن رأوا تشجيعًا من أتباع لهم ونصراء .

وكان الذين خرجوا من نير الفرس و الروم قد أذهلتهم الحرية و النعم الوافرة التي وجدوها في رحاب الإسلام ، وكان عمر ﷺ شديدًا عليهم فألزمهم الاستقامة والطاعة

والجماعة ، فلما جاء عثمان ﷺ وتساهل معهم وتسامح . ولم يأخذهم بالحزم والشدة ، ولم يعصمهم من الكفر بالنعمة ، بطروا وطغوا وتجبروا ، وعادوا إلى جاهليتهم الأولى ولم يهتموا بالدولة الإسلامية قدر اهتمامهم بمنافعهم الشخصية .

جاء علي ﷺ و الأمر كذلك ، و كان الخرق قد اتسع على الراقع ، و اختفت سياسة الإيثار عند الأكثر وطغت سياسة المنافع ، فحاول الرتق فلم يستطع ، وبذل جهده في إعادة الإمبراطورية الإسلامية إلى ما كانت عليه أيام عمر ﷺ ولكن هيهات هيهات فقد أفلت الزمام ، وتغيرت الأحوال ، وصار الحكم في حاجة إلى سياسة من نوع جديد فيها ترميم وترقيع ، وإشباع أهواء ، وإرضاء نزعات وشهوات ؛ لذلك كثرت الفرق والشيع ، وقتل من المسلمين في هذه الفتن مالم ير من قبل ولم يسمع بمثله .

وانتهى الأمر بمقتل علي ﷺ وخلافة معاوية ، وصار الحكم ملكًا موروثًا ، و لله في خلقه شؤون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *

التعريف بعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه

نسبه :

هو أبو الحسن علي بن أبي طالب ﷺ ، واسم أبي طالب : عبد مناف بن عبد المطلب ، وأمه : فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ، وأسلمت وهاجرت ، ويكنى أبا الحسن ، وأبا تراب ، وأسلم وهو ابن سبع سنين ، ويقال : تسع ، ويقال : عشر ، ويقال : خمس عشرة ، وشهد المشاهد كلها ولم يتخلف إلا في تبوك ، فإن رسول الله ﷺ خلفه في أهله .

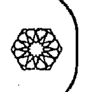
صفته :

كان آدم شديد الأدمة ، ثقيل العينين عظيمهما ، أقرب إلى القصر من الطول ، ذا بطن ، كثير الشعر ، عظيم اللحية ، أصلع ، أبيض الرأس و اللحية ،لم يصفه أحد بالخضاب إلا سَوادة بن حنظلة فإنه قال : رأيت عليًّا أصفر اللحية ، ويشبه أن يكون خضب مرة ثم ترك الخضاب .

أولاده :

كان له من الولد أربعة عشر ذكرًا و تسع عشرة أنثى : الحسن والحسين ، وزينب الكبرى ، وأم كلثوم الكبرى : وأمهم فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، ومحمد الأكبر وهو ابن الحنفية ، وأمه خولة بنت جعفر . وعبيد الله : قتله المختار ، وأبو بكر : قتل مع الحسين ، وأمهما ليلى بنت مسعود . والعباس الأكبر وعثمان وجعفر و عبد الله وقد قتلوا مع الحسن ، وأمهم أم البنين بنت حزام بن خالد . ومحمد الأصغر وقتل مع الحسين ، وأمه أم ولد .ويحيى وعون ، وأمهما أسماء بنت عميس . وعمر الأكبر ورقية : وأمهما الصهباء سبية . ومحمد الأوسط : وأمه أمامة بنت أبي العاص . وأم الحسن ورملة الكبرى : وأمهما أم سعيد بنت عروة ، وأم هانئ وميمونة وزينب الصغرى ورملة الصغرى وأم كلثوم الصغرى وفاطمة وأمامة وخديجة وأم الكرام وأم جعفر وجُمانة ونفيسة وأم سلمة : وهن لأمهات شتى ، وابنة أخرى لم يذكر اسمها ماتت صغيرة . فهؤلاء الذين عرفنا من أولاده علي ﷺ .

* * *



مناقبة رضي الله عنه
محبة الله ورسوله له ومكانته عند الله



عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : « **لأُعطِيَنَّ هذه الراية غدًا رجلًا يفتح الله عليه ، يحب الله ورسوله ويحبه اللهُ ورسولهُ** » . قال : فبات الناس يذكرون أيُّهم يُعطاها . فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها . فقال : « **أين علي بن أبي طالب ؟** » فقيل : يا رسول الله يشتكي عينيه . قال : « **فأرسلوا إليه** » . فأتي به ، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية فقال علي رضي الله عنه : يا رسول الله ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال : « **انْفُذ على رِسْلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فو الله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم** (أفضل المال) » . [رواه الإمام أحمد ، وأخرجاه في الصحيحين عن قتيبة] .

وعن سعد أن معاوية قال له : ما يمنعك أن تَسُبَّ أبا تراب ؟ فقال : أما ما ذكرت ثلاثًا قالهن رسول الله ﷺ فلن أسبه ، لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من حمر النعم ، سمعته ﷺ يقول له وخلَّفه في بعض مغازيه ، فقال له علي : يا رسول الله ، خلفتني مع النساء والصبيان ، فقال له ﷺ : « **أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدي ؟** » وسمعته يقول يوم خيبر : « **لأعطين الراية رجلًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله** » فتطاولنا لها ، فقال : « **ادعو لي عليًا** » فأتي به أرمد ، فبصق في عينيه ودفع الراية إليه ، ففتح الله عليه . ولما نزلت هذه الآية ﴿ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ﴾ دعا رسول الله ﷺ عليًا وفاطمة وحسنًا وحسينًا فقال : « **اللهم هؤلاء أهلي** » [رواه مسلم والترمذي] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال يوم خيبر : « **لأعطين هذه الراية رجلًا يحب الله ورسوله يفتح على يديه** » قال عمر : ما أحببت الإمارة إلا يومئذ ، فتساورتُ لها رجاء أن أُدعى لها فدعا ﷺ عليًا فأعطاه إياها وقال : « **امش و لا تلتفت حتى يفتح الله عليك** » فسار شيئًا ثم وقف ولم يلتفت ، فصرخ : يا رسول الله ، على ماذا أقاتل الناس ؟ قال : « **قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله** » [رواه مسلم] .

وعن أنس رضي الله عنه **قال** : كان عند النبي ﷺ طير فقال : « **اللهم ائتني بأحب خلقك إليك يأكل معي هذا الطير** » فجاء علي فأكل معه . [رواه الترمذي] ، زاد رزين أن أنسًا قال لعلي : استغفر لي ولك عندي بشارة ففعل ، فأخبره بقوله ﷺ .

وعن سعد بن أبي وقاص قال : خلَّف رسول اللّه ﷺ علي بن أبي طالب في غزوة تبوك فقال : يا رسول اللّه تخلفني في النساء و الصبيان ؟ فقال : « **أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ غير أنه لا نبي بعدي** » . [أخرجاه في الصحيحين] .

وعن زِرّ بن حُبيش قال : قال علي ﷺ : واللّه إنه لِمَّا عهد إلي رسول اللّه ﷺ أنه قال : « **لا يُبغضني إلا منافق ولا يُحبني إلا مؤمن** » [انفرد بإخراجه مسلم] .

وعن زاذان قال : سمعت عليًا بالرَّحَبَة (الفناء) وهو يَنْشُد الناس (يسألهم) من شهد رسول اللّه ﷺ في يوم غدير خُمّ وهو يقول ما قال . فقام ثلاثة عشر رجلًا فشهدوا أنهم سمعوا رسول اللّه ﷺ يقول : « **من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه** » [رواه البيهقي] .

وعن هُبَيرة قال : خطبنا الحسن بن علي فقال : لقد فارقكم رجل بالأمس لم يسبقه الأولون بعلم ولم يدركه الآخرون . كان رسول اللّه ﷺ يبعثه بالراية جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله ، لا ينصرف حتى يُفتح له . [رواه أحمد ، وأخرجه أيضًا الطبراني في الأوسط والكبير ، وأخرجه البزار بسند حسن] .

وعن سعيد بن المسيب قال : كان عمر يتعوذ باللّه من معضلة ليس لها أبو حسن .

وعن جابر ﷺ **قال :** دعا رسول اللّه ﷺ عليًا يوم الطائف فانتجاه ، فقال الناس : لقد طال نجواه مع ابن عمه ، فقال ﷺ : « **ما انتجيته ولكن اللّه انتجاه** » [رواه الترمذي] .

وعن علي ﷺ **قال :** كانت لي منزلة من النبي ﷺ لم تكن لأحد من الخلائق ، آتيه بأعلى سحر فأقول : السلام عليك يا رسول اللّه ، فإن تنحنح انصرفت إلى أهلي وإلا دخلت عليه . [رواه النسائي] .

وعن أنس ﷺ **قال :** بعث النبي ﷺ ببَراءةَ مع أبي بكر ، ثم دعاه فقال : « **لا ينبغي لأحد أن يُبلِّغ هذه إلا رجل من أهلي فدعا عليًا فأعطاه إياها** » [رواه الترمذي] .

وعن أم عطية رضي الله عنها **قالت :** بعث النبي ﷺ جيشًا فيهم عَلِيٌّ فسمعته ﷺ يقول وهو رافع يديه : « **اللهم لا تمتني حتى تريني عليًا** » [رواه الترمذي] .

وعن ذؤيب أن النبي ﷺ لما احْتُضِر قالت صفية : لكل امرأة من نسائك أهل تلجأ إليهم وإنك أجليت أهلي ، فإن حَدَثَ حَدَثٌ فإلى مَن ؟ قال : « **إلى عَلِيّ** » [رواه الطبراني في الكبير] .

وعن علي ﷺ **أنه قيل له :** نراك في الحرِّ الشديد وعليك ثياب الشتاء ونراك في الشتاء وعليك ثياب الصيف وتمسح العرق ، فقال : إن النبي ﷺ بزق في عيني وأنا أرمد ، فما

اشتكيتهما حتى الساعة ، ودعا لي فقال : اللهم أذهب عنه الحر والبرد ، فما وجدت حرًّا ولا بردًا حتى يومي هذا . [رواه الطبراني في الأوسط] .

وعن أبي عبد الله الجدلي قال : دخلت على أم سلمة فقالت لي : أَيُسَبُّ رسول الله ﷺ فيكم ، قلت : معاذ الله ، قالت : سمعته ﷺ يقول : « **مَن سَبَّ عليًا فقد سَبَّني** » [رواه أحمد . اهـ جمع الفوائد] .

* * *

علمه رضي الله عنه

قال الإمام النووي : قال ابن عباس : أُعْطِيَ عليٌّ تسعة أعشار العلم ووالله لقد شاركهم في العُشْر الباقي ، قال : وإذا ثبت لنا الشيء عن عَلِيٍّ لم نعدل إلى غيره ، وسؤال كبار الصحابة له ورجوعهم إلى فتاويه وأقواله في المواطن الكثيرة والمسائل والمعضلات مشهور .

وعن هبيرة بن يريم : أن الحسن بن علي ﷺ قام وخطب الناس وقال : لقد فارقكم رجل بالأمس لم يسبقه الأولون ولا يدركه الآخرون بعلم ، كان رسول الله ﷺ يبعثه فيعطيه الراية فلا يرتد حتى يفتح الله ﷻ عليه ، جبريل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره ، ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة فضلت من عطائه أراد أن يشتري بها خادمًا .

وعن ابن عباس قال : قال عمر : عليٌّ أقضانا ، وأُبَيٌّ أقرؤنا .

وعن عبد خير عن علي قال : لما قبض رسول الله ﷺ أقسمت - أو حلفت - أن لا أدع ردائي عن ظهري حتى أجمع ما بين اللوحين ، فما وضعت ردائي عن ظهري حتى جمعت القرآن .

وعن سليمان الأحمسي عن أبيه عن علي ﷺ قال : و الله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما أُنزلت ، وأين أُنزلت ، إن ربي وهب لي قلبًا عقولًا ولسانًا سؤولًا .

وعن علي بن الحسين عن أبيه قال : سمعت عليًا يقول : أتاني رسول الله ﷺ وأنا نائم وفاطمة وذلك من السحر ، حتى قام علي باب البيت فقال : « **ألا تصلون ؟** » فقلت مجيبًا له : يا رسول الله ، إنما نفوسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا ، قال : فرجع رسول الله ﷺ ولم يرجع إلى الكلام . قال : فسمعته حين وَلَّى يقول - وضرب بيده على فخذه - ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ . [رواه حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف ، وصالح بن كيسان ، وشعيب بن حمزة ، والناس عن الزهري . أخرجه البخاري ومسلم عن قتيبة بن سعيد] .

زهده ﷺ

عن علي بن ربيعة ، عن علي بن أبي طالب قال : جاءه ابن التَّياح فقال : يا أمير المؤمنين امتلأ بيت المال من صفراء وبيضاء فقال : اللّه أكبر . ثم قام متوكئًا على ابن التياح حتى قام على بيت المال فقال :

هـذا جَـنَـاي وخـيـارُه فيه وكُـلُّ جَـانٍ يـدهُ إلـى فيه

يا ابن التياح عَلَيَّ بأشياخ الكوفة . قال : فنودي في الناس ، فأعطى جميع ما في بيت المال وهو يقول : يا صفراء يا بيضاء غُري غيري . ها ، و ها، حتى ما بقي فيه دينار ولا درهم . ثم أمر بنضحه وصلى فيه ركعتين . [رواه أحمد] .

وعن مجمع التميمي قال : كان عَلِيٌّ يكنس بيت المال ويصلي فيه ، ويتخذه مسجدًا رجاء أن يشهد له يوم القيامة .

وعن عبد اللّه بن شريك عن جده عن علي بن أبي طالب : أنه أُتي بفالوذج فوُضِع قدامه بين يديه فقال : إنك طيب الريح ، حسن اللون ، طيب الطعم ، لكن أكره أن أُعوِّد نفسي ما لم تعتده .

وعن زيد بن وهب قال : قدم على عَلِيٍّ وفد من أهل البصرة فيهم رجل من أهل الخوارج يقال له : الجعد بن نعجة فعاتب عليًا في لبوسه (لأنه يشبه لبوس الفقراء) . فقال علي : مالك ولِلَبوسي إن لَبُوسي أبعد من الكبر وأجدر أن يقتدي بي المسلم .

وعن سفيان الثوري عن عمرو بن قيس قال : قيل لعلي : يا أمير المؤمنين لِمَ تَرقع قميصك ؟ قال : يخشع القلب ويقتدي به المؤمن .

وعن أبي سعيد الأزدي – وكان إمامًا من أئمة الأزد – قال : رأيت عليًا أتى السوق وقال : من عنده قميص صالح بثلاثة دراهم ؟ فقال رجل : عندي . فجاء به فأعجبه قال : لعله خير من ذلك (أي أغلى من ثلاثة دراهم) . قال : لا ، ذاك ثمنه . قال : فرأيت عليًا يقرض رباط الدراهم من ثوبه فأعطاه فلبسه فإذا هو يفضل عن أطراف أصابعه ، فأمر به فقطع ما فضل عن أطراف أصابعه (أي قصَّر كميه) .

وعن أبي صالح قال : قال معاوية بن أبي سفيان لضرار بن ضمرة :صف لي عليًا . فقال : أو تعفيني ؟ قال : بل صِفْه . قال : أو تعفيني ؟ قال : لا أعفيك . قال : أما إذًا فإنه واللّه كان بعيد المدى ، شديد القُوى ، يقول فصلًا ، ويحكم عدلًا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وينطق بالحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس

بالليل وظُلْمته ، كان واللّه غزير الدمعة طويل الفكرة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشُن ، ومن الطعام ما جَشُبَ (الجشب من الطعام : الغليظ الخشن ، وقيل : غير المأدوم) كان و اللّه كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدئنا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه ، ونحن واللّه مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة ، ولا نبتديه لِعِظَمِه ، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يُعظِّم أهل الدين ويحب المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ، ولا ييئس الضعيف من عدله . وأشهد باللّه لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سُجُوفَه وغارت نجومُه وقد وقف في محرابه قابضًا على لحيته يتململ تململ السليم (الملدوغ) ويبكي بكاء الحزين ، وكأني أسمعه وهو يقول : يا دنيا يا دنيا أبي تعرضت أم إليّ تشوَّفت ؟ هيهات هيهات غُرِّي غيري ، قد بَتَتُّك (طلقتك) ثلاثًا لا رجعة لي فيك فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير ، آه من قلة الزاد وبُعْد السفر ، ووحشة الطريق . قال : فذَرَفَتْ دموع معاوية ﷺ حتى خرَّت على لحيته فما يملكها وهو ينشفها بكمه ، وقد اختنق القوم بالبكاء . ثم قال معاوية : رحم اللّه أبا الحسن ، كان واللّه كذلك فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال : حُزن من ذُبِح ولدها في حجرها فلا ترمأ (لا تجف) عَبْرتها ، ولا يسكن حزنها .

وعن هارون بن عنترة عن أبيه قال : دخلت على عليٍّ بن أبي طالب بالخَورْنَقَ (موضع بالكوفة) وهو يُرْعَد تحت سَمَل قطيفة فقلت : يا أمير المؤمنين إن اللّه تعالى قد جعل لك ولأهل بيتك في هذا المال نصيبًا وأنت تصنع بنفسك ما تصنع ؟ فقال : وأنا ما أرزؤكم (لا آخذ) من مالكم شيئًا وإنها لقطيفتي التي خرجتُ بها من منزلي ، أو قال من المدينة .

وعن أبي مطرف قال : رأيت عليًا ﷺ مؤتزرًا بإزار مرتديًا برداء ، ومعه الدرة كأنه أعرابي يدور ، حتى بلغ سوق الكرابيس (جمع كرباس ثوب من القطن الأبيض) فقال : يا شيخ أَحْسِنْ بَيْعي في قميص بثلاثة دراهم . فلما عرفه لم يشتر منه شيئًا فأتى غلامًا حَدثًا فاشترى منه قميصًا بثلاثة دراهم ، ثم جاء أبو الغلام فأخبره فأخذ أبوه درهمًا ثم جاء به فقال : هذا الدرهم يا أمير المؤمنين . قال : ما شأن هذا الدرهم ؟ قال : كان قميصنا ثمن درهمين . قال : باعني رضاي وأخذه رضاه .

وعن عمرو بن قيس : أن عليًا ﷺ رئُيَ عليه إزار مرقوع ، فعوتب في لبوسه فقال : يقتدي بي المؤمن ويخشع له القلب .

وعن أبي النوار قال : رأيت عليًا اشترى ثوبين غليظين خَيَّر قنبرًا (هو مولى

الإمام علي) أحدهما .

وعن فُضَيل بن مسلم عن أبيه أن عليًا اشترى قميصًا ثم قال : اقطعه لي من ههنا مع أطراف الأصابع ، وفي رواية أخرى : أنه لبس فإذا هو يفضل عن أطراف أصابعه فأمر به فقُطع ما فضل عن أطراف الأصابع .

وعن علي بن الأقمر عن أبيه قال : رأيت عليًا ﷺ وهو يبيع سيفًا في السوق ويقول : من يشتري مني هذا السيف ؟ فو الذي فلق الحبة لطالما كشفت به الكرب عن وجه رسول الله ﷺ ، ولو كان عندي ثمن إزار ما بعته .

* * *

ورعه ﷺ

عن رجل من ثقيف : أن عليًا ﷺ استعمله على عُكْبَر (بلدة صغيرة في العراق) قال : قال لي : إذا كان عند الظهر فَرُحْ إليّ ، فَرُحْتُ إليه فلم أجد عنده حاجبًا يحبسني دونه ، فوجدته جالسًا وعنده قدح وكوز من ماء ، فدعا بظبيةٍ (جراب صغير يشبه الكيس) فقلت في نفسي : لقد أمنني حين يخرج إلي جوهرًا ولا أدري ما فيها ، فإذا عليها خاتم فكسر الخاتم فإذا فيها سويق (الناعم من دقيق الحنطة و الشعير) ، فأخرج منها فصب في القدح وصب عليه ماء فصب وسقاني ، فلم أصبر فقلت : يا أمير المؤمنين : أتصنع هذا بالعراق وطعام العراق أكثر من ذلك ؟ قال : أما و الله ما أختم عليه بُخلًا عليه ، ولكني أبتاع قدر ما يكفيني ، فأخاف أن يفنى فيصنع من غيره (أي يختلط بغيره) ، وإنما حفظي لذلك وأكره أن أُدخل بطني إلا طيبًا .

وعن عمرو بن يحيى عن أبيه قال : أُهْدِي إلى علي بن أبي طالب ﷺ زِقاق سمن وعسل ، فرآها قد نقصت فسأل ، فقيل : بعثت أم كلثوم فأخذت منه . فبعث إلى المقوِّمين فقوَّموه بخمسة دراهم .فبعث إلى أم كلثوم : ابعثي إلي بخمسة دراهم (وأم كلثوم وهي ابنته وزوجة عمر) .

وعن مجاهد قال : قال علي ﷺ :جُعْتُ مرة بالمدينة جوعًا شديدًا فخرجت أطلب العمل في عوالي المدينة فإذا أنا بامرأة قد جمعت مَدَرًا فظننتها تريد بَلَّه فأتيتها فقاطعتها كلَّ ذَنُوب (دلو) على تمرة .

فمددت ستة عشر ذنوبًا حتى مَجِلت يداي ، ثم أتيت الماء فأصبت منه ، ثم أتيتها فقلت بكفي هكذا بين يديها ، وبسط إسماعيل يديه و جمعها ، فَعَدَّت لي ست عشرة

تمرة فأتيت النبي ﷺ فأخبرته ، فأكل معي منها .

* * *

قوته رضي الله عنه

عن أبي رافع : أن يهوديًا ضرب عليًا فطرح ترسه، فتناول بابًا عند الحصن فتترس به ، فلم يزل في يده حتى فتح الله على يديه ثم ألقاه من يده ، قال أبو رافع : فلقد رأيتني أنا وسبعة معي نجتهد أن نقلب ذلك الباب على ظهره يوم خيبر فلم نستطع .

وقال ليث عن أبي جعفر عن جابر : إن عليًّا حمل الباب على ظهره يوم خيبر حتى صعد المسلمون عليه ففتحوها ، فلم يحمله إلا أربعون رجلًا .

* * *

عدله وعفته رضي الله عنه

كان أبو رافع مولى رسول الله ﷺ خازنًا لعلي رضي الله عنه على بيت المال فدخل عَليٌّ يومًا وقد زُيِّنَتْ ابنته فرأى عليها لؤلؤة كان عرفها لبيت المال فقال : من أين لها هذه ؟ لأقطعن يدها . فلما رأى أبو رافع جده في ذلك قال : أنا و الله يا أمير المؤمنين زينتها بها . فقال علي : لقد تزوجت بفاطمة ومالي فراش إلا جلد كبش ننام عليه بالليل ونعلف عليه ناضحنا بالنهار ومالي خادم غيرها .

وقال عاصم بن كليب عن أبيه : قدم على عليٍّ مال من أصبهان فقسمه على سبعة أسهم فوجد فيه رغيفًا فقسمه على سبعة ، ودعا أمراء الأسباع فأقرع بينهم لينظر أيهم يعطي أولًا .

وخرج من همذان فرأى رجلين يقتتلان ففرق بينهما ثم مضى فسمع صوتًا : يا غوثاه بالله . فخرج يحضر نحوه وهو يقول : أتاك الغَوث . فإذا رجل يلازم رجلًا ، فقال : يا أمير المؤمنين بعتُ هذا ثوبًا بسبعة دراهم وشرطتُ أن لا يعطيني مغموزًا ولا مقطوعًا – وكان شرطَهم يومئذٍ – فأتاني بهذه الدراهم فأبيتُ ولزمته فلطمني فقال للّاطِم : ما تقول ؟ فقال : صَدَقَ يا أمير المؤمنين . فقال : أعطه شَرْطَه . فأعطاه ، وقال للملطوم : اقتص . قال : أو أعفو يا أمير المؤمنين ؟ قال : ذلك إليك – ثم قال : يا معشر المسلمين ، خذوه فأخذوه فحُمل على ظهر رجل كما يحمل صبيان الكُتَّاب ، ثم ضربه خمس عشرة دِرَّة وقال : هذا نكالٌ لما انتهكتَ من حرمته .

وقال الشعبي : وجد عليٌّ درعًا له عند نصراني فأقبل به إلى شُرَيْح القاضي وجلس إلى جانبه وقال : لو كان خَصْمِي مسلمًا لساويته ، وقال : هذه درعي . فقال النصراني : ما هي إلا درعي ولم يكذب أمير المؤمنين . فقال شريح لعلي : ألك بينة ؟ قال : لا . وهو يضحك ، فأخذ النصراني الدرع ومشى يسيرًا ثم عاد وقال : أشهد أن هذه أحكام الأنبياء أميرُ المؤمنين قدَّمني إلى قاضيه ، وقاضيه يقضي عليه . ثم أسلم ، واعترفَ أن الدرع سقطتْ من عليٍّ عند مسيره إلى صفين ، ففرح علي بإسلامه ، ووهب له الدرع وفرسًا ، وشهد معه قتال الخوارج . [اهـ . من الكامل لابن الأثير] .

* * *

تزوُّج علي بفاطمة بنت رسول الله ﷺ

أخرج البيهقي في الدلائل عن علي قال : خُطبتْ فاطمةُ إلى رسول الله ﷺ فقالت مولاة لي : هل علمتَ أن فاطمة قد خُطبت إلى رسول الله ﷺ ؟ قلت : لا ، قالت : فقد خُطبت فما يمنعك أن تأتي رسول الله ﷺ فيزوجَك ؟ فقلت : وعندي شيء أتزوج به ؟ فقالت : إنك إن جئت رسول الله ﷺ زوَّجك ، قال : فو الله ما زالت تُرجِّيني حتى دخلت على رسول الله ﷺ فلما أن قعدت بين يديه أُفْحِمْتُ ، فو الله ما استطعت أن أتكلم جلالة وهيبة ، فقال رسول الله ﷺ : « **ما جاء بك ؟ ألك حاجة ؟** » فسكتُّ ، فقال : « **لعلك جئت تخطب فاطمة** » ، فقلت : نعم ،فقال : « **وهل عندك من شيءٍ تستحلها به ؟** » فقلت : لا و الله يا رسول الله ، فقال : « **ما فعلت درع سلحتُكها ؟** » – فوالذي نفس عليٍّ بيده إنها لحُطَمِيَّة (تحطم السيوف أي تكسرها) ما قيمتها أربعمائة درهم – فقلت : عندي ، فقال : « **قد زوجتكها فابعث إليها بها فاستحلها بها** » فإن كانت لَصداق فاطمة بنت رسول الله ﷺ . [كذا في البداية . وأخرجه أيضًا الدُّولابي في الذرية الطاهرة ، كما في كنز العمال] .

وأخرج الطبراني عن بريدة ﷺ قال : قال نفر من الأنصار لعلي : عندك فاطمة (أي اخطبها من النبي ﷺ) ، فأتى رسول الله ﷺ فقال : « **ما حاجة ابن أبي طالب ؟** » فقال : يا رسول الله ذكرتُ فاطمة بنت رسول الله ﷺ فقال : « **مرحبًا وأهلًا** » لم يزد عليها ، فخرج علي بن أبي طالب على أولئك الرهط من الأنصار ينتظرونه ، فقالوا : ما وراءك ؟ قال : ما أدري غير أنه قال لي : « **مرحبًا و أهلًا** » ، قالوا : يكفيك من رسول الله ﷺ إحداهما ، أعطاك الأهل و المرحب ، فلما كان بعدما زوجه قال : « **يا علي** ،

إنه لابد للعروس من وليمة » ، قال سعد ﷺ : عندي كبش وجمع له رهط من الأنصار أصوُعًا من ذرة ، فلما كانت ليلة البناء قال : (أي النبي عليه الصلاة و السلام) : « **لا تُحْدِث شيئًا حتى تلقاني** » فدعا رسول اللّه ﷺ بماء فتوضأ منه ثم أفرغه على عَلِيٍّ فقال : « **اللهم بارك فيهما وبارك لهما في بنائهما** » [قال الهيثمي : رواه الطبراني و البزار بنحوه] إلا أنه قال : قال نفر من الأنصار لعلي : لو خطبت فاطمة ، وقال في آخره : « **اللهم بارك فيهما وبارك في شملِهما** » ورجالهما رجال الصحيح غير عبد الكريم بن سليط ووثقه بن حبان وأخرجه الروياني وابن عساكر نحوه كما في الكنز ، وفي روايتهما « **اللهمَّ بارك فيهما وبارِك عليهما وبارك لهما في بنائهما وبارك لهما في نسلهما** » [وأخرجه أيضًا النسائي نحوه ، كما في البداية] . وفي رواية : « **اللهمَّ بارك لهما في شملهما** » يعني في الجماع .
[وأخرجه ابن سعد عن بريدة نحوه] .

وأخرج الطبراني عن أسماء بنت عميس رضي الله عنها **قالت** : لما أُهديت فاطمة إلى علي بن أبي طالب لم نجد في بيته إلا رَمْلًا (حصيرًا) مبسوطًا ووسادة حشوها ليف وجرة وكوزًا فأرسل رسول اللّه ﷺ (أي إلى علي) « **لا تُحْدثن حَدَثًا – أو قال : لا تقربن أهلك – حتى آتيك** » فجاء النبي ﷺ فقال : « **أثَمَّ أخي ؟** » فقالت أم أيمن رضي الله عنها : وهي أم أسامة بن زيد ﷺ وكانت حبشية وكانت امرأة صالحة – : يا رسول اللّه ، هذا أخوك وزوجته ابنتك ؟ – وكان النبي ﷺ آخى بين أصحابه وآخى بين علي ونفسه – قال : « **إن ذلك يكون يا أم أيمن** » قالت : فدعا النبي ﷺ بإناء فيه ماء ثم قال ما شاء اللّه أن يقول ثم مسح صدر عَلِيٍّ ووجهه ثم دعا فقامت إليه فاطمة تعثر في مِرْطها من الحياء فنضح عليها من ذلك وقال لها ما شاء اللّه أن يقول ثم قال لها : « **أما إني لم آلك (أقصر) أن أنكحتك أحب أهلي إليَّ** » ، ثم رأى سوادًا من وراء الستر أو من وراء الباب . فقال : « **مَن هذا ؟** » قالت أسماء ، قال : « **أسماء بنت عميس ؟** » قالت : نعم يا رسول اللّه ، قال : « **جئتِ كرامة لرسول اللّه** ﷺ ؟ » قالت : نعم ، إن الفتاة ليلة يُبنى بها لا بد لها من امرأة تكون قريبًا منها ، إن عرضتْ لها حاجة أفضت ذلك إليها ، قالت : فدعا لي بدعاء إنه لأوثق عملي عندي ، ثم قال لعلي : « **دونك أَهْلَك** » ثم خرج فولى فما زال يدعو لهما حتى توارى في حُجَرِه .

وفي رواية عن أسماء بنت عميس أيضًا قالت : كنت في زفاف فاطمة رضي الله عنها بنت رسول اللّه ﷺ فلما أصبحت جاء النبي ﷺ فضرب الباب فقامت إليه أم أيمن ففتحت له الباب فقال لها : « **يا أم أيمن ادعي لي أخي** » فقالت : أخوك هو وتنكحه ابنتك ؟ قال :

« **يا أم أيمن ادعي لي** » فسمع النساء صوت النبي ﷺ فتَحَشحشن (تحركن) فجلس في ناحية ثم جاء علي ﷺ فدعا له ثم نضح عليه من الماء ، ثم قال : « **ادعوا لي فاطمة** » فجاءت وهي عرقة حزقة (منكمشة) من الحياء فقال : « **اسكتي فقد أنكحتك أحب أهلي إلي** » - فذكر نحوه . [قال الهيثمي : رواه كله الطبراني ورجال الرواية الأولى رجال الصحيح . اهـ] .

وأخرج أبو يعلي وسعيد بن منصور عن عَلْباء بن أحمر قال : قال علي ابن أبي طالب : خطبت إلى النبي ﷺ ابنته فاطمة ، قال : فباع عَلِيٌّ درعًا له وبعض ما باع من متاعه فبلغ أربعمائة وثمانين درهمًا ، قال : وأمر النبي ﷺ أن يجعل ثلثيه في الطيب وثلثًا في الثياب ، ومَجَّ في جرة من ماء فأمرهم أن يغتسلوا به ، وأمرها أن لاتسبقه برضاع ولدها فسبقته برضاع الحسين ، وأما الحسن فإنه ﷺ صنع فيه شيئًا لايُدرى ماهو فكان أعلم الرجلين . [كذا في الكنز . وأخرج ابن سعد عن علياء قصة الطيب والثياب] .

وأخرج البيهقي في الدلائل عن عَلِيٍّ قال : جهز رسول الله ﷺ فاطمة في خَميل وقربة ووسادة أدَم حشوها إذْخِر . [كذا في الكنز] وعند الطبراني عن عبد الله بن عمرو ﷺ قال : لما جهَّز رسول الله ﷺ فاطمة إلى علي ﷺ بعث معها بخميل - قال عطاء : ما الخميل ؟ قال : قطيفة - ووسادة من أدَم حشوها ليف وإذخر وِقربة ، كانا يفترشان الخميل ويلتحفان بنصفه . [قال الهيثمي : وفيه عطاء بن السائب وقد اختلَط اهـ حياة الصحابة] .

* * *

كلمات منتخبة من كلامه ومواعظه ﷺ

عن عبد خير عن علي ﷺ قال : ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر عملك ويعظم حلمك ، ولا خير في الدنيا إلا لأحد رجلين : رجل أذنب ذنوبًا فهو يتدارك ذلك بتوبة ، أو رجلٌ يسارع في الخيرات . ولا يقل عمل في تقوى وكيف يقل ما يتقبل ؟

وعن أبي الزغل قال : قال علي بن أبي طالب ﷺ : احفظوا عني خمسًا : فلو ركبتم الإبل في طلبهن لأنضيتموهن قبل أن تدركوهن ، لا يرجو عبد إلا ربه ، ولا يخاف إلا ذنبه ، ولا يستحي جاهل أن يسأل عما لا يعلم ولا يستحي عالمٌ إذا سُئِل عمَّا لا يعلم أن يقول : اللّه أعلم . والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا إيمان لمن لا صبر له .

وعن عاصم بن ضمرة عن علي ﷺ قال : ألا إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يُقَنِّط الناس من رحمة اللّه ، و لا يُؤَمِّنُهم من عذاب اللّه ، ولا يُرَخِّص لهم في معاصي اللّه ، ولايدع القرآن رغبة عنه إلى غيره ، ولا خير في عبادة لا علم فيها ، ولا خير في علم لا

فهم فيه ، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها .

وعن مهاجر بن عمير قال : قال علي بن أبي طالب : إن أخوفَ ما أخافُ اتباعُ الهوى ، وطول الأمل : فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسي الآخرة ، ألا وإن الدنيا قد ترحّلت مدبرة ، ألا وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة ، ولكل واحدة منها بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغدًا حساب ولا عمل .

وعن رجل من بني شيبان : أن علي بن أبي طالب ﷺ خطب فقال : الحمد للّه أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليزيح به عِلّتكم ، وليوقظ به غفلتكم ، و اعلموا أنكم ميتون ومبعوثون من بعد الموت ، وموقوفون على أعمالكم ومجزيون بها فلا تغرنكم الحياة الدنيا فإنها دار بالبلاء محفوفة ، وبالفناء معروفة ، وبالغدر موصوفة ، وكل ما فيها إلى زوال ، وهي بين أهلها دُوَل وسِجال ، لا تدوم أحوالها ، ولن يسلم من شرها نُزّالها ، بينا أهلها منها في رخاء وسرور ، إذا هم منها في بلاء و غرور ، أحوال مختلفة ، وتارات متصرفة ، العيش فيها مذموم ، و الرخاء فيها لا يدوم ، وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة ترميهم بسهامها ، وتقصمهم بحِمَامها ، وكُلٌّ حتفه فيها مقدور ، وحظه فيها موفور ، و اعلموا عباد اللّه أنكم وما أنتم فيه من زهرة الدنيا على سبيل مَن قد مضى ممن كان أطول منكم أعمارًا ، وأشد منكم بطشًا ، وأعمر ديارًا ، وأبعد آثارًا ،فأصبحت أموالهم هامدة من بعد نقلتهم،وأجسادهم بالية ، وديارهم خالية ، وآثارهم عافية .

وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده : أن عليًا ﷺ شيع جنازة ، فلما وضعت في لحدها عَجَّ أهلها (صاحوا وصخبوا) وبكوها فقال : ما تبكون ؟ أما و اللّه لو عاينوا ما عاين ميتُهم لأذهلتهم معاينتهم عن ميتهم ، وإن له (للموت) فيهم لعودة ، ثم عودة حتى لا يُبقيَ منهم أحدًا .ثم قام فقال : أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه الذي ضرب لكم الأمثال ، وَوَقّت لكم الآجال ، وجعل لكم أسماعًا تعي ما عناها ، وأبصارً لتجلو عن غشاها ، وأفئدة تفهم ما دهاها ، إن اللّه لم يخلقكم عبثًا ، ولم يضرب عنكم الذكر صحفًا ، بل أكرمكم بالنعم السوابغ ، وأرصد لكم الجزاء ، فاتقوا اللّه عباد اللّه وجِدُّوا في الطلب ، وبادروا بالعمل قبل هاذم اللذات (قاطعها) ، فإن الدنيا لا يدوم نعيمها ، ولا تؤمن فجائعها ، غرور حائل وسِناد مائل ، اتعظوا عباد اللّه بالعِبَر ، وازدجروا

بالنُّذُر ، وانتفعوا بالمواعظ فكأنْ قد علقتكم مخالب المنية ، وضُمِّنتُم بيت التراب ، ودهمتكم مفظعات الأمور بنفخة الصور ، وبَعْثَرة القبور ، وسياق المحشر ، وموقف الحساب ، بإحاطة قدرة الجبار ، كل نفس معها سائق يسوقها لمحشرها ، وشاهد يشهد عليها ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٦٩] ، فارتجت لذلك اليوم البلاد ، ونادى المنادي ، وحُشرت الوحوش ، وبدت الأسرار ، وارتَجَّت الأفئدة ، وبُرِّزت الجحيم قد تأجج جحيمها ، وغلا حميمها ، عباد اللَّه : اتقوا اللَّه تقية من وَجِلَ و حَذِرَ ، وأبصر وازدجر ، فاحتث طلبًا ونجا هربًا ، وقدَّم للمِعاد ، واستظهر بالزاد ، وكفى باللَّه منتقمًا ونصيرًا ، وكفى بالكتاب خَصمًا وحجيجًا ، وكفى بالجنة ثوابًا ، وكفى بالنار وبالًا وعقابًا ، وأستغفر اللَّه لي ولكم » .

وعن كُمَيل بن زِياد قال : أخذ علي بن أبي طالب بيدي فأخرجني إلى ناحية الجَبَّان (الصحراء) فلما أَصحْرنا جلس ثم تنفس ثم قال : يا كُمَيلُ بنَ زياد : القلوب أوعية فخيرها أوعاها للعلم ، احفَظْ ما أقول لك ، الناس ثلاثة : عالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمَج رعَاع أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيؤوا بنور العلم ، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق . العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، العلم يزكو على العمل ، و المال تنقصه النفقة ، العلم حاكم والمال محكوم عليه ، وصنيعة المال تزول بزواله ، ومحبة العالم دَينٌ يُدان بها ، العلم يُكسبه الطاعة في حياته ، وجميل الأحدوثة بعد مماته ، مات خُزَّان المال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة .

وعن أبي أراكة قال : صليت مع علي بن أبي طالب ﷺ صلاة الفجر ، فلما سَلَّم انفتل عن يمينه ، ثم مكث كأن عليه كآبة حتى إذا كانت الشمس على حائط المسجد قِيدَ رمح قال ، وقلب يده : لقد رأيت أصحاب رسول اللَّه ﷺ فما أرى اليوم شيئًا يشبههم ، لقد كانوا يصبحون شُعْثًا صُفرًا غُبْرًا بين أعينهم أمثال ركب المِعزَي ، قد باتوا للَّه سجدًا وقيامًا ، يتلون كتاب اللَّه ، يراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا فذكروا اللَّه مَادَوْا كما تميد الشجرة في يوم الريح ، وهَمَلت أعينهم حتى تُبَلَّ ثيابهم ، واللَّه لكأن القوم باتوا غافلين . ثم نهض فما رُئي مُفْتَرًا يضحك حتى ضربه ابن مُلْجَم .

* * *

خلافة الإمام علي رضي الله عنه

قال ابن كثير : لما مرض رسول الله ﷺ قال العباس لعلي : سل رسول الله ﷺ فيمن الأمر بعده ؟ فقال : والله لا أسأله فإنه إن منعناها لا يعطيناها الناس بعده أبدًا ، والأحاديث الصحيحة دالة على أن رسول الله ﷺ لم يوصِ إليه و لا إلى غيره بالخلافة ، بل لَوَّح بذكر أبي بكر الصديق ، وأشار إشارة مفهمة ظاهرة جدًّا إليه .

وأما ما يفتريه كثير من جهلة الشيعة و القُصاص الأغبياء ، من أنه أوصى إلى عليٍّ بالخلافة ؛ فكذب و بهت و افتراء عظيم يلزم منه خطأ كبير من تخوين الصحابة و اتفاقهم بعد موت رسول الله ﷺ على ترك إنفاذ وصيته ، وإيصالها إلى من أوصى إليه وصرفهم إياها إلى غيره ، لا لمعنى ولا لسبب ، وكل مؤمن بالله تعالى ورسوله حريص على تحري الحقيقة ، بعيد عن العصبية واتباع الهدى ، يعلم بطلان هذا الافتراء ؛ لأن الصحابة كانوا خير الخلق بعد الأنبياء ، وهم خير قرون هذه الأمة التي هي أشرف الأمم بنص القرآن ، وإجماع السلف و الخلف في الدنيا والآخرة .

فلما قُتل عثمان يوم الجمعة لثماني عشرة خلت من ذي الحجة سنة خمس و ثلاثين على المشهور . عدل الناس إلى عليٍّ فبايعوه قبل أن يُدفن عثمان ، وقيل : بعد دفنه ، وقد امتنع عَلِيٌّ من إجابتهم إلى قبول الإمارة حتى تكرر قولهم له ، وفرَّ منهم إلى حائط بني عمرو بن مجدول ، وأغلق بابه ، فجاء الناس فطرقوا الباب وولجوا عليه ، وجاؤوا معهم بطلحة والزبير ، فقالوا له : إن هذا الأمر لا يمكن بقاؤه بلا أمير ، ولم يزالوا به حتى أجاب .

* * *

بيعة علي رضي الله عنه بالخلافة

يقال : إن أول من بايعه طلحة بيده اليمنى وكانت شَلَّاء من يوم أُحُد - لما وقى بها رسول الله ﷺ - فقال بعض القوم : والله إن هذا الأمر لا يتم ، وخرج عَلِيٌّ إلى المسجد فصعِد المنبر وعليه إزار وعمامة خز ونعلاه في يده ، يتوكأ على قوسه ، فبايعه عامة الناس ، وذلك يوم السبت التاسع عشر من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين .

ويقال : إن طلحة والزبير إنما بايعاه بعد أن طلبهما وسألاه أن يؤمرهما على البصرة والكوفة ، فقال لهما : بل تكونان عندي أستأنس بكما ، ومن الناس من يزعم أنه لم يبايعه طائفة من الأنصار ، منهم حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، ومَسلمة بن مُخَلد ، وأبو سعيد ، ومحمد بن مَسْلَمة ، و النعمان بن بشير ، وزيد بن ثابت ، ورافع

ابن خديج ، وفضالة بن عبيد ، وكعب بن عُجرة . ذكره ابن جرير من طريق المدائني عن شيخ من بني هاشم عن عبد بن الحسن . قال المدائني : حدثني من سمع الزهري يقول : هرب قوم من المدينة إلى الشام ولم يبايعوا عليًا : قدامة بن مظعون ، وعبد اللَّه بن سلام ، والمغيرة بن شعبة ، قلت : وهرب مروان بن الحكم ، والوليد ابن عقبة وآخرون إلى الشام .

وقال الواقدي : بايع الناسُ عليًّا بالمدينة ، وتربص سبعة نفر لم يبايعوا ، منهم : ابن مسلمة ، وسلمة بن سلامة بن وقش ، وأسامة بن زيد ، ولم يتخلف أحد من الأنصار إلا بايع فيما نعلم .

وذكر سيف بن عمر عن جماعة من شيوخه قالوا : بقيت المدينة خمسة أيام بعد مقتل عثمان وأميرها الغافقي بن حرب ، يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر ، والمصريون يُلحُّون على عَلِيٍّ وهو يهرب منهم إلى الحيطان ، ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه ، والبصريون يطلبون طلحة فلا يجيبهم ، فقالوا : فيما بينهم : نولي أحدًا من هؤلاء الثلاثة ، فمضوا إلى سعد بن أبي وقاص وقالوا : إنك من أهل الشورى فلم يقبل منهم ، ثم راحوا إلى ابن عمر فأبى عليهم ، فحاروا فيْ أمرهم ، ثم قالوا : إن نحن رجعنا إلى أمصارنا بقتل عثمان من غير إمرة اختلف الناس في أمرهم ولم نسلم ، فرجعوا إلى عليٍّ فألحوا عليه ، وأخذ الأشتر بيده فبايعه وبايعه الناس ، وأهل الكوفة يقولون : أول من بايعه الأشتر النخعي وذلك يوم الخميس الرابع والعشرين من ذي الحجة ، وذلك بعد مراجعة الناس لهم في ذلك ، وكلهم يقول : لا يصلح لها إلا عَلِيّ ، فلما كان يوم الجمعة وصعد عِلِيٌّ المنبر بايعه من لم يبايعه بالأمس ، وكان أول من بايعه طلحة بيده الشَّلَّاء ، فقال قائل : إنا للَّه وإنا إليه راجعون ، ثم الزبير ، ثم قال الزبير : إنما بايعتُ عليًّا واللج على عنقي والسلام ، ثم راح إلى مكة ، فأقام أربعة أشهر ، وكانت هذه البيعة يوم الجمعة لخمسة بقين من ذي الحجة .

* * *

خطبة علي رضي الله عنه

كان أول خطبة خطبها أنه حمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال : إن اللَّه تعالى أنزل كتابًا هاديًا بيَّن فيه الخير والشر ، فخذوا بالخير وَدَعُوا الشر ، إن اللَّه حرم حرمًا معلومة ، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها ، وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين ، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق ، لا يحل لمسلم أذى مسلم إلا

بما يجب ، بادروا أمر العامة ، وخاصة أحدكم الموت ، فإن الناس أمامكم ، وإنما خلفكم الساعة تحدو بكم فتخففوا تلحقوا ، فإنما ينتظر بالناس أُخراهم ، اتقوا الله عبادَه في عباده وبلاده ، فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع و البهائم ثم أطيعوا الله ولا تعصوه ، وإذا رأيتم الخير فخذوا به ، وإذا رأيتم الشر فدعوه ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

* * *

مثيرو الفتن حول علي رضي الله عنه

لما قُتِلَ عثمان بن عفان خرج النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان مضمخ بدمه ، ومعه أصابع نائلة التي أصيبت حين دافعت عنه بيدها ، فقطعت مع بعض الكف ، فورد به على معاوية بالشام ، فوضعه معاوية على المنبر ليراه الناس ، وعلق الأصابع في كم القميص ، وندب الناس على الأخذ بهذا الثأر والدم لصاحبه ، فتباكى الناس حول المنبر ، وجعل القميص يُرفع تارة ويوضع تارة ، و الناس يتباكون حوله سنة ، ويحث بعضهم بعضًا على الأخذ بثأره ، واعتزل أكثر الناس النساء في هذا العام ، وقام في الناس معاوية وجماعة من الصحابة معه يحرضون الناس على المطالبة بدم عثمان ممن قتله من أولئك الخوارج : منهم عبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء ، وأبو أمامة ، وعمرو بن عنبسة وغيرهم من الصحابة ، ومن التابعين : شريك بن حباشة ، وأبو مسلم الخولاني ، وعبد الرحمن بن غُنْم ، وغيرهم من التابعين .

* * *

موقف علي من قتلة عثمان

لما استقر أمر بيعة عَلِيٍّ دخل عليه طلحة والزبير ورؤوس الصحابة رضي الله عنهم ، وطلبوا منه إقامة الحدود والأخذ بدم عثمان . فاعتذر إليهم بأن هؤلاء لهم مدد وأعوان ، وأنه لا يمكنه ذلك يومه هذا ، فطلب منه الزبير أن يوليه إمرة الكوفة ليأتيه بالجنود ، وطلب منه طلحة أن يوليه إمرة البصرة ليأتيه منها بالجنود ليقوى بهم على شوكة هؤلاء الخوارج وجهلة الأعراب الذين كانوا معهم في قتل عثمان رضي الله عنه ، فقال لهما : مهلًا عَلَيَّ حتى أنظر في هذا الأمر ، ودخل عليه المغيرة بن شعبة على إثر ذلك فقال له : إني أرى أن تُقِرَّ عمالك على البلاد فإذا أتتك طاعتهم استبدلت بعد ذلك بمن شئت وتركت من شئت ،

ثم جاءه من الغد ، فقال له : إني أرى أن تعزلهم لتعلم من يطيعك ممن يعصيك ، فعرض ذلك عَلِيٌّ على ابن عباس فقال : لقد نصحك بالأمس وغشك اليوم ، فبلغ ذلك المغيرة فقال : نعم . نصحته فلما لم يقبل غششته ، ثم خرج المغيرة فلحق بمكة ، ولحقه جماعة منهم طلحة والزبير وكانوا قد استأذنوا عليًا في الاعتمار فأذن لهم ، ثم إن ابن عباس أشار على عَلِيٍّ باستمرار نوابه في البلاد إلا أن يتمكن الأمر ، وأن يُقِرَّ معاوية خصوصًا على الشام وقال له : إني أخشى إن عزلته عنها أن يطلبكَ بدم عثمان ولا آمن طلحة والزبير أن يتكلما عليك بسبب ذلك ، فقال عَلِيٌّ : إني لأرى هذا ولكن اذهب أنت إلى الشام فقد وليتكها ، فقال ابن عباس لِعَلِيٍّ : إني أخشى من معاوية أن يقتلني بعثمان ، أو يحبسني لقرابتي منك ولكن اكتب معي إلى معاوية فَمَنِّه وَعِدْه ، فقال علي : واللَّه إن هذا ما لا يكون أبدًا ، فقال ابن عباس : يا أمير المؤمنين الحرب خدعة كما قال رسول اللَّه ﷺ فو اللَّه لئن أطعتني لأوردنهم بعد صدورهم ونهى ابن عباس عليًا فيما أشار عليه أن يقبل من هؤلاء الذين يُحَسِّنون إليه الرحيل إلى العراق ، ومفارقة المدينة ، فأبى عليه ذلك كله ، وطاوع أمر أولئك الخوارج من أهل الأمصار .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة قصد قسطنطين بن هرقل بلاد المسلمين في ألف مركب ، فأرسل اللَّه عليه قاصفًا من الريح فأغرقه اللَّه بحوله وقوته ومن معه ، ولم ينج منهم أحد إلا الملك في شرذمة قليلة من قومه ، فلما دخل صقلية عملوا له حمامًا فدخله فقتلوه فيه ، وقالوا : أنت قتلت رجالنا .

* * *

أول عمل لعلي بعد استخلافه

بادر عَلِيٌّ لما عرف عنه من الشدة في الحق وعدم الهوادة فيه ، بعزل الولاة الذين ولَّاهم عثمان والذين كانوا مثار الفتنة ، وسبب خروج الثوار عليه ، ولم يصغ لنصيحة بعض الصحابة له بإبقائها حتى تهدأ الحال ، وتستقر الأمور في نصابها .

كما استفتح ولايته باسترداد الإقطاعيات التي كان عثمان قد منحها بعض بطانته والمقربين من أهل بيته إلى بيت المال ، واتبع في توزيع الأرزاق القواعد التي سَنَّها عمر .

وقد أثار هذا العمل سخط أولئك الولاة الذين أَثْروا في عهد عثمان ، وأبي معاوية بن أبي سفيان الذي مكنته ثروة بلاد الشام من تكوين حزب قوي ، أبي الإذعان لأمر علي ونشر لواء الثورة والعصيان ، وطالب عليًا بأن يأخذ بثأر عثمان فيتتبع قتلته ويقتلهم . لكن عليًا رأى أن يدخلوا في الطاعة أولًا ثم يتقدم إليه وَلِيُّ دمه ، فيتبع معه ما يوجبه الشرع ،

إذا كان يرى إن القصاص من غير دعوى ولا إقامة بينة مخالف لكتاب اللّه تعالى .

* * *

ولاة علي على الأمصار

وَلَّى علي على الأمصار نوابًا : فولى عبد اللّه بن عباس على اليمن ، وولى سمرة بن جندب على البصرة ، وعمارة بن شهاب على الكوفة ، وقيس بن سعد بن عبادة على مصر ، وعلى الشام سهل بن حنيف بدل معاوية .

أما سهل بن حنيف : فسار حتى بلغ تبوك فتلقته خيل معاوية ، فقالوا : من أنت ؟ فقال : أمير . قالوا : على أي شيء ؟ قال : على الشام ، فقالوا : إن كان عثمان بعثك فحيهلاً بك ، وإن كان غيره فارجع . فقال : أو ما سمعتم الذي كان ؟ قالوا : بلى ، فرجع إلى عليٍّ .

وأما قيس بن سعد : فاختلف عليه أهل مصر فبايع له الجمهور ، وقالت طائفة : لا نبايع حتى نقتل قتلة عثمان ، وكذلك أهل البصرة .

وأما عمارة بن شهاب المبعوث أميرًا على الكوفة : فصده عنها طلحة بن خويلد غضبًا لعثمان ، فرجع إلى علي فأخبره ، وانتشرت الفتنة ، وتفاقم الأمر ، واختلفت الكلمة ، وكتب أبو موسى إلى علي بطاعة أهل الكوفة ومبايعتهم إلا القليل منهم ، وبعث علي إلى معاوية كتبًا كثيرة فلم يرد عليه جوابها ، وتكرر ذلك مرارًا إلى الشهر الثالث من مقتل عثمان في صفر ، ثم بعث معاوية طومارًا مع رجل فدخل به على علي فقال : ما وراءك ؟ قال : جئتك من عند قوم لايريدون إلا القود كلهم موتور ، تركت سبعين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان ، وهو على منبر دمشق ، فقال علي : اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان ، ثم خرج رسول معاوية من بين يدي عَلِيٍّ فَهَمَّ به أولئك الخوارج الذين قتلوا عثمان يريدون قتله فما أفلت إلا بعد جهد . وعزم عليٌّ ﷺ على قتال أهل الشام ، وكتب إلى قيس بن سعد بمصر يستنفر الناس لقتالهم ، وإلى أبي موسى بالكوفة ، وبعث إلى عثمان بن حنيف بذلك ، وخطب الناس فحثهم على ذلك . وعزم على التجهز ، وخرج من المدينة ، واستخلف عليها قثم بن العباس ، وهو عازم أن يقاتل بمن أطاعه مَن عصاه وخرج عن أمره ولم يبايعه مع الناس ، وجاء إليه ابنه الحسن بن علي فقال : يا أبت دع هذا فإن فيه سفك دماء المسلمين ، ووقوع الاختلاف بينهم ، فلم يقبل منه ذلك ، بل صمم على القتال ورتب الجيش ، فدفع اللواء إلى محمد ابن الحنفية وجعل ابن العباس على الميمنة ، وعمرو بن أبي سلمة على الميسرة ، وقيل : جعل على الميسرة عمرو بن سفيان بن عبد الأسد ، وجعل على مقدمته أبا

ليلى بن عمرو بن الجراح ابن أخي أبي عبيدة ، واستخلف على المدينة قثم بن العباس ولم يبق شيء إلا أن يخرج من المدينة قاصدًا إلى الشام حتى جاءه ما شغله عن ذلك كله وهو الآتي .

* * *

عائشة وموقعة الجمل

لما وقع قتل عثمان بعد أيام التشريق ، كان أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين قد خرجن إلى الحج في هذا العام فرارًا من الفتنة ، فلما بلغ الناسَ أن عثمان قد قُتل ، أقمن بمكة بعدما خرجن منها ، ورجع الناس إليها وأقاموا بها ، وجعلوا ينتظرون ما يصنع الناس ، ويتجسسون الأخبار ، فلما بويع علي وصار حظ الناس عنده بحكم الحال وغلبة الرأي ، لا عن اختيار منهم ، وأن أولئك الخوارج الذين قتلوا عثمان صاروا ذوي الكلمة المسموعة ، مع أن عليًا في نفس الأمر يكرههم ولكنه تربص بهم الدوائر ، ويود لو تمكن منهم ليأخذ حق اللَّه منهم ، ولكن لما وقع الأمر هكذا واستحوذوا عليه ، وحجبوا عنه علية الصحابة فَرَّ جماعة من بني أمية وغيرهم إلى مكة واستأذنه طلحة و الزبير في الاعتمار ، فأذن لهما فخرجا إلى مكة ، وتبعهما خلق كثير ، وجم غفير ، وكان عَلِيٌّ لما عزم على قتال أهل الشام قد ندب أهل المدينة إلى الخروج معه فأبوا عليه ، فطلب عبد اللَّه بن عمر ابن الخطاب وحرضه على الخروج معه ، فقال : إنما أنا رجل من أهل المدينة إن خرجوا خرجت على السمع والطاعة ، ولكن لا أخرج للقتال في هذا العام ، ثم تجهز ابن عمر وخرج إلى مكة ، وقدم إلى مكة أيضًا في هذا العام يعلى بن أمية من اليمن - وكان عاملًا عليها لعثمان - ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف درهم ، وقَدِم لها عبد اللَّه بن عامر من البصرة ، وكان نائبها لعثمان ، فاجتمع فيها خلق من سادات الصحابة ، وأمهات المؤمنين ، فقامت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في الناس تخطبهم وتحثهم على القيام بطلب دم عثمان وذكرت ما افتات به أولئك من قتله في بلد حرام وشهر حرام ، ولم يراقبوا جوار رسول اللَّه ﷺ وقد سفكوا الدماء ، وأخذوا الأموال فاستجاب الناس لها وطاوعوها على ماتراه من الأمر بالمصلحة ، وقالوا لها : حيثما سِرتِ سِرنًا معك ، فقال قائل : نذهب إلى الشام ، فقال بعضهم : إن معاوية قد كفاكم أمرها ، ولو قدموها لغلبوا ، واجتمع الأمر كله لهم ؛ لأن أكابر الصحابة معهم ، وقال آخرون : نذهب إلى المدينة فنطلب من عَلِيٍّ أن يسلم إلينا قتلة عثمان فيقتلوا ، وقال آخرون : بل نذهب إلى البصرة فنتقوى من هنالك بالخيل والرجل ، ونبدأ بمن هناك من قتلة عثمان . فاتفق الرأي على ذلك وكان بقية أمهات المؤمنين قد وافقن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على المسير إلى المدينة فلما اتفق الناس إلى المسير إلى

البصرة رجعن عن ذلك وقلن : لا نسير إلى غير المدينة ، وجهز الناسَ يعلى بن أمية فأنفق فيهم ستمائة بعير وستمائة ألف درهم ، وجهزهم ابن عامر أيضًا بمال كثير ، وكانت حفصة بنت عمر قد وافقت عائشة على المسير إلى البصرة فمنعها أخوها عبد الله من ذلك ، وأبى هو أن يسير معهم إلى غير المدينة ، وسار الناس صحبة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في ألف فارس وقيل : تسعمائة فارس من أهل المدينة ومكة وتلاحق بهم آخرون ، فصاروا في ثلاثة آلاف .

وكانت أم المؤمنين عائشة تُحمل في هودج على جمل اسمه عسكر ، اشتراه يعلى بن أمية من رجل من عُرَيْنَة بمائتي دينار ، وسار معها أمهات المؤمنين إلى ذات عرق ففارقنها هنالك وبَكَين للوداع ، وتباكى الناس ، وكان ذلك اليوم يسمى يوم النحيب ، وسار الناس قاصدين البصرة وكان الذي يصلي بالناس عن أمر عائشة ابن أختها عبد الله بن الزبير ، ومروان ابن الحكم يُؤذِّن للناس في أوقات الصلوات ، وقد مروا في مسيرهم ليلًا بماء يقال له الحوأب ، فنبحتهم كلاب عنده ، فلما سمعت ذلك عائشة قالت : ما اسم هذا المكان قالوا : الحوأب ، فضربت بإحدى يديها على الأخرى وقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ما أظنني إلا راجعة ، قالوا : ولم ؟ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول لنسائه : « **ليت شعري أيتكن التي تنبحها كلاب الحوأب** » ، ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته ، وقالت : ردوني ردوني ، أنا والله صاحبة ماء الحوأب ، وقد أوردنا هذا الحديث بطرقه وألفاظه في دلائل النبوة ، فأناخ الناس حولها يومًا و ليلة ، وقال لها عبد الله بن الزبير : إن الذي أخبرك أن هذا ماء الحوأب قد كذب ، ثم قال الناس : النجا النجا ، هذا جيش علي بن أبي طالب قد أقبل ، فارتحلوا نحو البصرة ، فلما اقتربت من البصرة كتبت إلى الأحنف بن قيس وغيره من رؤوس الناس ، أنها قد قدمت فبعث عثمان بن حنيف عمران بن حصين وأبا الأسود الدؤلي إليها ليعلما ما جاءت له ، فلما قدما عليها سلما عليها واستعلما منها ما جاءت له ، فذكرت لهما ما الذي جاءت له من القيام بطلب دم عثمان ؛ لأنه قتل مظلومًا في شهر حرام وبلد حرام ، وتلت قوله تعالى : ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٤] . فخرجا من عندها فجاءا إلى طلحة فقالا له : ما أقدمك ؟ قال : الطلب بدم عثمان ، فقالا : أما بايعت عليًا ؟ قال : بلى ، و السيف على عنقي ولا أستقبله إن هو لم يُخل بيننا و بين قتلة عثمان . فذهبا إلى الزبير فقال مثل ذلك قال : فرجع عمران وأبو الأسود إلى عثمان بن حنيف فقال عثمان بن حنيف : إنا لله وإنا إليه راجعون ، دارت رحا الإسلام ورب الكعبة . فقال عمران : إي و الله لَتَعْرُكَنَّكُم عركًا طويلًا ،

يشير عثمان بن حنيف إلى حديث ابن مسعود مرفوعًا « **تدور رحا الإسلام لخمس وثلاثين** » الحديث . ثم قال عثمان بن حنيف لعمران بن حصين : أَشِرْ عَلَيَّ ، فقال : اعتزل فإني قاعد في منزلي - أو قال : قاعد على بعيري - فذهب ، فقال عثمان : بل أمنعهم حتى يأتي أمير المؤمنين ، فنادى في الناس يأمرهم بلبس السلاح و الاجتماع في المسجد ، فاجتمعوا فأمرهم بالتجهز ، فقام رجل وعثمان على المنبر فقال : أيها الناس إن كان هؤلاء القوم جاؤوا خائفين فقد جاؤوا من بلد يأمن فيه الطير ، وإن كانوا جاؤوا يطلبون بدم عثمان فما نحن بقتلته ، فأطيعوني وردوهم من حيث جاؤوا فقام الأسود بن سريع السعدي ، فقال : إنما جاؤوا يستعينون بنا على قتلة عثمان منا ومن غيرنا ، فحصبه الناس ، فعلم عثمان بن حنيف أن لقتلة عثمان بالبصرة أنصارًا ، فكره ذلك ، وقدمت أم المؤمنين بمن معها من الناس ، فنزلوا المربد من أعلاه قريبًا من البصرة ، وخرج إليها من أهل البصرة من أراد أن يكون معها ، وخرج عثمان بن حنيف بالجيش فاجتمعوا بالمربد ، فتكلم طلحة - وكان على الميمنة - فندب إلى الأخذ بثأر عثمان ، و الطلب بدمه ، وتابعه الزبير فتكلم بمثل مقالته فرد عليهما ناس من جيش عثمان بن حنيف وتكلمت أم المؤمنين رضي الله عنها فحرضت وحثت على القتال ، فتناور طوائف من أطراف الجيش فتراموا بالحجارة ، ثم تحاجز الناس ، ورجع كل فريق إلى حوزته ، وقد صارت طائفة من جيش عثمان بن حنيف إلى جيش عائشة ، فكثروا .

وجاء حارثة بن قدامة السعدي فقال : يا أم المؤمنين ؟! و اللَّه لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل عرضة للسلاح ، إن كنت أتيتنا طائعة فارجعي من حيث جئت إلى منزلك ، وإن كنت أتيتنا مكرهة فاستعيني بالناس في الرجوع .

وأقبل حكيم بن جبلة - وكان على خيل عثمان بن حنيف - فأنشب القتال وجعل أصحاب أم المؤمنين يكفون أيديهم ويمتنعون من القتال ، وجعل حكيم يقتحم عليهم فاقتتلوا على فم السكة ، وأمرت عائشة أصحابها فتيامنوا حتى انتهوا إلى مقبرة بني مازن ، وحجز الليل بينهم ، فلما كان اليوم الثاني قصدوا للقتال ، فاقتتلوا قتالًا شديدًا ، إلى أن زال النهار ، وقُتل خلق كثير من أصحاب ابن حنيف وكثرت الجراح في الفريقين ، فلما عضتهم الحرب تداعوا إلى الصلح على أن يكتبوا بينهم كتابًا ويبعثوا رسولًا إلى أهل المدينة يسأل أهلها ، إن كان طلحة والزبير أُكرها على البيعة خرج عثمان ابن حنيف عن البصرة وأخلاها ، وإن لم يكونا أكرها على البيعة خرج طلحة والزبير عنها وأخلوها لهم ، وبعثوا بذلك كعب بن سوار القاضي ، فقدم المدينة يوم الجمعة ،

فقام في الناس فسألهم : هل بايع طلحة والزبير طائعين أو مكرهين ؟ فسكت الناس فلم يتكلم إلا أسامة بن زيد ، فقال : بل كانا مُكرَهَين ، فثار إليه بعض الناس فأرادوا ضربه ، فجاحف دونه صهيب ، وأبو أيوب ، وجماعة حتى خلصوه وقالوا له : أمّا وسعك ما وسعنا من السكوت ؟ فقال : لا والله ما كنت أرى أن الأمر يمتد إلى هذا ، وكتب عَلِيٌّ إلى عثمان بن حنيف يقول له : إنهما لم يُكرها على فرقة ، ولقد أكرها على جماعة وفضل ، فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما ، وإن كانا يريدان غير ذلك نظرا ونظرنا ، وقدم كعب بن سوار على عثمان بكتاب عليٍّ ، فقال عثمان : هذا أمر آخر غير ما كنا فيه . وبعث طلحة والزبير إلى عثمان بن حنيف أن يخرج إليهما فأبى ، فجمعا الرجال في ليلة مظلمة ، وشهدا بهم صلاة العشاء في المسجد الجامع ، ولم يخرج عثمان بن حنيف تلك الليلة ، فصلى بالناس عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ، ووقع من رعاع الناس من أهل البصرة كلام وضرب فقُتل منهم نحو من أربعين رجلًا ، ودخل الناس على عثمان بن حنيف قصره فأخرجوه إلى طلحة والزبير ، ولم يبق في وجهه شعرة إلا نتفوها ، فاستعظما ذلك وبعثا إلى عائشة فأعلماها الخبر ، فأمرت أن تخلى سبيله ، فأطلقوه ، وولوا على بيت المال عبد الرحمن بن أبي بكر ، وقسم طلحة والزبير أموال بيت المال في الناس وفضلوا أهل الطاعة ، وأكب عليهم الناس يأخذون أرزاقهم ، وأخذوا الحرس ، واستبدوا في الأمر بالبصرة ، فحمي لذلك جماعة من قوم قتلة عثمان وأنصارهم ، فركبوا في جيش قريب من ثلثمائة ومقدمهم حكيم بن جبلة ، وهو أحد من باشر قتل عثمان بن عفان ﷺ ، فبارزوا وقاتلوا ، فضرب رجلٌ رِجلَ حكيم بن جبلة فقطعها ، فزحف حتى أخذها وضرب بها ضاربه فقتله ثم اتكأ عليه . فمر عليه رجل وهو متكئ برأسه على ذلك الرجل . فقال له : مَن قتلك ؟ فقال له : وسادتي . ثم مات حكيم قتيلًا هو ونحو من سبعين من قتلة عثمان وأنصارهم أهل المدينة ، فضعف جيش من خالف طلحة والزبير من أهل البصرة ، ويقال : إن أهل البصرة بايعوا طلحة و الزبير ، وندب الزبير ألف فارس يأخذها معه ويتلقى بها عليًا قبل أن يجيء فلم يجبه أحد ، وكتبوا بذلك إلى أهل الشام يبشرونهم بذلك ، وقد كانت هذه الوقعة لخمس ليال بقين من ربيع الآخر سنة ست وثلاثين ، وقد كتبت عائشة إلى زيد بن صوحان تدعوه إلى نصرتها و القيام معها فإن لم يجئ فليكف يده وليلزم منزله ، أن لايكون عليها ولا لها ، فقال : أنا في نصرتك مادمتِ في منزلك ، وأبى أن يطيعها في ذلك ، وقال : رحم الله أم المؤمنين أمرها الله أن تلزم بيتها وأمرنا أن نقاتل ، فخرجت من منزلها ، وأمرتنا بلزوم بيوتنا التي كانت هي أحق بذلك منا ، وكتبت عائشة إلى أهل اليمامة والكوفة بمثل ذلك .

مسير علي بن أبي طالب من المدينة إلى البصرة بدلا من الشام

لما بلغ عليًّا قصد طلحة والزبير البصرة ، خطب الناس وحثهم على المسير إلى البصرة ليمنع أولئك من دخولها إن أمكن ، أو يطردهم عنها إن كانوا قد دخلوها ، فتثاقل عنه أكثر أهل المدينة ، واستجاب له بعضهم ، قال الشعبي : ما نهض معه في هذا الأمر غير ستة نفر من البدريين ، ليس لهم سابع ، وقال غيره : أربعة ، وذكر ابن جرير وغيره قال : كان ممن استجاب له من كبار الصحابة أبو الهيثم بن التيهان ، وأبو قتادة الأنصاري ، وزياد ابن حنظلة ، وخزيمة بن ثابت .

وخرج عَلِيٌّ من المدينة في نحو من تسعمائة مقاتل ، وقد لقي عبد اللَّه ابن سلام عَليًّا وهو بالربذة فأخذ بعنان فرسه وقال : يا أمير المؤمنين ! لا تخرج منها فواللَّه لئن خرجت منها لا يعود إليها سلطان المسلمين أبدًا ، فسبَّه بعض الناس ، فقال عليٌّ : دعوه فنعم الرجل من أصحاب النبي ﷺ .

وأتت جماعة من طيئ وعليٌّ بالربذة ، فقيل له : هؤلاء جماعة جاءوا من طيئ منهم من يريد الخروج معك ومنهم من يريد السلام عليك ، فقال : جزى اللَّه كلًّا خيرًا ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ قالوا : فسار عليٌّ من الربذة على تعبئته وهو راكب ناقة حمراء يقود فرسًا كميتًا (لونه بين السواد والحمرة) .

وجاء رجل من أهل الكوفة يقال له : عامر بن مطر الشيباني ، فقال له علي : ما وراءك ؟ فأخبره الخبر ، فسأله عن أبي موسى ، فقال : إن أردت الصلح فأبو موسى صاحبه ، وإن أردت القتال فليس بصاحبه ، فقال علي : و اللَّه ما أريد إلا الصلح ممن تمرد علينا . وسار ، فلما اقترب من الكوفة وجاءه الخبر بما وقع من الأمر على جليته ، من قتل ومن إخراج عثمان بن حنيف من البصرة ، وأخذهم أموال بيت المال ، جعل يقول : اللهم عافني مما ابتليت به طلحة والزبير ، فلما انتهى إلى ذي قار أتاه عثمان بن جنيف مهشمًا ، وليس في وجهه شعرة فقال : يا أمير المؤمنين بعثتني إلى البصرة وأنا ذو لحية ، وقد جئتك أمردًا ، فقال : أصبت خيرًا وأجرًا . وقال عن طلحة والزبير : اللهم احلل ما عقدا ، ولا تبرم ما أحكما في أنفسهما ،وأرهما المساءة فيما قد عملا - يعني في هذا الأمر - وأقام عَلِيٌّ بذي قار ينتظر جواب ما كتب به مع محمد بن أبي بكر وصاحبه محمد بن جعفر - وكانا قد قدما بكتابه على أبي موسى وقاما في الناس بأمره - فلم يجابا في شيء ، فلما أمسوا دخل أناس من ذوي الحجى على أبي موسى يعرضون عليه الطاعة لعلي ، فقال : كان هذا بالأمس فغضب محمد ومحمد وقالا له قولًا غليظًا فقال لهما : و اللَّه إن بيعة

عثمان لفي عنقي وعنق صاحبكما ، فإن لم يكن بد من قتال فلا نقاتل أحدًا حتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا ومن كانوا ، فانطلقا إلى علي فأخبراه الخبر ، وهو بذي قار ، فقال للأشتر : أنت صاحب أبي موسى و المعرض في كل شيء فاذهب أنت وابن عباس فأصلح ما أفسدت فخرجا فقدما الكوفة وكلما أبا موسى واستعانا عليه بنفر من الكوفة فقام في الناس فقال : أيها الناس : إن أصحاب محمد ﷺ الذين صحبوه أعلم بالله ورسوله ممن لم يصحبه ، وإن لكم علينا حقًّا وأنا مؤدٍّ إليكم نصيحة ، كان الرأي أن لا تستخفوا بسلطان الله وأن لا تجترئوا على أمره ، وهذه فتنةٌ النائم فيها خير من اليقظان ، واليقظان فيها خير من القاعد ، والقاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الراكب ، والراكب خير من الساعي ، فأغمدوا السيوف وانصلوا الأسنة ، واقطعوا الأوتار ، وأْووا المضطهد والمظلوم حتى يلتئم هذا الأمر ، وتنجلي هذه الفتنة ، فرجع ابن عباس و الأشتر إلى عليٍّ فأخبراه الخبر ، فأرسل الحسن ، وعمار بن ياسر ، وقال لعمار : فأصلح ما أفسدت ، فانطلقا حتى دخلا المسجد فكان أول من سلَّم عليهما مسروق بن الأجدع ، فقال لعمار : عَلَامَ قتلتم عثمان ؟ فقال : على شَتْمِ أعراضنا وضرب أبشارنا ، فقال : والله ما عاقبتم بمثل ما عوقبتم به ، ولو صبرتم لكان خيرًا للصابرين . قال : وخرج أبو موسى فلقي الحسن بن علي ، فضمه إليه ، وقال لعمار : يا أبا اليقظان أعَدَوتَ على أمير المؤمنين عثمان فقتلته ، فقال : لم أفعل ولم يسؤني ذلك ، فقطع عليهما الحسن بن علي ، فقال لأبي موسى : لِمَ تثبط الناس عنا ؟ فو الله ما أردنا إلا الإصلاح ، ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء ، فقال : صدقت بأبي وأمي ، ولكن المستشار مُؤتمن ، سمعت النبي ﷺ يقول : « **إنها ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الراكب** » وقد جعلنا الله إخوانًا وحرم علينا دماءنا و أموالنا ، فغضب عمار وسبَّه ، وقال : يا أيها الناس إنما قال له رسول الله ﷺ وحده « **أنت فيها قاعدًا خير منك قائمًا** » ، فغضب رجل من بني تميم لأبي موسى ونال من عمار ، وثار آخرون ، وجعل أبو موسى يكفكف الناس ، وكثر اللغط ، وارتفعت الأصوات ، وقال أبو موسى : أيها الناس ، أطيعوني وكونوا خير قوم من خير أمم العرب ، يأوي إليهم المظلوم ، ويأمن فيهم الخائف ، وإن الفتنة إذا أقبلت شبهت ، وإذا أدبرت تبينت ، ثم أمر الناس بكف أيديهم ولزوم بيوتهم ، فقام زيد بن صَوحان ، فقال : أيها الناس سيروا إلى أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ، سيروا إليه أجمعون ، فقام القعقاع بن عمرو ، فقال : إن الحق ما قاله الأمير ، ولكن لا بد للناس من أمير يردع الظالم ويعدي المظلوم ، وينتظم به شمل الناس ، وأمير المؤمنين عَليٌّ ملي بما ولي ، وقد أنصف بالدعاء ، وإنما يريد الإصلاح فانفروا إليه .

وجعل الناس كلما قام رجل فحرض الناس على النفير يثبطهم أبو موسى من فوق المنبر ، وعمار والحسن معه على المنبر حتى قال له الحسن بن علي : ويحك ! اعتزلنا لا أم لك ، ودع منبرنا ، ويقال أن عليًا بعث الأشتر فعزل أبا موسى عن الكوفة ، وأخرجه من قصر الإمارة من تلك الليلة ، واستجاب الناس للنفير فخرج مع الحسن تسعة آلاف في البر وفي دجلة ، ويقال : سار معه اثنا عشر ألف رجل ورجل واحد ، وقدموا على أمير المؤمنين فتلقاهم بذي قار إلى أثناء الطريق في جماعة . منهم ابن عباس فرحب بهم وقال : يا أهل الكوفة ! أنتم لقيتم ملوك العجم ففضضتم جموعهم ، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة ، فإن يرجعوا فذاك الذي نريده وإن أبو داويناهم بالرفق حتى يبدؤونا بالظلم ، ولا ندعى إلى أمر فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء اللّه تعالى .

فاجتمعوا عنده بذي قار . وكانت عبد القيس بكمالها بين عَلِيٍّ وبين البصرة ينتظرونه وهم ألوف ، وبعث عَلِيٌّ القعقاع رسولًا إلى طلحة والزبير بالبصرة يدعوهما إلى الألفة والجماعة ، ويعظم عليهم الفرقة والاختلاف ، فذهب القعقاع إلى البصرة فبدأ بعائشة أم المؤمنين ، فقال : أي أماه ! ما أقدمك هذا البلد ؟ فقالت : أي بني الإصلاح بين الناس ، فسألها أن تبعث إلى طلحة و الزبير ليحضرا عندها ، فحضرا ، فقال القعقاع : إني سألت أم المؤمنين ، ما أقدمها ؟ فقالت : إنما جئت للإصلاح بين الناس ، فقالا : ونحن كذلك ، قال : فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح ؟ وعلى أي شيء يكون ؟ فو اللّه لئن عرفناه لنصطلحن ، ولئن أنكرناه لا نصطلحن ، قالا : قتلة عثمان ، فإن هذا إن ترك كان تركًا للقرآن ، فقال : قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة ، وأنتما قَبْل قَتْلِهِم أقرب منكم إلى الاستقامة منكم اليوم ، قتلتم ستمائة رجل ، فغضب لهم ستة آلاف ، فاعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم ، وطلبتم حرقوص بن زهير فمنعه ستة آلاف ، فإن تركتموهم وقعتم فيما تقولون ، وإن قتلتموهم فأُديلوا عليكم كان الذي حذِرتم وفرقتم من هذا الأمر أعظم مما أراكم تدفعون و تجمعون منه - يعني أن الذي تريدونه من قتل قتلة عثمان مصلحة ولكنه يترتب عليه مفسدة هي أربى منه -وكما أنكم عجزتم عن الأخذ بثأر عثمان من حرقوص بن زهير ، لقيام ستة آلاف في منعه ممن يريد قتله ، فعليٌّ أعذر في تركه الآن قتلَ قَتَلة عثمان ، وإنما أخر قتل قتلة عثمان إلى أن يتمكن منهم ، فإن الكلمة في الأمصار مختلفة ، ثم أعلمهم أن خلقًا من ربيعة ومضر قد اجتمعوا لحربهم بسبب هذا الأمر الذي وقع . فقالت له عائشة أم المؤمنين : فماذا تقول أنت ؟ قال : أقول : إن هذا الأمر الذي وقع دواؤه التسكين ، فإذا سكن اختلجوا ، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ، وإدراك الثأر ، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر وائتنافه

كانت علامة شر وذهاب هذا الملك ، فآثروا العافية ترزقوها ، وكونوا مفاتيح خير كما كنتم أولًا ، ولا تعرضونا للبلاء فتتعرضوا له ، فيصرعنا الله وإياكم ، وايم الله إني لأقول قولي هذا وأدعوكم إليه ، وإني لخائف أن لايتم حتى يأخذ الله حاجته من هذه الأمة التي قل متاعها ، ونزل بها ما نزل ، فإن هذا الأمر الذي قد حدث أمر عظيم ، وليس كقتل الرجلِ الرجلَ ولا النفرِ النفرَ ، ولا القبيلةِ القبيلةَ ، فقالوا : قد أصبت وأحسنت فارجع ، فإن قدم عَلِيٌّ وهو على مثل رأيك صلح الأمر ، قال : فرجع إلى علي فأخبره فأعجبه ذلك ، وأشرف القوم على الصلح ، كره ذلك من كرهه ورضيه من رضيه ، وأرسلت عائشة إلى علي تعلمه أنها إنما جاءت للصلح ، ففرح هؤلاء وهؤلاء ، وقام علي في الناس خطيبًا فذكر الجاهلية وشقاءها وأعمالها ، وذكر الإسلام وسعادة أهله بالألفة والجماعة ، وأن الله جمعهم بعد نبيه ﷺ على الخليفة أبي بكر الصديق ثم بعده على عمر بن الخطاب ثم على عثمان ، ثم حدث هذا الحدث الذي جرى على الأمة . أقوام طلبوا الدنيا وحسدوا مَن أنعم الله عليه بها ، وعلى الفضيلة التي مَنَّ الله بها ،وأرادوا رد الإسلام والأشياء على أدبارها ، و الله بالغ أمره .ثم قال : ألا إني مرتحل غدًا فارتحلوا ، ولا يرتحل معي أحد أعان على قتل عثمان بشيء من أمور الناس . فلما قال هذا اجتمع من رؤوسهم جماعة كالأشتر النخعي ، وشريح بن أوفى ، وعبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء ، وهو رأس الفتنة وأصل الداء ، وسالم بن ثعلبة ، وغلاب بن الهيثم وغيرهم في ألفين وخمسمائة ، وليس فيهم صحابي - ولله الحمد - فقالوا : ما هذا الرأي - وعليٌّ - والله - أعلمُ بكتاب الله ممن يطلب قتلة عثمان وأقرب إلى العمل بذلك ، وقد قال ما سمعتم غدا يجمع عليكم الناس ، وإنما يريد القوم كلهم أنتم ، فكيف بكم وعددكم قليل في كثرتهم ؟ فقال الأشتر : قد عرفنا رأي طلحة و الزبير فينا ، وأما رأي علي فلم نعرفه إلى اليوم ، فإن كان قد اصطلح معهم فإنما اصطلحوا على دمائنا ، فإن كان الأمر هكذا ألحقنا عليًا بعثمان فرضي القوم منا بالسكوت ، فقال ابن السوداء : بئسما رأيت ، لو قتلناه قُتِلْنا ، فإنا يا معشر قتلة عثمان في ألفين وخمسمائة ، وطلحة والزبير وأصحابهما في خمسة آلاف ، لا طاقة لكم بهم ، وهم إنما يريدونكم ، فقال غلاب بن الهيثم : دعوهم وارجعوا بنا حتى نتعلق ببعض البلاد فنتمتع بها ، فقال ابن السوداء : بئسما قلت ، إذًا والله كان يتخطفكم الناس ، ثم قال ابن السوداء - قبحه الله - : يا قوم إن نُجَحَكُم في خلطة الناس فإذا التقى الناس فأنشبوا الحرب القتال بين الناس، ولا تدعوهم يجتمعون ، فمن أنتم معه لا يجد بدًا من أن يمتنع ، ويشغل الله طلحة والزبير ومن معهما عما يحبون ، ويأتيهم ما يكرهون ، فأبصروا الرأي وتفرقوا عليه .

وأصبح عليٌّ مرتحلًا ومرَّ بعبد القيس فسار ومن معه حتى نزلوا بالزاوية ، وسار منها يريد البصرة ، وسار طلحة والزبير ومن معهما للقائه فاجتمعوا عند قصر عبيد الله بن زياد ، ونزل الناس كُلٌّ في ناحية وقد سبق عليٌّ جيشه وهم يتلاحقون به ، فمكثوا ثلاثة أيام والرسل بينهم ، فكان ذلك للنصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين فأشار بعض الناس على طلحة والزبير بانتهاز الفرصة من قتلة عثمان ، فقالا : إن عليًا أشار بتسكين هذا الأمر ، وقد بعثنا إليه بالمصالحة على ذلك ، وقام عليٌّ في الناس خطيبًا ، فقام إليه الأعور بن نيار المقبري ، فسأله عن إقدامه على أهل البصرة فقال : الإصلاح وإطفاء الثائرة ليجتمع الناس على الخير ويلتئم شمل هذه الأمة ، قال : فإن لم يجيبونا ؟ قال : تركناهم ماتركونا ، قال : فإن لم يتركونا ، قال : دفعناهم عن أنفسنا ، قال : فهل لهم في هذا الأمر مثل الذي لنا ؟ قال : نعم ! وقام إليه أبو سلام الدالاني فقال : هل لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم ، إن كانوا أرادوا الله في ذلك ؟ قال: نعم ! قال : فهل لك من حجةٍ في تأخيرك ذلك ؟ قال : نعم ، قال : فما حالنا وحالهم إن ابتلينا غدًا ؟ قال : إني لأرجو أن لا يُقتل منا ومنهم أحد نقى قلبه لله إلا أدخله الله الجنة ، وقال في خطبته : أيها الناس أمسكوا عن هؤلاء القوم أيديكم وألسنتكم ، وإياكم أن يسبقونا غدًا ، فإن المخصوم غدًا مخصوم اليوم ، وجاء في إبان ذلك الأحنف بن قيس في جماعة فانضاف إلى علي - وكان قد منع حرقوص بن زهير من طلحة والزبير وكان قد بايع عليًا بالمدينة وذلك أنه قدم المدينة وعثمان محصور فسأل عائشة وطلحة والزبير إن قتل عثمان فمن أبايع ؟ فقالوا : بايع عليًا ، فلما قتل عثمان بايع عليًا ، قال : ثم رجعت إلى قومي فجاءني بعد ذلك ماهو أفظع حتى قال الناس : هذه عائشة جاءت لتأخذ بدم عثمان ، فحرت في أمري من أتبع ؟ فمنعني الله بحديث سمعته من أبي بكر قال : قال رسول الله ﷺ وقد بلغه أن الفرس قد ملكوا عليهم ابنة كسرى فقال : « **لن يفلح قوم وَلَّوا أمرهم امرأة** » وأصل هذا الحديث في صحيح البخاري ، و المقصود أن الأحنف لما انحاز إلى علي ومعه ستة آلاف فارس ، فقال لعلي : إن شئت قاتلتُ معك ، وإن شئت كففتُ عنك عشرة آلاف سيف ، فقال : اكفف عنا عشرة آلاف سيف ، ثم بعث عليٌّ إلى طلحة و الزبير يقول : إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفوا حتى ننزل فننظر في هذا الأمر ، فأرسل إليه في جواب رسالته : إنا عَلى ما فارقنا القعقاع بن عمرو من الصلح بين الناس ، فاطمأنت النفوس وسكنت واجتمع كل فريق بأصحابه من الجيشين ، فلما أمسوا بعث عليٌّ عبد الله بن عباس إليهم ، وبعثوا إليه محمد بن طليحة السجاد ، وبات الناس بخير ليلة ، وبات قتلة عثمان بشر ليلة ، وباتوا يتشاورون وأجمعوا على أن يثيروا الحرب

من الغلس ، فنهضوا من قبل طلوع الفجر وهم قريب من ألفي رجل فانصرف كل فريق إلى قراباتهم فهجموا عليهم بالسيوف ، فثارت كل طائفة إلى قومهم ليمنعوهم ، وقام الناس من منامهم إلى السلاح ، فقالوا : طرقتنا أهل الكوفة ليلًا وبيتونا وغدروا بنا ، وظنوا أن هذا عن ملأ من أصحاب علي ، فبلغ الأمر عليًا فقال : ما للناس ؟ فقالوا بيتنا أهل البصرة ، فثار كل فريق إلى سلاحه ولبسوا اللأمة وركبوا الخيل ، ولا يشعر أحد منهم بما وقع الأمر عليه في نفس الأمر ، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا .

وقامت الحرب على ساق وقدم ، وتبارز الفرسان ، وجالت الشجعان فنشبت الحرب ، وتواقف الفريقان وقد اجتمع مع علي عشرون ألفًا ، والتفت على عائشة ومن معها نحو ثلاثين ألفًا ،فإنا لله وإنا إليه راجعون ، و السابئة أصحاب ابن السوداء – قبحه الله – لا يفترون على القتل ، ومنادي علي ينادي : ألا كُفُّوا ألا كفوا ، فلا يسمع أحد ، وجاء كعب بن سوار قاضي البصرة فقال : يا أم المؤمنين أدركي الناس فلعل الله يصلح بك بين الناس ، فجلست في هودجها وستروا الهودج بالدروع ، وجاءت فوقفت بحيث تنظر إلى الناس عند حركاتهم ، فتصاولوا وتجاولوا ، وكان في جملة مَن تبارز الزبير وعمار ، فجعل عمار ينخره بالرمح و الزبير كافٌّ عنه ، ويقول له : أتقتلني يا أبا اليقظان ؟ فيقول : لا يا أبا عبد الله ، وإنما تركه الزبير لقول رسول الله ﷺ : « **تقتلك الفئة الباغية** » ، وإلا فالزبير أقدر عليه منه عليه ، فلهذا كف عنه ، وقد كان من سنتهم في هذا اليوم أنه لا يُجْهَز على جريح ، ولا يتَّبع مدبر ، وقد قُتل مع هذا خلق كثير جدًّا ، حتى جعل علي يقول لابنه الحسن : يابني ليت أباك مات قبل هذا اليوم بعشرين عامًا فقال : يا أبت قد كنت أنهاك عن هذا ، قال : يا بني إني لم أر أن الأمر يبلغ هذا .

وقال مبارك بن فضالة عن الحسن بن أبي بكرة : لما اشتد القتال يوم الجمل ورأى عَلِيٌّ الرؤوس تندر أخذ عَلِيٌّ ابنه الحسن فضمه إلى صدره ثم قال : إنا لله يا حسن ! أيُّ خير يرجى بعد هذا ؟ فلما ركب الجيشان وتراءى الجمعان وطلب عليٌّ طلحة و الزبير ليكلمهما ، فاجتمعوا حتى التفت أعناق خيولهم ، فيقال إنه قال لهما : إني أراكما قد جمعتما خيلًا ورجالًا وعددًا ، فهل أعددتما عذرًا يوم القيامة ؟ فاتقيا الله و لا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثًا ، ألم أكن حاكمًا في دمكما تحرمان دمي وأحرِّم دمكما ، فهل من حديث أَحلَّ لكما دمي ؟ فقال طلحة : أَلَّبْتَ على عثمان . فقال عَلِيٌّ : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ ﴾ ثم قال : لعن الله قتلة عثمان ، ثم قال : يا طلحَةَ ! أجئت بعرس رسول الله ﷺ تقاتل بها ، وخبأت عرسك في البيت ؟ أما بايعتني ؟ قال : بايعتك والسيف على عنقي . وقال للزبير : مأأخرجك ؟ قال : أنت ،

ولا أراك بهذا الأمر أولى به مني . فقال له علي : أما تذكر يوم مررت مع رسول الله ﷺ في بني غنم فنظر إليَّ وضحك وضحكت إليه ، فقلت : لا يدع ابن أبي طالب زهْوَه ، فقال لك رسول الله ﷺ : « **إنه ليس بمتمرد لتقاتلنه وأنت ظالم له** » ؟ . فقال الزبير : اللهم نعم ! ولو ذكرتُ ما سرت مسيري هذا ، ووالله لا أقاتلك .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن قتادة قال : لما ولَّى الزبير يوم الجمل بلغ عليًّا فقال : لو كان ابن صفية يعلم أنه على حق ما ولَّى .

والمقصود : أن الزبير لما رجع يوم الجمل سار فنزل واديًا يقال له : وادي السباع ، فاتبعه رجل يقال له : عمرو بن جرموز ،فجاءه وهو نائم فقتله غيلة ، وأما طلحة فجاءه في المعركة سهم غَرْبٌ يقال : رماه به مروان بن الحكم فالله أعلم ، فانتظم رجله مع فرسه فجمحت به الفرس فجعل يقول : إليَّ عباد الله ، إليَّ عباد الله ، فاتبعه مولى له فأمسكها ، فقال له : ويحك ! اعدل بي إلى البيوت وامتلأ خفه دمًا فقال لغلامه : أردفني وذلك أنه نزفه الدم وضعف ، فركب وراءه وجاء به إلى بيت في البصرة فمات فيه ﷺ .

وتقدمت عائشة ﷺ في هودجها ، وناولت كعب بن سوار قاضي البصرة مصحفًا وقالت : ادعهم إليه – وذلك حين اشتدت الحرب وحمى القتال ، ورجع الزبير ، وقتل طلحة ﷺ – فلما تقدم كعب بن سوار بالمصحف يدعو إليه استقبله مقدمة جيش الكوفيين ، وكان عبد الله بن سبأ – وهو ابن السوداء – وأتباعه بين يدي الجيش ، يقتلون من قدروا عليه من أهل البصرة ، لا يتوقفون في أحد ، فلما رأوا كعب بن سوار رافعًا المصحف رشقوه بنبالهم رشقة رجل واحد فقتلوه ، ووصلت النبال إلى هودج أم المؤمنين عائشة ﷺ ، فجعلت تنادي : الله الله ! يا بَنِيَّ اذكروا يوم الحساب ، ورفعت يديها تدعو على أولئك النفر من قتلة عثمان ، فضج الناس معها بالدعاء حتى بلغت الضجة إلى عليٍّ فقال : ما هذا ؟ فقالوا : أم المؤمنين تدعو على قتلة عثمان وأشياعهم فقال : اللهم العن قتلة عثمان ، وجعل أولئك النفر لا يقلعون عن رشق هودجها بالنبال حتى بقي مثل القنفذ ، وجعلت الحرب تأخذ وتعطي ، فتارة لأهل البصرة ، وتارة لأهل الكوفة ، وقُتل خلق كثير ، وجم غفير ، ولم تُرَ وقعة أكثر من قطع الأيدي والأرجل فيها من هذه الوقعة ، وجعلت عائشة تحرض الناس على أولئك النفر من قتلة عثمان ، ونظرت عن يمينها ، فقالت : مَن هؤلاء القوم ؟ فقالوا : نحن بكر بن وائل ، فقالت : لكم يقول القائل :

وجاؤوا إلينا بالحديد كأنهم ... من الغرة القعساء بكر بن وائل

ثم لجأ إليها بنو ناجية ثم بنو ضبة فقُتل عندها منهم خلق كثير ، ويقال : إنه قطعت يد

سبعين رجلًا وهي آخذة بخطام الجمل ، فكلما قتل واحد ممن يمسك الجمل يقوم غيره حتى قُتل منهم أربعون رجلًا قالت عائشة رضي الله عنها : مازال جملي معتدلًا حتى فقدت أصوات بني ضبة ، ثم أخذ الخطام سبعون رجلًا من قريش وكل واحد منهم يُقتل بعد صاحبه .

وأحدق أهل النجدات والشجاعة بعائشة رضي الله عنها ، فكان لا يأخذ الراية ولا بخطام الجمل إلا شجاع معروف فيقتل من قصده ثم يقتل بعد ذلك ، وقد فقأ بعضهم عين عدي ابن حاتم في ذلك اليوم ، ثم تقدم عبد الله بن الزبير فأخذ بخطام الجمل وهو لا يتكلم فقيل لعائشة رضي الله عنها : إنه ابنك ابن أختك فقالت : و اثكل أسماء ! وجاء مالك بن الحارث وهو الأشتر النخعي فاقتتلا فضربه الأشتر على رأسه فجرحه جرحًا شديدًا ، وضربه عبد الله ضربة خفيفة . ثم اعتنقا وسقطا إلى الأرض يعتركان فجعل عبد الله بن الزبير يقول :

اقتلوني ومالكًا واقتلوا مالكًا معي

فجعل الناس لا يعرفون مالكًا من هو إنما هو معروف بالأشتر فحمل أصحاب عليٍّ وعائشة فخلصوهما وقد جرح عبد الله بن الزبير يوم الجمل بهذه الجراحة سبعًا و ثلاثين جراحة ، وجرح مروان بن الحكم أيضًا ثم جاء رجل فضرب الجمل على قوائمه فعقره وسقط على الأرض . ويقال : إن الذي أشار بعقر الجمل علي رضي الله عنه ، وقيل : القعقاع بن عمرو لئلا تصاب أم المؤمنين رضي الله عنها ، فإنها بقيت عرضة للرماة ، ولما سقط البعير على الأرض انهزم من حوله الناس ، وحُمِلَ هودج عائشة رضي الله عنها وإنه لكالقنفد من السهام ونادى منادي عَليٍّ في الناس : إنه لا يتبع مدبر ، ولا يجهز على جريح ، ولا يدخلوا الدور وأمر علي رضي الله عنه نفرًا أن يحملوا الهودج من بين القتلى ، وأمر محمد بن أبي بكر وعمارًا أن يضربا عليها قبة ، وجاء إليها أخوها محمد فسألها هل وصل إليك شيء من الجراح ؟ فقالت : لا ! وما أنت ذاك يا ابن الخثعمية ، وسلم عليها عمار بن ياسر فقال : كيف أنت يا أم ؟ فقالت : لست لك بأم . قال : بلى ! وإن كرهت ، وجاء إليها علي ابن أبي طالب أمير المؤمنين مُسَلِّمًا فقال : كيف أنت يا أمه ؟ قالت : بخير ، فقال : يغفر الله لك ، وجاء وجوه الناس من الأمراء والأعيان يسلمون على أم المؤمنين رضي الله عنها .

ويقال : إن أعين بن ضبيعة المجاشعي اطلع في الهودج فقالت : إليكَ لعنك الله ، فقال : والله ما أرى إلي حميراء ، فقالت : هتك الله سترك وقطع يدك وأبدى عورتك ، فَقُتِل بالبصرة وسُلِبَ وقُطعت يده ورُمي عريانًا في خربة من خربات الأزد . فلما كان الليل دخلت أم المؤمنين رضي الله عنها البصرة – ومعها أخوها محمد بن أبي بكر – فنزلت في دار عبد الله بن خلف الخزاعي – وهي أعظم دار بالبصرة – على صفية بنت الحارث بن

أبي طلحة بن عبد العزي بن عثمان بن عبد الدار ، وهي أم طلحة الطلحات ، عبد اللّه ابن خلف ، وتسلل الجرحي من بين القتلى فدخلوا البصرة وقد طاف عَلِيٌّ بين القتلى فجعل كلما مرَّ برجل يعرفه ترحم عليه ويقول : يعزُّ عليَّ أن قريشًا صرعى .

وأقام علي ﷺ بظاهر البصرة ثلاثًا ثم صلى على القتلى من الفريقين وخصَّ قريشًا بصلاة من بينهم ، ثم جمع ما وجد لأصحاب عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في المعسكر وأمر به أن يحمل إلى مسجد البصرة فمن عرف شيئًا هو لأهلهم فليأخذه ، إلا سلاحًا كان في الخزائن عليه سمة السلطان. وكان مجموع مَن قُتل يوم الجمل من الفريقين عشرة آلاف ، خمسة آلاف من هؤلاء وخمسة آلاف من هؤلاء ، رحمهم اللّه ورضي اللّه عن الصحابة منهم .

وقد سأل بعض أصحاب علي عليًا ﷺ أن يقسم فيهم أموال أصحاب طلحة و الزبير ، فأبى عليهم فطعن فيه السبئية ، وقالوا : كيف يحل لنا دماؤهم ولاتحل لنا أموالهم ؟ فبلغ ذلك عليًا فقال : أيكم يحب أن تصير أم المؤمنين في سهمه ؟ فسكت القوم ؛ ولهذا لما دخل البصرة فرق في أصحابه أموال بيت المال ، فنال كل رجل منهم خمسمائة ، وقال : لكم مثلها من الشام ، فتكلم فيه السبئية أيضًا ونالوا منه من وراء وراء .

* * *

الأحداث بعد وقعة الجمل

لما فرغ عَلِيٌّ من أمر الجمل أتاه وجوه الناس يسلمون عليه ، فكان ممن جاءه الأحنف ابن قيس في بني سعد – وكانوا قد اعتزلوا القتال – فقال له عَلِيٌّ : تربعت – يعني بنا – فقال : ما كنت أراني إلا قد أحسنت ، وبأمرك كان ما كان يا أمير المؤمنين ، فارفق فإن طريقك الذي سلكت بعيد ، وأنت إليَّ غدًا أحوج منك أمس ، فاعرف إحساني ، واستبق مودتي لغد ، ولا تقل مثل هذا فإني لم أزل لك ناصحًا . قالوا : ثم دخل عليٌّ البصرة يوم الاثنين فبايعه أهلها على راياتهم ، حتى الجرحى والمستأمنة . وجاءه عبد الرحمن ابن أبي بكرة الثقفي فبايعه فقال له عَلِيٌّ : أين المريض ؟ – يعني أباه – فقال : إنه واللّه مريض يا أمير المؤمنين ، وإنه على مسرتك لحريص . فقال : امش أمامي ، فمضى إليه فعاده ، واعتذر إليه أبو بكرة فعذره ، وعرض عليه البصرة فامتنع وقال : رجل من أهلك يسكن إليه الناس ، وأشار عليه بابن عباس فولاه عَلَى البصرة ، وجعل معه زياد بن أبيه على الخراج وبيت المال وأمر ابن عباس أن يسمع من زياد – وكان زياد معتزلًا – ثم جاء عَلِيٌّ إلى الدار التي فيها أم المؤمنين عائشة ، فاستأذن عليها ودخل فسلم عليها ورحبت به ، وإذا النساء في دار بني خلف يبكين على مَن قُتل ،

منهم : عبد اللّه وعثمان ابنا خلف ، فعبد اللّه قتل مع عائشة وعثمان قتل مع علي ، فلما دخل عَلِيٌّ قالت له صفية امرأة عبد اللّه ، أم طلحة الطلحات : أَيتَمَ اللّه منك أولادك ، كما أيتمت أولادي ، فلم يرد عليها عليٌّ شيئًا ، فلما خرج أعادت عليه المقالة أيضًا فسكت ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين أتسكت عن هذه المرأة وهي تقول ما تسمع ؟ فقال : ويحك ! إنا أُمِرْنَا أن نكف عن النساء وهن مشركات ، أفلا نكف عنهن وهن مسلمات ؟ فقال له رجل : يا أمير المؤمنين إن على الباب رجلين ينالان من عائشة ، فأمر عَلِيٌّ القعقاع بن عمرو أن يجلد كلًّا منهما مائة وأن يخرجهما من ثيابهما .

وقد سألت عائشة عمن قُتِلَ معها من المسلمين ومن قُتل من عسكر عَلِي فجعلت كلما ذكر لها واحد منهم ترحمت عليه ودعت له ، ولما أرادت أم المؤمنين عائشة الخروج من البصرة بعث إليها علي ﷺ بكل ما ينبغي من مركب وزاد و متاع ، وغير ذلك ، وَأَذِنَ لمن نجا ممن جاء في الجيش معها أن يرجع إلا أن يحب المقام ، واختار لها أربعين امراة من نساء أهل البصرة المعروفات ، وسَيَّر معها أخاها محمد بن أبي بكر ، فلما كان اليوم الذي ارتحلت فيه جاء عَلِيٌّ فوقف على الباب وحضر الناس وخرجت من الدار في الهودج فودعت الناس ودَعَتْ لهم ، وقالت : يا بني لا يعتب بعضنا على بعض ، إنه واللّه ما كان بيني وبين عَلِيٍّ في القدم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها ، وإنه على معتبتي لمن الأخيار . فقال عَلِيٌّ : صَدَقَت واللّه ما كان بيني وبينها إلا ذاك ، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة ، وسار عَلِيٌّ معها مودعًا ومشيعًا أميالًا ، وسرح بنيه معها بقية ذلك اليوم - وكان يوم السبت مستهل رجب سنة ست و ثلاثين - وقصدت في مسيرها ذلك إلى مكة ، فأقامت بها إلى أن حَجَّت عامها ذلك ثم رجعت إلى المدينة رضي اللّه عنها وأرضاها .

وأما مروان بن الحكم فإنه لما فَرَّ استجار بمالك بن مسمع فأجاره ، وَوَفَى له ، ولهذا كان بنو مروان يكرمون مالكًا ويشرفونه ، ويقال : إنه نزل دار بني خلف ولما خرجت عائشة خرج معها ، فلما سارت هي إلى مكة سار إلى المدينة قالوا : وقد علم مَنْ بين مكة والمدينة والبصرة بالوقعة يوم الوقعة ، وذلك مما كانت النسور تخطفه من الأيدي والأقدام فيسقط منها هنالك ، حتى إن أهل المدينة علموا بذلك يوم الجمل قبل أن تغرب الشمس ، وذلك أن نسرًا مَرَّ بهم ومعه شيء فسقط فإذا هو كَفٌّ فيه خاتم نقشه عبد الرحمن بن عتاب .

هذا ملخص ما ذكره أبو جعفر بن جرير رحمه الله عن أئمة هذا الشأن ، وليس فيما ذكره أهل الأهواء من الشيعة وغيرهم من الأحاديث المختلفة على الصحابة والأخبار الموضوعة التي ينقلونها بما فيها ، وإذا دعوا إلى الحق الواضح أعرضوا عنه وقالوا : لنا أخبارنا ولكم أخباركم ، فنحن حينئذ نقول لهم : سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين . [اهـ البداية والنهاية] .

الدرس المستفاد

مما سبق ندرك أن أكثر الفتن والمصائب و البلايا التي تقع في الأمم إنما يبرمها ويحكيها قلة من ذوي الخبائث و المكر السيئ والدهاء ثم يندسون بين الجهلة والرعاع والدهماء فيوغرون صدورهم ويملئون بالحقد والغيظ نفوسهم ، ويعدونهم بالآراء الخبيثة والأفكار المسمومة حتى إذا وجدوا أن الفتنة قد بلغت مداها وأن الباطل قد غطى على الحق وأشعلوا النار في الهشيم فسقط فيها المذنب والبريء ، والعظيم والضعيف ، ونزل الدمار والهلاك بالجميع ، وتأخرت الأمة عشرات السنين . فنسأل الله اللطف بالمسلمين .

* * *

موقعة صفين

لم تكن واقعة الجمل على شدة هولها وفظاعة أمرها إلا مقدمة لما هو أشد منها هولًا وأفظع أمرًا وهو الحرب في صفين .

انصرف علي ﷺ من البصرة إلى الكوفة فاختار جرير بن عبد الله البجلي ليكون رسولًا إلى معاوية بن أبي سفيان يطلب إليه البيعة فشخص جرير إلى دمشق وأنهى إلى معاوية ما جاء له فماطله واستنظره ، وكان أهل الشام قد آلى رجالهم أن لا يمسوا النساء ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهم ، والشام مجمع أجناد المسلمين ؛ لأنها ثغر عظيم يجاور الأمة الرومية التي لم تزل حافظة لشيء من قوتها ، فكانت الجنود الإسلامية هناك على غاية الاستعداد ، عاشرهم معاوية طويلًا وهو الرجل السياسي المحنَّك ، فامتلك قلوبهم ، وصاروا طوع أمره ، ما أمرهم ائتمروا به ومانهاهم انتهوا عنه ، ومثل تلك القوة العظيمة سهَّلت له أن يرفض بيعة علي ﷺ ويتهمه بالاشتراك في دم عثمان ، أو على الأقل بحماية قاتليه حتى آواهم إلى جيشه ولم يعمل أي عمل في القصاص منهم ، فجاء جرير عليًّا ﷺ وأخبره بما عليه أهل الشام ، فلم ير علي ﷺ إلا المسير والقتال .

خرج علي ﷺ فعسكر بالنخيلة وبلغ معاوية خروجه إليه بنفسه فخرج إليه بأهل الشام ، فأخذ علي ﷺ بجنوده طريق الجزيرة وعبر الفرات من الرقة ، وهناك قدم طلائعه أمامه حتى إذا كان بسور الروم التقوا بطلائع معاوية ، فكانت بين الفريقين مناوشات قليلة ، ثم تحاجزوا ثم تلاحقت جنود علي ومعاوية فعسكرت الطائفتان في سهل صفين وتوافقت الجنود الإسلامية بعضها أمام بعض .

اختار علي ﷺ ثلاثة من رجاله ليذهبوا إلى معاوية يطلبون إليه الطاعة وهم : بشير بن عمرو الأنصاري ، وسعيد بن قيس الهمداني ، وشيث بن ربعي التميمي ، فساروا حتى دخلوا على معاوية فتكلم بشير بن عمرو وقال : يا معاوية إن الدنيا عنك زائلة وإنك راجع إلى الآخرة وإن الله تعالى محاسبك بعملك ، ومجازيك بما قدمت يداك ، وإني أنشدك الله أن لا تفرق جماعة هذه الأمة وتسفك دماءها ، فقال له معاوية : هلَّا أوصيت صاحبك بذلك ؟ فقال : إن صاحبي ليس مثلك . إن صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر في الفضل و الدين والسابقة في الإسلام و القرابة من الرسول ﷺ ، قال : فيقول ماذا ؟ قال : يأمرك بطاعة الله وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق فإنه أسلم لك في دنياك ، وخير لك في عاقبة أمرك .قال معاوية : ونُطلُّ دم عثمان ؟ لا والله لا أفعل ذلك أبدًا ، فقام شيث فقال : يا معاوية إني قد فهمت ما أردت ، إنه والله لا يخفى علينا ما تعني وما تطلب ، وإنك لم تجد شيئًا تستغوي به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم إلا قولك : قتل إمامكم مظلومًا فنحن نطلب بدمه ، فاستجاب لك سفهاء طَغام ، وقد علمنا أن قد أبطأتَ عنه بالنصر وأحببت له القتل لهذه المنزلة التي أصْبَحْتَ تطلب ، ورُبَّ مُتَمَنٍّ أمرًا يحول الله ﷻ دونه بقدرته ، وربما أوتي المتمني أمنيته وفوق أمنيته ، ووالله مالك في واحدة منهما خير ، لئن أخطأت ما ترجو إنك لشر العرب حالًا في ذلك ، ولئن أصبت ما تتمنى لا تصيبه حتى تستحق من ربك صَلي النار ، فاتق الله يا معاوية ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله .

ولم يكن من معاوية جواب على هذه المقالة الشديدة إلا رد شديد ، وأمره إياهم بالانصراف ، فأتوا عليًا ﷺ وأخبروه الخبر ، وكان القوم جميعًا يهابون أن تلتقي جموع الشام بجموع العراق خوفًا من الاستئصال و الهلاك ، فكانت تخرج الفرقة من جيش أهل العراق فتخرج لها مثلها من جيش أهل الشام فيقتتلون وعلى هذه الحال كان شأنهم في ذي الحجة سنة ٣٦ هـ ، فلما أهلَّ المحرم توادع الفريقان إلى انقضائه طمعًا في الصلح واختلفت بينهم الرسل في ذلك ، فبعث علي ﷺ عدي بن حاتم ، ويزيد بن قيس الأرحبي ، وزياد بن حفصة ، وشيث بن رِبْعِيٍّ وهو أحد الرسل في المرة الأولى ، وربما كان حمقه سببًا في عدم النجاح ؟ لأنهم لما دخلوا على معاوية بدأ عدي فقال : إنا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله ﷻ به كلمتنا وأمتنا ويحقن به الدماء ويؤمن به السبل ويصلح به ذات البين ، إن ابن عم سيد المرسلين أفضلنا سابقة وأحسننا في الإسلام أثرًا وقد اجتمع له الناس ، وقد أرشدهم الله تعالى بالذي رأوا ، فلم يبق أحد غيرك وغير من

معك ، فانته يا معاوية ، لا يصيبك اللّه وأصحابَك بيوم الجمل . فقال معاوية : كأنك إنما جئت مهددًا ولم تأت مصلحًا ، هيهات ياعدي كلا واللّه إني لابن حرب ما يقعقع لي بالشنَّان (١) وإنك لمن المجلبين على ابن عفان ، وإنك لمن قتلته وإني لأرجو أن تكون ممن يقتل اللّه . هيهات . يا عدي قد حللت بالساعد الأشد ، فقال شيث وزياد : أتيناك فيما يصلحنا وإياك فأقبلت تضرب لنا الأمثال ، دع ما لا ينتفع به من القول و الفعل وأجبنا فيما يهمنا وإياك نفعه ، وقال يزيد بن قيس : إنا لم نأت إلا لنبلغك ما بعثنا به إليك ولنؤدي عنك ما سمعنا منك ، ونحن على ذلك لن ندع أن ننصح لك ، وأن نذكر ما ظننا أن لنا عليك به حجة ، وأنك راجع به إلى الألفة و الجماعة . إن صاحبنا مَن قد عرفْتَ وعَرَفَ المسلمون فضله و لاأظنه يخفى عليك أن أهل الدين و الفضل لن يعدلوا بعلي ﷺ ، فاتق اللّه يا معاوية ولا تخالف عليًا فإنا - واللّه - ما رأينا رجلًا قط أعمل بالتقوى و لا أزهد في الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلها منه . فقال معاوية : أما بعد فإنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة ، فأما الجماعة التي دعوتم إليها فمعَنا هي ، وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها ، إن صاحبكم قتل خليفتنا وفرَّق جماعتنا وآوى ثأرنا وقتلتنا ، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله فنحن لا نرد ذلك عليه أرأيتم قتلة صاحبنا ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم فليُعِدْهم إلينا فلنقتلهم به ، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة ، فقال له شيث : أيسرك يا معاوية أنك إن مُكِّنت من عمار تقتله ؟ فقال : وما يمنعني من ذلك ؟ واللّه لو أُمكنت من ابن سمية ما قتلته بعثمان ولكن كنت قاتله بنائل مولى عثمان ، فقال شيث : لاتصل إلى عمار حتى تفصل الهام عن كواهل الأقوام ، وتضيق الأرض الفضاء عليك برحبها ، فقال معاوية : إنه لو قد كان ذلك كانت الأرض عليك أضيق ، وبذلك انتهت هذه السفارة التي لم يكن يظن أن تنتهي إلا بمثل ما انتهت إليه ؛ لأنه كان من الضروري أن تكون قاعدة الصلح والدعوة شيئًا في مصلحة كل من الطرفين يتنازل هذا عن شيء ، وهذا عن شيء حتى يكون صلحًا . أما هذه السفارة فقد كانت دعوة كسوابقها مع ما في بعض الداعين من هذه الشدة التي تُفسد القلوب وتباعد ما بينها .

وأرسل معاوية إلى علي ﷺ حبيب بن مسلمة الفهري ، وشرحبيل بن السمط ، ومعن بن يزيد ، والأخنس بن شريق ، فدخلوا عليه فتكلم حبيب فقال : أما بعد : فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهديًا يعمل بكتاب اللّه ، وينيب إلى أمر اللّه ، فاستثقلتم حياته ، واستبطأتم وفاته ، فعدوتم عليه فقتلتموه ، فادفع إلينا قتلة عثمان إن زعمتَ أنك

---

(١) القِرب القديمة ، والمعنى : لا تخيفني الضجة الجوفاء .

لم تقتله نقتلهم به ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم فيولي الناس أمرهم مَن أجمع عليه رأيهم ، فقال له : ما أنت - لا أم لك - والعزل وهذا الأمر ؟ اسكت فإنك لست هناك ولا بأهل له فقام وقال : والله لتريني بحيث تكره ، فقال علي ﷺ : وما أنت ولو أجلبت بخيلك ورجلك لا أبقى الله عليك اذهب فصوِّب وصعد ما بدا لك ، وقال شرحبيل بن السمط : إن كلمتك فلعمري ما كلامي إلا مثل كلام صاحبي قبلُ ، فهل عندك جواب غير الذي أجبت به ؟ فقال علي ﷺ : نعم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر بعثة رسول الله ﷺ وهدايته للناس ثم قبضه الله إليه واستخلف الناس أبا بكر ، وأخلف أبو بكر عمر فأحْسَنَا السيرة وعَدَلَا في الأمة وقد وجدنا عليهما أن توليا علينا ونحن آل رسول الله ﷺ فغفرنا ذلك لهما ، وولي عثمان فعمل أشياء عابها الناس عليه فساروا إليه فقتلوه ، ثم أتاني الناس وأنا معتزلٌ أمورَهم فقالوا لي : بايع فأبيتُ عليهم فقالوا لي : بايع فإن الأمة لا ترضى إلا بك وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس فبايعتهم فلم يرعني الإشقاق رجلين قد بايعاني وخلاف معاوية الذي لم يجعل الله له سابقة في الدين ولاسلف صدق في الإسلام . طليق ابن طليق . حزب من هذه الأحزاب لم يزل لله ولرسوله وللمسلمين عدوًّا هو وأبوه حتى دخلا في الإسلام كارهين ، فلا ينبغي اتباعكم له و انقيادكم معه ، وتَدَعُون آل نبيكم الذي لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحدًا ، ألا وإني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وإماتة الباطل وإحياء معالم الدين ، فقال له شرحبيل : أشهد أن عثمان قتل مظلومًا ، فقال لهما : لا أقول إنه قتل مظلومًا ولا أنه قتل ظالمًا . قالا : فمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلومًا فنحن منه براء . ثم انصرفوا من غير نتيجة وذلك معقول .

لما انسلخ المحرم أمر علي ﷺ من ينادي : ألا إن أمير المؤمنين يقول لكم : إني قد استمهلتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا إليه ، واحتججت عليكم بكتاب الله فدعوتكم إليه فلم تتناهوا عن طغيان ، ولم تجيبوا إلى حق ، وإني قد نبذت إليكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين ، فزع أهل الشام إلى أمرائهم ورؤسائهم وكتَّبوا كتائبهم ، وبات الفريقان يشتغلان بتعبئة الجيوش ، وفي غد ذلك اليوم وهو الأربعاء أول صفر سنة ٣٧ ابتدأت الحرب من غير أن يقف كل من الجمْعَين وجهًا لوجه ؟ بل كلَّ يوم يخرج قائد من هنا وقائد من هناك حتى إذا مضت سبعة أيام قال علي ﷺ لجنده ليلة الأربعاء ثامن صفر : حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بجمعنا ؟ واتفق معهم على ذلك فباتوا يُصلحون أمرهم . وفي ذلك يقول كعب بن جُعَيل التغلبي :

أصبحت الأمة في أمر عجب　　　والملك مجموع غدًا لمن غلب
فقلت قولًا صادقًا غير كذب　　　إن غدًا تهلك أعلام العرب

وفي الصباح زحف علي ﷺ بجنود أهل العراق ، وزحف له معاوية بجنود أهل الشام وذلك يوم مشؤوم لا يزال المسلمون يعدونه شؤمًا من لدن ذلك الحادث إلى الآن .

تناهض الناس ذلك اليوم واقتتلوا قتالًا شديدًا نهارهم كله ثم انصرفوا عند المساء ، وكل غير غالب ثم أعادوا الكرة في غد ذلك اليوم وكانت حملتهم أشد من اليوم الأول ، وقد انكشفت ميمنة أهل العراق وانتهت هزيمتهم إلى علي ﷺ فمشى نحو الميسرة فانكشفت عنه مُضَر في الميسرة وثبتت ربيعة ، ومَرَّ به في ذلك الأشتر النخعي فقال له علي ﷺ : ائت هؤلاء القوم فقل لهم : أين فراركم من الموت ، فلما هب إليهم الأشتر وهيج الناس لخوض الغمرات تابعوه وكروا معه ، فأخذ لا يعمد لكتيبة إلا كشفها ، ولا لجمع إلا حازه ورده ، ولم يزل حتى كشف هذه الجموع المهاجمة وألحقهم بصفوف معاوية بين العصرِ و المغرب ، ولم يزل الأشتر في هجمته حتى وصل إلى حرس معاوية ، وكان معاوية يقول : أردت في هذا الوقت أن أنهزم فذكرت قول ابن الإطنابة :

أبت لي عفتي وأبى بلائي　　　وإقدامي على البطل المشيح
وإعطائي على المكروه مالي　　　وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وقولي كلما جشأت وجاشت　　　مكانِك تُحمدي أو تستريحي

فمنعني هذا القول من الفرار . وفي هذا اليوم قتُل عمار بن ياسر .

ولما أمسى المساء على الفريقين لم ينفصلا بل استمر القتال شديدًا طول الليل ويسمون هذه الليلة « **الهرير** » يشبهونها بليلة القادسية ، حتى إذا أصبحت عليهم صبح يوم الجمعة أخذ الأشتر يزحف بالميمنة ويقاتل بها ويهيج الناس بقوله ، وعلي ﷺ عنه يُمده بالرجال لما رأى من ظفره ، وبينما هم في الشدة الشديدة إذا بالمصاحف قد رُفعت على رؤوس الرماح من قِبَل أهل الشام وقائل يقول : هذا كتاب الله ﷻ بيننا وبينكم ، من لثغور الشام بعد أهل الشام ؟ من لثغور العراق بعد أهل العراق ؟ فلما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة ، قالوا : نجيب إلى كتاب الله ، فقال لهم علي ﷺ : يا عباد الله ، امضوا على حقكم وصدقكم فإن معاوية ، وعمرو بن العاص ، وابن أبي معيط ، وحبيب بن مسلمة ، وابن أبي سرح ، والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف بهم منكم قد صَحِبْتُهُم أطفالًا وصَحِبْتُهُمْ رجالًا فكانوا شر أطفال وشر رجال ، ويحكم إنهم ما رفعوها ، ثم لا يرفعونها ولا يعلمون بما فيها ، وما رفعوها لكم

إلا خديعة ودهاء ومكيدة ، فقالوا : ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب اللّٰه ﷻ ألا نقبله ، وقال مسعر بن فدكي التميمي وأشباه له من القراء : أجب إلى كتاب اللّٰه إذا دعيت إليه ، وإلا ندفعك برمتك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان ، إنه علينا أن نعمل بما في كتاب اللّٰه ﷻ واللّٰه لتفعلنها أو لنفعلنها بك . ثم طلبوا منه أن يبعث إلى الأشتر ليترك القتال ، فأرسل إليه رسولًا ، فقال الأشتر للرسول : ليست هذه الساعة التي ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقفي ، إني قد رجوت أن يفتح لي فلا تعجلني فرجع الرسول بالخبر ، فما انتهى إليه حتى ارتفع الرهج وعلت الأصوات من قبل الأشتر ، فقال له القوم : واللّٰه ما نراك إلا أمرته أن يقاتل ثم قالوا : ابعث إليه فليأتك وإلا واللّٰه اعتزلناك ، فقال للرسول : ويحك قل للأشتر : أقبل فإن الفتنة قد وقعت ، فلم يسعه إلا المجيء وترك ساحة الحرب .

ثم أرسل الأشعث بن قيس ليسأل معاوية عما يريده، فلما ذهب إليه قال له معاوية: نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر اللّٰه في كتابه تبعثون منكم رجلًا ترضونه . ونبعث منا رجلًا ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب اللّٰه لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه فقال له الأشعث : هذا الحق ثم رجع إلى علي ؓ فأخبره فقال الناس : رضينا وقبلنا . فقال أهل الشام : قد اخترنا عمرو بن العاص ، فقال الأشعث ومن تابعه : وإنا قد رضينا أبا موسى الأشعري ، فقال علي ؓ : قد عصيتموني في أول الأمر فلا تعصوني الآن ، وبين لهم تخوفه من أبي موسى ، لأنه كان يُخَذِّل الناس عنه ، فأبوا إلا إياه ، فاضطر علي ؓ للسير على ما رأوا .

* * *

عقد التحكيم

كتب الفريقان بينهما عقد التحكيم وهذه صورته : بسم اللّٰه الرحمن الرحيم : هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان قاضي عَلِي على الكوفة ومن معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين . وقاضي معاوية على أهل الشام ومن كان معه من المؤمنين والمسلمين ، إنا ننزل عند حكم اللّٰه ﷻ وكتابه ولا يجمع بيننا غيره، وإن كتاب اللّٰه ﷻ بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيي ما أحيا ونميت ما أمات ؟ فما وجد الحكمان في كتاب اللّٰه ﷻ - وهما : أبو موسى الأشعري عبد اللّٰه بن قيس ، وعمرو بن العاص القرشي - عملا به ، وما لم يجدا في كتاب اللّٰه ﷻ فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة ،

وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين العهود والمواثيق . والثقة من الناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما ، والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه . وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد اللّٰه وميثاقه أنا على ما في هذه الصحيفة ، وأنه قد أوجبت قضيتهما على المسلمين أن يسود الأمنُ والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم وشاهدهم و غائبهم . وعلى عبد اللّٰه بن قيس وعمرو بن العاص عهد اللّٰه وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولايراداها في حرب ولافرقة .

وأجلا القضاء إلى رمضان ، وإن أحبَّا أن يؤخرا ذلك أخراه على تراض منهما ،وإن توفي أحد الحكمين فإن أمير الشيعة يختار مكانه ، ولايألو من أهل المعدلة والقسط ، وإن مكان قضيتهما الذي يقضيان فيه مكانُ عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام ، وإن رضيا وأحبا فلا يحضرهما فيه إلا من أرادا ، ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود ، ثم يكتبان شهادتهما على ما في هذه الصحيفة ، وهم أنصار على من ترك هذه الصحيفة وأراد فيه إلحادًا وظلمًا (اللهم إنا نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة) . ويلي ذلك أسماء الشهود من الطرفين (١٥ صفر سنة ٣٧ هـ) .

وبهذا العقد انتهت وقعة صفين التي قتل فيه من شجعان المسلمين وأنجادهم تسعون ألفًا وهو عدد لم يذهب مثله ولاقريب منه في جميع الوقائع الإسلامية من لدن رسول اللّٰه ﷺ إلى تاريخها ، ولولا أن عضتهم الحرب ولفحتهم نيران السلاح لاستؤصلت البقية الباقية وضاعت الثغور .

ومما يزيد الأسف أن هذه الحرب لم يكن المراد منها الوصول إلى تقرير مبدأ ديني أو رفع حيف حل بالأمة ، وإنما كانت لنصرة شخص على شخص . فشيعة عليٍّ تنصره ، لأنه ابن عم رسول اللّٰه ﷺ وأحق الناس بولاية الأمر ، وشيعة معاوية تنصره لأنه ولي عثمان وأحق الناس بطلب دمه المسفوك ظلمًا ، ولا يرون أنه ينبغي لهم مبايعة من آوى إليه قتلته .

* * *

نتائج التحكيم

بعد أن كتبت شروط الصلح عاد معاوية بجنده إلى دمشق أما جند علي ﷺ فإن الأشعث بن قيس خرج بكتاب الصلح يقرؤه على الناس ويعرضه عليهم يقرؤونه حتى مرَّ به على طائفة من بني تميم فيهم عروة بن أدية – وهو أخو أبي بلال – فقرأه عليهم فقال عروة : أتُحكِّمون في أمر اللّٰه الرجال ؟ لا حكم إلا للّٰه ثم شد بسيفه فضرب به عجز

دابته ضربة خفيفة فغضب للأشعث قومه من اليمن فمشى رؤساء بني تميم فتنصلوا إليه واعتذروا فقبل وصفح ثم عاد الجيش يريد الكوفة .

روى الطبري عن عمارة بن ربيعة قال : خرجوا مع علي إلى صفِّين وهم متوادون أحباء فرجعوا متباغضين أعداء . ما برحوا من عسكرهم بصفين حتى فشا فيهم التحكيم ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ، ويضطربون بالسياط . يقول الخوارج : يا أعداء اللَّه أدهنتم في أمر اللَّه وحكمتم ؟ .

وقال الآخرون : فارقتم إمامنا وفرقتم جماعتنا ، فلما دخل عَلِيٌّ الكوفة لم يدخلوا معه حتى أتوا حروراء فنزل بها منهم اثنا عشر ألفًا ونادى مناديهم : إن أمير القتال شيث بن ربعي التميمي وهذا كان رسول عليّ إلى معاوية وكان يتوقح في خطابه ويعجب من معاوية كيف لم يبايع عليًا وهو سيد المسلمين وابن عم سيد المرسلين إلى آخر ما قال ، وأمير الصلاة عبد اللَّه بن الكواء اليشكري ، والأمر شورى بعد الفتح و البيعة للَّه ﷻ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

فبعث إليهم عَلِيٌّ عبد اللَّه بن عباس وقال له : لا تعجل في جوابهم وخصومتهم حتى آتيك ، فخرج إليهم ابن عباس فأقبلوا عليه يكلمونه فلم يصبر عليهم ، بل قال : ما نقمتم من الحكمين وقد قال اللَّه ﷻ : ﴿ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ ﴾ فكيف بأمة محمد ﷺ ؟ فقالوا له : أما ما جعل حكمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له فهو إليهم كما أمر به ، وأما ما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه : حَكَمَ في الزاني مائة جلدة وفي السارق بقطع يده ، فليس للعباد أن ينظروا في هذا ، قال ابن عباس : فإن اللَّه ﷻ يقول : ﴿ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾ ، فقالوا له : أو تجعل الحكم في الصيد والحدث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين ؟ وقالوا : إن هذه الآية بيننا وبينك ، أعدل عندك ابن العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا ؟ فإن كان عدلًا فلسنا بعدول ونحن أهل حربه ، وقد حكّمتم في أمر اللَّه الرجال ، وقد أمضى اللَّه حكمه في معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا ، وقبل ذلك دعوناهم إلى كتاب اللَّه فأبوه ، ثم كتبتم بينكم وبينه كتابًا وجعلتم بينكم وبينه الموادعة و الاستفاضة ، وقد قطع اللَّه ﷻ الموادعة والاستفاضة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت ﴿ بَرَآءَةٞ ﴾ إلا من أقر بالجزية ، ثم جاء عليٌّ فوجد قومًا ابن عباس يخاصمهم ، فقال له : انته عن كلامهم ألم أنهك ؟ .

ثم سألهم ما أخرجكم علينا ؟ قالوا : حكومتكم يوم صفين ، فقال : أنشدكم اللَّه ألست قد نهيتكم عن قبول التحكيم فرددتم عَلَيَّ رأيي ؟ ولما أبيتم إلا ذلك اشترطتم على

الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن وأن يميتا ما أمات القرآن ، فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكمًا يحكم بما في القرآن وإن أبيا فنحن من حكمهما براء .

قالوا له : فخبِّرنا أتراه عدلًا تحكيم الرجال في الدماء ؟ فقال : إنا لسنا حكَّمنا الرجال إنما حكمنا القرآن ، وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق إنما يتكلم به الرجال .

قالوا : فخبرنا عن الأجل لم جعلته فيما بينك وبينهم ؟ قال : ليعلم الجاهل ويتثبت العالم ، ولعل الله ﷻ يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة ، ادخلوا مصركم رحمكم الله .

والخوارج يدَّعون أنهم قالوا : إن التحكيم كان منا كفرًا وقد تبنا إلى الله فتب كما تبنا نبايعك وإلا فنحن مخالفون ، فبايعهم عليٌّ وقال : ادخلوا فلنمكث ستة أشهر حتى يجبى المال ويسمن الكراع ثم نخرج إلى عدونا ، فدخلوا على ذلك .

وتوضيح نظرية هؤلاء القوم أن عليًا كان إمامًا بويع بيعة صحيحة فمن امتنع عن بيعته فهو مرتكب جريمة العصيان والبغي وهم يرون أن مرتكب الكبيرة كافر ، فإذًا يكون معاوية بغى على الإمام العدل وحارب الله ورسوله ، وحينئذ يكون له ولقومه حدٌّ مقرر في القرآن و الحدود المقررة لا معنى للتحكيم فيها لأنه تغيير للمشروع أن نقضي بخلافه .

ولما كان معاوية ومن معه يستحقون في نظرهم هذه العقوبة نصًا فاللين معهم ومهادنتهم مداهنة في دين الله وتحكيم للرجال فيما لا حكم فيه إلا لله .

وهذا في نظرهم جريمة وفاعلها ضال والضال لا يصلح لخلافة المسلمين فلا خلافة لعلي ولا حرمة لمن اتبعه فلهم أن يقاتلوهم وهم في نظرهم كجند معاوية سواء بسواء . فانظروا كيف وصل هؤلاء الناس إلى نتيجةٍ بعضُ مقدماتها باطل ، فلا عجب أن تكون هي أيضًا باطلة .

أماكون جريمة العصيان ومحاربة الله والرسول لها حد مقرر في كتاب الله فذلك صحيح وأما كون معاوية ومن معه بغاة فذلك شيء يحتاج إلى النظر ، فإن ادعى أن له شُبهًا في نفس إمامة الإمام علي : أهي منعقدة أم لم تنعقد ؟ فهذا يصح فيه التحكيم ، وليس تحكيمًا للرجال في دين الله وإنما هو تحكيم في صحة وصف ينبني عليه حكم ، فإن القاضي الذي ترفع إليه قضية سرقة لا يطلب منه الاجتهاد في أن السارق تقطع يده أو لا تقطع وإنما يطلب منه الاجتهاد في معرفة أهذا سارق أم غير سارق ؟ فإذا تثبتت له الصفة وجب عليه حتمًا أن يحكم بقطع اليد . فإن قالوا : إن التحكيم من عليٍّ شك في إمامته والشاك لا يجوز له أن يسفك الدماء للمطالبة بأمر مشكوك في صحته كان هذا باطلًا أيضًا ؛ لأن صاحب الحق كثيرًا ما يتأكد أن الحق له . فإذا رأى من خصمه إنكارًا

أو تمسكًا بشبه فإنه لا طريق أمامه إلا أن يرفع الأمر لقاضٍ أو محكَّمَين يكون حكمهما قاطعًا لنزاع خصمه ، وعلى الجملة فإن هذه الفئة الجديدة قد بنت أمرها على مقدمات لم تنضج فزادوا الطين بِلَّة ، وبعد أن كنا أمام فرقتين صرنا أمام ثلاث فرق يستحل بعضها دماء بعض ، وصار لعلي عَدُوَّانِ .

والمتتبع لأحوال الخوارج ومقاماتهم في حروبهم يتأكد أنهم مخدوعون بما ظهر حتى صار عندهم حقيقة من الحقائق التي لا ينكرها إلا غاو في نظرهم ، وإلا فكيف يؤول فعلهم ؟ كانوا بالأمس يرون في عليٍّ أنه أفضل المسلمين وأعلمهم وأفقههم في الدين ، واليوم يباينونه هذه المباينة ويرون أنه ضل في التحكيم ولم يعد يستحق أن يكون خليفة وأن كل من تابعه بعيد عن طريق الرشاد .

* * *

اجتماع الحكمين

اجتمع الحكمان وبحثا فيما جاءا لأجله وهو إصلاح ما بين الناس فتكلم عمرو ، قال : ألست تعلم أن عثمان قُتل مظلومًا ؟ قال أبو موسى : أشهد - قال عمرو : ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه ؟ قال : بلى .قال عمرو : فإن الله يقول : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الإسراء: ٣٣] . فما يمنعك من معاوية وَلِيِّ عثمان يا أبا موسى وبيته في قريش كما علمت ؟ فإن تخوفت أن يقول الناس : وُلِّيَ معاوية وليست له سابقة ، فإن لك بذلك حجة تقول : وَلِيُّ عثمان الخليفة المظلوم والمطالب بدمه . وهو حسن السياسة حسن التدبير ، وأخو أم حبيبة زوج رسول الله ﷺ ، وقد صحبه فهو أحد الصحابة ، ثم عرض له بالسلطان بقوله : إن وُلِّيَ أكرمك كرامة لم يُكْرِمْها خليفة .

فقال أبو موسى : يا عمرو اتق الله ، فأما ما ذكرت من شرف معاوية فإن هذا ليس على الشرف يولاه أهله ، ولو كان على الشرف لكان هذا الأمر لآل أبرهة بن الصباح ، إنما هو لأهل الدين والفضل مع أني لو كنت معطيه أفضل قريش لأعطيته علي بن أبي طالب ، وأما قولك : إن معاوية ولى دم عثمان فولِّه هذا الأمر فإني لم أكن لأوليه معاوية وأدع المهاجرين الأولين . وأما تعريضك لي بالسلطان فو الله لو خرج لي من سلطانه كله ما وُلِّيته ، وماكنت لأرتشي في حكم الله ﷻ ،ولكن إن شئت بايعنا ابن عمر بن

الخطاب . فقال عمرو : إن كنت تحب بيعة ابن عمر فما يمنعك من ابني وأنت تعرف فضله وصلاحه ؟ ، فقال : إن ابنك رجل صدق ، ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة .

وهذه المناقشة تدل على أنهما قد اتفقا على خلع المتنازعين واختلفا فيمن يخلفهما وحينئذ اتفقا أن يكون الأمر شورى بين الناس يولون من رضوا ، ولم يبق إلا إعلام الناس بما اتفقا عليه فخرجا ، وكان عمرو يُقَدِّم أبا موسى في كل كلام فتقدم أبو موسى فحمد اللّٰه وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع عليه رأيي ورأي عمرو وهو أن نخلع عليًّا ومعاوية وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم وإني قد خلعت عليًّا ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلًا ثم تنحى .

وأقبل عمرو فقام فحمد اللّٰه وأثنى عليه وقال : إن هذا قال ما قد سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولي عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه فتنابزوا .

ويروي المسعودي أنهما لم يحصل منهما خطبة وإنما كتبا صحيفة فيها خلع علي ومعاوية وأن المسلمين يولون عليهم من أحبوا . وهذا القول أقرب في نظرنا إلى المعقول ، وإن لهج كثير من المؤرخين بذكر الأول ؛ لأن هذه الخطبة على فرض حصولها وأن الخديعة تمت على أبي موسى لم تكن لتفيد معاوية شيئًا ؟ لأن الذي ثبَّته إنما هو حَكَمُه والذي يلزم الأمة بمقتضى الصحيفة إنما هو ما اجتمعا عليه لا ما رضي به أحد الحكمين ، ولم ينقل أحد أن أبا موسى رضي في خطابه ببيعة معاوية .

ومن الوقت الذي جرى فيه عقد التحكيم وعُيِّنَ الحكمان يشعر الإنسان بأنه لا يؤدي إلى نتيجة ؛ لأن أبا موسى كما يظهر من ماضيه رجل يكره الفتن و يحب للمسلمين السلامة ويتمنى لو وصل إلى ما يريد من أي طريق يسلكه ، وقرينه يميل إلىمعاوية ويحب تأييده وتثبيت خلافته ، وهو مع ذلك رجل عرف الدنيا وجالس الملوك فلا يهمه إلا أن يصل إلى مقصوده مهما استعمل في سبيل ذلك من الخدع ، ومثل هذين لا يتفقان .

لم يكن علي ليرضى بهذا الحكم الذي تأكد أنه مخالف للكتاب و السنة اللذين عهد إلى الحكمين أن يحكما بهما ، ورضي به معاوية طبعًا ؛ لأن أقل ما في الحكم أن ليس الأمر لعلي وصار الأمر للناس يولون من شاؤوا وعنده جند عظيم يختارونه ولا يفضلون عليه أحدًا فزادت آماله في أن يكون خليفة للمسلمين .

رأى عَلِيٌّ أنه لا بد من معاودة الكرة إلى معاوية وأصحابه ، ولكن حدث معاودة

الخوارج لخروجهم ، فإنه لما أراد أن يبعث أبا موسى كره الخوارج ذلك ؛ لأنهم كانوا يظنون أن عليًا وافقهم على كراهة التحكيم ورؤيته ضلالة وجاءه إنسان فقال له : إن الناس قد تحدثوا أنك رجعت لهم عن كفرك ، فخطب الناس في صلاة الظهر فذكر أمر الخوارج فعابه ، فوثبوا من نواحي المسجد يقولون : لا حكم إلا الله ، وعليٌّ يقول : كلمة حق أُريد بها باطل .

وعند ذلك اجتمعت الخوارج في منزل عبد الله بن وهب الراسبي فخطبهم خطبة حثهم فيها على الخروج وقال في آخر خطابه : فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كُوَرِ هذه البلاد أو إلى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضلة .

ثم أرادوا أن يولوا أمرهم رجلًا فعرضوا الولاية على المتميزين منهم فكلهم يأباها ثم عرضوها على عبد الله بن وهب ، فقال : هاتوها ، أما و الله لا آخذها رغبة في الدنيا ولا أدعها فَرَقًا من الموت . فبايعوه لعشر خلون من شوال ثم اتفقوا أن يخرجوا وحدانًا مستخفين حتى يجتمعوا في جسر النهروان ، وكتب ابن وهب للخوارج من أهل البصرة يخبرهم بما تم عليه الأمر .

ولما خرجت الخوارج جاءت شيعة علي إليه فبايعوه وقالوا : نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت ، فخطب علي في أهل الكوفة فقال : الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح و الحدث الجليل وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله أما بعد :

فإن المعصية تورث الحسرة وتُعقِب الندم ، وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة أمري ، ونَخَلتكم رأيي لو كان لقصير أمر ، ولكن أبيتم إلا ما أردتم فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوزان :

أمرتهم أمري بِمُنْعَرَجِ اللوى	فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى	مكان الهدى أو أنني غير مهتد
وهل أنا إلا من غَزِيَّة إن غَوَت	غويت وإن تُرْشَد غزية أُرشدِ

ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا القرآن وراء ظهورهما وأحييا ما أمات ، واتبع كل منهما هواه لغير هدى من الله ، حَكَمَا بغير حجة بينة ولا سنة ماضية واختلفا في حكمهما وكلاهما لم يرشد فبرئ الله منهما ورسوله وصالحو المؤمنين . استعدوا وتأهبوا للمسير إلى الشام ، وأصبحوا في معسكركم إن شاء الله يوم الاثنين ، وكتب إلى الخوارج يدعوهم إلى المجيء لحرب أهل الشام ، فكتبوا إليه (أما بعد : فإنك لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك فإن شهدت على نفسك بالكفر

واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك ، وإلا فقد نابذناك على سواء ، إن اللّه لا يحب الخائنين) فلما قرأ كتابهم أيس منهم وأراد أن يدعهم ويسير إلى الشام ، فخرج حتى عسكر بالنخيلة ، ومن هناك كتب إلى ابن عباس يأمره أن يرسل إليه جند البصرة وإلى أمير المدائن يأمره أن يرسل إليه جندها فاجتمع عنده نحو سبعين ألف جندي . وهناك بلغه أن الناس يقولون : لو سار بنا إلى هذه الحرورية فبدأنا بهم فإذا فرغنا منهم توجهنا إلى الشام ؟ فقام فيهم خطيبًا وبيّنَ لهم أن قتال أهل الشام أهم فتنادى الناس : يا أمير المؤمنين سِرْ بنا إلى ما أحببت .

وبلغ عليًا وهو في مقامه بالنخيلة أن الخوارج اعترضوا الناس وقتلوا منهم ، فأرسل رسولًا ليعلم جلية الخبر فقتلوه ، ولما جاءه ذلك الخبر قال الناس : يا أمير المؤمنين علام تدع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في أموالنا و عيالنا ؟ سِرْ بنا إلى القوم فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم سِرْنَا إلى عدونا من أهل الشام فَلم يجد بُدًّا من موافقتهم ، ونادى بالرحيل فَلما وصلهم أرسل إليهم أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم نقتلهم بهم ثم أنا تارككم وكافٌّ عنكم حتى ألقى أهل الشام ، فلعل اللّه يُقَلِّب قلوبكم ويردكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم ، فبعثوا إليه : كلنا قتلهم وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم ، ولم تنجع فيهم تلك الخطب الرائعة والوصايا العظيمة التي نطق بها وهم يسمعون ، فرفع راية مع أبي أيوب الأنصاري ونادى : مَن جاء هذه الراية منكم ممن لم يَقْتُل ولم يعترض فهو آمن ، ومن انصرف إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن ، إنه لا حاجة لنا بعدَ أن نُصيب قتلة إخواننا منكم في سفك دمائكم ، فانصرف منهم جمع وخرج إلى عَلِيٍّ جمع وبقي مع ابن وهب ألفان وثمانمائة من أربعة آلاف ، فقامت رحى الحرب بين الفريقين ، وانتهت في ذلك اليوم بقتل ابن وهب ومعظم من معه ووجدوا من جرحاهم نحوًا من (٤٠٠) فأمر بهم عَلِيّ فدفعوا إلى عشائرهم ، وقال : احملوهم معكم فداووهم فإذا برؤوا فخذوهم معكم إلى الكوفة ، ولما تم لعلي الظفر قال للناس : توجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم فقالوا : يا أمير المؤمنين : نفدت نبالنا وكَلَّت سيوفنا وفُصِلت أسنة رماحنا ، فارجع بنا إلى مصرنا فلنستعد بأحسن عدتنا ، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عِدَّة مَن هلك منا فإنه أوفى لنا على عدونا . فلما نزل النخيلة أمَر الناسَ أن يلزموا عسكرهم ويوطنوا على الجهاد أنفسهم وأن يقلوا زيارة نسائهم وأبنائهم حتى يسيروا إلى عدوهم فأقاموا هناك أيامًا ثم تسللوا من معسكرهم فدخلوا إلّا رجالًا من وجوه الناس قليلًا ، وتركوا المعسكر خاليًا فلما رأى ذلك دخل الكوفة وانكسر عليه رأيه في المسير ، وبعد أيام دعا رؤساءهم ووجوههم فسألهم عن رأيهم ،

وما الذي ينظرهم ؟ فمنهم المعتل ، ومنهم المكره ، وأقلهم من نشط : وهو في كل يوم يلقي عليهم من خطبه الشديدة يحثهم ويستنهضهم فلا يفيد ذلك شيئًا ، وفضلوا الدعة على تلك الحروب المستطيرة التي كادت تستأصلهم .

وهذه كانت حال أهل العراق مع إمامهم . أما حال أهل الشام مع إمامهم فكانت على العكس من ذلك . جند مطيع ، وقلوب متحدة ، وفي هذا كفاية لمن يريد العظائم ، ولذلك كان شأنه دائمًا في علو ، إضافة إلى ما كان يستعين به من الحيل .

* * *

استيلاء معاوية على مصر

كان مما يهم معاوية أن يستولي على مصر ؟ فإنها متاخمة له وهي مورد رزق عظيم للجنود ، فأعمل لذلك الرأي ونجح .

كان محمد بن أبي حذيفة بمصر حين مقتل عثمان فضبطها و استولى عليها و افترق عليه أهل مصر ، فلما تم الأمر لعلي ولى عليها قيس بن سعد بن عبادة ، وهو من عظماء شيعته وكانت ولايته في بدء سنة (٣٦ هـ) وكان رجلًا سياسيًا بالأمور ، فاستقامت له الأمور بمصر إلا أن فرقة من المصريين اعتزلت بقرية خِرْبِتا ، وقد أعظموا قتل عثمان ، وكان عليهم مَسْلَمَةُ بن مخلد الأنصاري ، فبعث إليهم قيس : إني لا أكرهكم على البيعة ، وأنا أدعكم وأكف عنكم ، وكان أثقل شيء على معاوية وجود قيس بمصر مخافة أن يزحف عَلِيٌّ بأهل العراق ويزحف عليه سعد بأهل مصر فيقع بينهما ، فكاتبه معاوية ومَنَّاه ، فلما جاءه كتابه أحب أن يدافعه ولا يبدي له أمره ولا يتعجل حربه ، فكتب إليه كتابًا لا يستبين مراده منه إلا أنه قال : أنا كافٌّ عنك ولن يأتيك من قِبَلي شيء تكرهه . فلما قرأ معاوية كتابه لم يأمن أن يكون ذلك مكايدة فكتب له كتابًا آخر يطلب منه التصريح برأيه ، ولما رأى قيس أن معاوية لا يقبل منه المدافعة و المماطلة أظهر له ذات نفسه وكتب له كتابًا جعله ييئس منه ، فاستنبط معاوية وجه الحيلة في إخراجه عن مصر ، فقال لأهل الشام : لا تسبوا قيس بن سعد ولا تدعوا إلى غزوه فإنه لنا شيعة يأتينا كيِّسُ نصيحته سرًّا ، ألا ترون ما يفعل بإخوانكم الذين عنده بِخربتا ؟ يجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ، ويؤمن سربهم ، ويحسن إلى كل راكب قدم عليه منكم ، لا يستنكرونه في شيء ، وكانت لعلي جواسيس بالشام ، فبعثوا إليه الخبر فاتهم قيسًا وكتب إليه يأمره بقتال أهل خربتا وهم يومئذ عشرة آلاف ، فأبى قيس أن يقاتلهم وكتب إلى علي : إنهم وجوه أهل

مصر وأشرافهم وأهل الحفاظ منهم ، وقد رضوا مني أن أؤمن سربهم وأجري عليهم أرزاقهم وأعطياتهم ، وقد علمت أن هواهم مع معاوية فلست مكايدهم بأمر أهون عَلَيَّ وعليك من الذي أفعل بهم ، ولو أني غزوتهم كانوا لي قِرنًا وهم أسود العرب فذرني فأنا أعلم بما أداري منهم .. فأبى عليٌّ إلا قتالهم ، وأبى قيس أن يقاتلهم وكتب إليه إن كنت تتهمني فاعزلني عن عملك وابعث إليه غيري ، فعزله وولى على مصر محمد بن أبي بكر ، فلم يلبث شهرًا حتى كتب إلى أولئك المعتزلين يخيرهم بين أمرين ، الدخول في طاعته ، أو الخروج من مصر ، فبعثوا إليه إنا لا نفعل دعنا حتى ننظر إلى ما تصير إليه أمورنا ولا تعجل بحربنا ، فأبى عليهم فامتنعوا منه وأخذوا حذرهم ، حتى كانت وقعة صفين بين علي ومعاوية وهم له هائبون فلما أتاهم خبر معاوية ومن معه من أهل الشام وأن عليًا ومن معه رجعوا عن أهل الشام اجترؤوا على محمد بن أبي بكر ، وأظهروا له المبارزة ، فأرسل إليهم سريتين الواحدة تلو الأخرى ، وكان نصيب كلتيهما الهزيمة ، وحينئذ اضطرب أمر مصر فلما بلغ ذلك عليًا قال : ما لمصر إلا أحد رجلين صاحبنا الذي عزلناه عنها ، أو مالك بن الحارث الأشتر ، وكان قد استعمله على الجزيرة فكتب إليه بعد التحكيم فاستقدمه وولاه مصر وكتب إليه عهدًا معدودًا من أحسن ما كتب في العالم . والظاهر أن هذا العهد قد كتب بعد ذلك بأزمان .

فلم يصل الأشتر إلى مصر بل مات بالقُلْزَم ، ويقال إنه سُمَّ في شربة عسل بحيلة من معاوية ، فكتب عليٌّ إلى محمد بن أبي بكر : أما بعد فقد بلغني موجدتك من تسريحي الأشتر إلى عملك ، وإني لم أفعل ذلك استبطاء لك في الجهاد ولا ازديادًا مني لك في الجد ، ولو نزعت ما تحت يدك من سلطانك لوليتك فيما هو أيسر عليك في المؤونة وأعجب إليك ولاية منه . إن الرجل الذي كنت قد وليته مصر كان لنا نصيحًا ، وعلى عدونا شديدًا ، وقد استكمل أيامه ولاقى حمامه ، ونحن عنه راضون فرضي اللّٰه عنه ، وضاعف له الثواب ، وأحسن له المآب ، اصبر لعدوك ، وشمر للحرب ، وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأكثر ذكر اللّٰه والاستعانة به و الخوف منه يكفك ما أهمك ويعنك على ما ولاك ، أعاننا اللّٰه وإياك على ما ينال إلا برحمته .

كان معاوية في ذلك الوقت قد قوي بنتيجة التحكيم وبايعه أهل الشام بالخلافة فلم يكن له هم إلا مصر فرأى أن يستعين بمن بها ممن ساءهم قتل عثمان ، فكتب إلى مَسْلَمَة ابن مخلد ، ومعاوية بن خديج يقويهما ويمنيها ، فكتبا إليه بخبر من معهما وأنهم ممتنعون ، وأن ابن أبي بكر هائج لهم ، وطلبا المدد ،فجهز إلى مصر عمرو بن العاص في

ستة آلاف رجل ، فأقبل حتى نزل أدنى أرض مصر ، فاجتمعت عليه العثمانية ، وكتب إلى ابن أبي بكر : أما بعد . فتنح عني بدمك يا ابن أبي بكر ، فإني لا أحب أن يصيبك مني ظفر ، إن الناس في هذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك ، وندموا على اتباعك فهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان ، فاخرج منها فإني لك من الناصحين . فكتب محمد إلى عليٍّ يُعلمه بذلك ويطلب منه مددًا .

وأقبل ابن العاص مريدًا مصر فخرج إليه محمد في ألفي رجل يقدمهم كنانة بن بشير فلم يحتملوا هجمة الجنود الشامية ومن مالأهم من جنود مصر فقتل من قتل ، وفر الباقون واختفى محمد بن أبي بكر ، فأقبل عمرو حتى نزل الفسطاط وخرج معاوية بن خديج يطلب محمدًا حتى ظفر به فقتله ويقال إنه أحرقه بالنار بعد ذلك في جثة حمار ، أما عليٌّ فلم ينجح في إخراج الجنود لإغاثة مصر بعد شدة حيث انْتُدِب له ألفان ولكنهم لم يسيروا إلا قليلًا حتى بلغ عليًا ما كان ، فأرسل إليهم مَن ردهم من الطريق وحزن كثيرًا على ابن أبي بكر .

وكانت مصر لمعاوية قوة كبيرة ولم يكفه الاستيلاءُ عليها ؛ بل رأى أن يجهز البعوث لأطراف عَليٍّ ينتقصها فأرسل النعمان بن بشير إلى عين التمر وبها مالك بن كعب مَسْلحةٌ لعلي ، فكتب إلى علي يستمده .

فأمر الناس أن ينهضوا إليه فتثاقلوا ، فخطب فيهم هذه الخطبة :

يا أهل الكوفة كلما سمعتم بمنسر من مناسر أهل الشام أظلكم انحجر كل امرئ منكم في بيته وأغلق بابه انحجار الضب في جحره ، والضبع في وِجارها . المغرور مَن غررتموه ، ومن فاز منكم فاز بالسهم الأخيب ، لا أحرار عند النداء ، ولا إخوان ثقة عند النجاء ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، ماذا منيت بكم ؟ عُمْيٌ لا تبصرون ، وبُكْمٌ لا تنطقون ، وَصُمٌّ لا تسمعون ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

ووجه معاوية بن أبي سفيان ابنَ عوف في ستة آلاف للإغارة على هيت والأنبار والمدائن ، فسار حتى أتى هيت فلم يجد بها أحدًا ، ثم أتى الأنبار وبها مسلحة لعلي فغلبهم على أمرهم ، واحتملوا ما بها من الأموال وعادوا إلى معاوية ، فخرج عليٌّ في طلبهم فلم يلحقهم .

ووجه عبد الله بن مسعدة إلى تيماء وأمره أن يصالح من مَرَّ به من أهل البوادي وأن يقتل من امتنع ثم يأتي مكة و المدينة فوجه له عليٌّ جيشًا يقدمه المسيب بن نجية الفزاري فلحق ابن مسعدة بتيماء فاقتتلوا قتالًا شديدًا وانتهى الأمر بأن سهل لهم المسيب طريق

الفرار ولم يلحقهم فاتهم بالغش .

ووجه الضحاك بن قيس للإغارة على بوادي البصرة فأغار عليها .

ووجه بُسر بن أرطاة في ثلاثة آلاف إلى الحجاز و اليمن فسار حتى أتى المدينة وامتلكها وبايع أهلها لمعاوية ، ثم أتى مكة فبايع أهلها كذلك ، ثم ذهب إلى اليمن وكان واليها عبيد اللّه بن عباس لعليٍّ ، فلما علم بمسير بُسر إليه فرَّ إلى الكوفة حتى أتى عليًا واستخلف على صنعاء ، فجاء بسر واستولى على اليمن وقتل ابنين صغيرين لعبيد اللّه وكان بسر متعسفًا أسرف في قتل من رآه من شيعة علي .

هكذا كانت الحال في تلك الأزمنة الثقيلة التي كانت إلى الفوضى أقرب .

ومن أغرب ما يروى أن ابن عباس وهو الساعد الأشد لعلي فارقه وترك البصرة التي كان قد ولاه عليها ، وجاء مكة لأن عليا اتهمه بمال أخذه من مال المسلمين .

* * *

مقتل علي ﷺ

اجتمع ثلاثة نفر من الخوارج وهم : عبد الرحمن بن ملجم ، والبرَك بن عبد اللّه ، وعمرو بن بكير التميمي فتذاكروا أمر الناس وعابوا ولاتهم ثم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم وقالوا : مانصنع بالبقاء بعدهم شيئًا ، إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم والذين كانوا لا يخافون في اللّه لومة لائم ، فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فَأَرَحْنَا منهم البلاد وثأرنا بهم لإخواننا .

فقال ابن ملجم : أنا أكفيكم علي بن أبي طالب ، **وقال البرك** : أنا أكفيكم معاوية ، **وقال عمرو بن بكر** : وأنا أكفيكم عمرو بن العاص ، تعاهدوا وتواثقوا باللّه لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه فأخذوا أسيافهم فسموها واتعدوا لخمس عشرة تخلو من رمضان سنة (٤٠ هـ) أن يثب كلٌّ على صاحبه الذي توجه إليه ، وأقبل كل رجل منهم على المصر الذي فيه صاحبه .

فأما ابن ملجم : وكان عداده في كندة فخرج حتى أتى الكوفة ، ولم يخبر مَنْ بها مِنْ إخوانه شيئًا كراهة أن يظهر ، وكان بالكوفة من تيم الرباب عشرة وفيهم امرأة يقال لها قطام ابنة الشجنة قَتَلَ عَلِيٌّ أباها وأخاها يوم النهر ، وكانت فائقة الجمال ، فلما رآها أذهلته عما جاء له فخطبها ، فقالت : لا أتزوجك حتى تشفي لي . قال : وما يشفيك ؟ قالت : ثلاثة آلاف وعبد ، وقينة (جارية مغنية) وقَتْل علي بن أبي طالب

قال : هو لك مهر ، أما علي فلم أرك ذكرتيه لي وأنت تريدينني قالت : بل التمس غرته فإن أَصَبْت شفيت نفسك ونفسي وتهنأ بالعيش معي وإن قُتِلْتَ فما عند الله خير وأبقى من الدنيا وزينتها وزينة أهلها ، فقال لها : و الله ما جئت هذا المصر إلا لذلك ثم اختارت له مساعدًا من قومها واختار هو مساعدًا آخر ، ولما كانت ليلة الجمعة ١٥ رمضان سنة (٤٠) ترصدوا له حتى خرج يريد صلاة الصبح ، فضربه ابن ملجم في قرنه بالسيف وهو ينادي : الحكم لله لا لك ولا لأصحابك . ففزع الذين كانوا بالمسجد للصلاة ، وعليٌ يقول : لايفوتنكم الرجل ، فشد عليه الناس من كل جانب وأخذوه ، ودخل الناس على عَلِيٍّ ، فقالوا له : إن فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن ؟ فقال : ما آمركم . أنتم أبصر . ثم أوصى أولاده ، وفي يوم الأحد ١٧ رمضان توفي بعد أن مضى على خلافته أربع سنين وتسعة أشهر إلا أيامًا قضاها في هذا العناء وشدة الجهد ودفن بالكوفة التي كانت حاضرة خلافته .

أما البرك بن عبد الله : فإنه قعد لمعاوية في ذلك اليوم الذي ضرب فيه علي فلما خرج معاوية شد عليه بالسيف فوقع السيف في أليته ودُووِي من الضربة وأمر عند ذلك بعمل المقصورة وحرس الليل وقيام الشرط على رأسه إذا سجد .

وأما عمرو بن بكر : فجلس لعمرو بن العاص في تلك الليلة فلم يخرج ؛ لأنه كان شاكيًا (مريضًا) وصلى بدله خارجة بن حذافة ، وكان صاحب شرطته ، فشد عليه الخارجي فقتله وهو يظن أنه عمرو فقالوا : أراد عمرًا وأراد الله خارجة .

* * *

الحسن بن علي رضي الله عنهما

كان من رأي جند عليٍّ أن يبايعوا الحسن بن علي بالخلافة بعد قتل أبيه ، ولكن الرجل نظر إلى الظروف التي هو فيها نظرة صائبة ، وجد جندًا لا يركن إليه ، وخصمًا قوي الشكيمة ، وفوق ذلك كان يكره الفتن ، ويحب للمسلمين الألفة ، فلم ير خيرًا لنفسه ولا لأمته من أن يتنازل لمعاوية وصالحه على شروط رضيها الطرفان وكتب إلى معاوية ببيعته ، وسلم إليه الكوفة في أواخر ربيع الأول سنة (٤١ هـ) ، وبذلك تم ما قاله رسول الله ﷺ : « **إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين** » . وهدأت الأحوال وسمى المسلمون ذلك العام وهو السنة الحادية والأربعون من الهجرة عام الجماعة . [اهـ تاريخ الأمم الإسلامية للخضري] .

الخاتمة

الحمد لله ولي المتقين ، وناصر المؤمنين ، وخاذل الجبارين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يعز من يشاء ويذل من يشاء ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين . وبعد : فقد تم – بفضل الله ونعمته – ما أردت تسطيره عن الخلفاء الأربعة الراشدين ، فأرجو أن ينال رضى إخواني المسلمين ، وأن يفيد منه كل حريص على سلوك سبيل المؤمنين ، واتباع منهج الصديقين الراشدين ، والبعد عن المنحرفين و المضللين المفسدين .

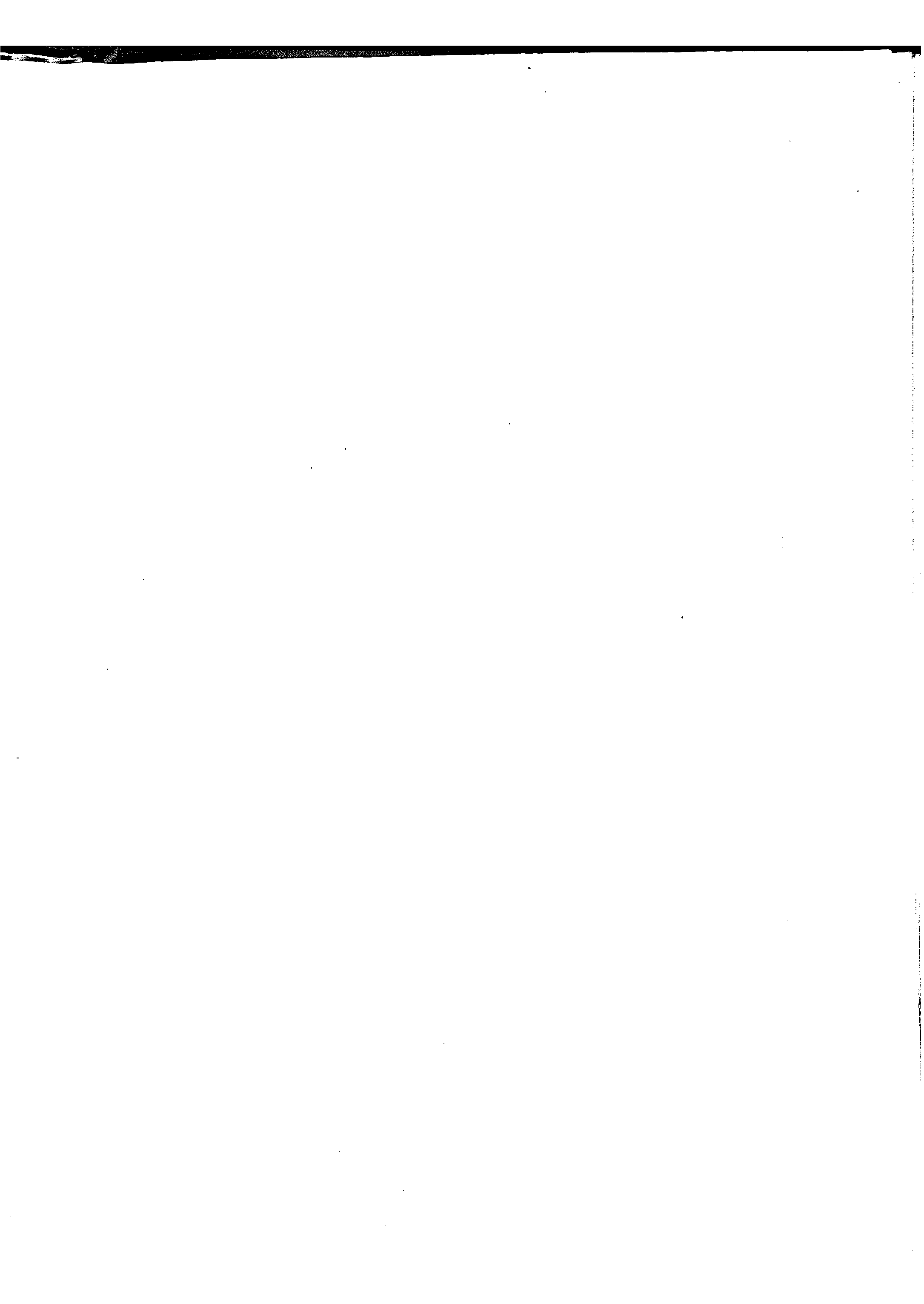
وقد جمعت فيه ما ورد من الأحاديث والآثار والوقائع الصحيحة والأعمال الجليلة التي قامت بها هذه الصفوة المختارة ، و الطائفة الممتازة ؟ ليدرك القارئ أن هؤلاء الذين استضاؤوا بأنوار كتاب الله ، واتبعوا في جميع أفعالهم خطوات وإرشادات رسول الله ﷺ ، وزهدوا في الدنيا وهي طوع أمرهم ، وجعلوها خلفهم وهي في غاية الزينة والفتنة من أجل أن تشغلهم بها وركلوها بأقدامهم وهي راكعة ذليلة أمامهم ، أنهم اهتدوا فزادهم الله هدى ، واندفعوا إلى نور الله فجعله الله من بين أيديهم ومن خلفهم ، وباعوا أنفسهم لله ، فأعطاهم الله نصره وتأييده ورضاه ، نسأل الله تعالى أن يهدينا بهداهم ، وأن يمنحنا رضاه كما منحهم ، وأن يختم لنا بالإيمان والإسلام والإحسان كما ختم لهم ، إنه تعالى سميع قريب مجيب . آمين

حسن أيوب




الفهرس



الفهرس

رقم الإيداع

2002/14769

الترقيم الدولي I.S.B.N

977-342-081-7



التعريف بالمؤلف

هو : حسن محمد أيوب من علماء الأزهر الشريف ، تخرج في كلية أصول الدين جامعة الأزهر الشريف سنة ١٩٤٩ م ، وعمل بعد تخرجه مدرسًا بوزارة التربية والتعليم ، ثم موجهًا بوزارة الأوقاف ، ثم مديرًا للمكتب الفني بها . انتقل بعد ذلك للعمل بدولة الكويت كواعظ وخبير ومؤلف . ثم انتقل للعمل في المملكة العربية السعودية فَعُيِّنَ أستاذًا في الثقافة الإسلامية بجامعة الملك عبد العزيز . ثم أستاذًا بمعهد إعداد الدعاة بمكة المكرمة ، وله تآليف كثيرة ، وقد أَعَدَّ - بتوفيق اللّه - الموسوعة الإسلامية الميسرة لتكون سهلة الأسلوب ، مدعومة بالأدلة الصحيحة ، بعيدة عن التعقيدات الفقهية ، يظهر فيها جمال الإسلام وكماله ، فتتناول العقائد والعبادات والمعاملات المالية والأحوال الشخصية من زواج وطلاق وفقه وغير ذلك ، وكذلك علوم القرآن والسنة وأصول الفقه وفقه الدعوة وقصص الأنبياء والخلفاء الراشدين وسيرة الرسول ﷺ والحضارة الإسلامية والأخلاق والتربية وقصص الأطفال وأعلام الصحابة ورياضة الشباب وفُضْلَيات النساء وغير ذلك مما يحتاجه المسلم المعاصر .

وتشمل هذه الموسوعة التي نبدأ في تقديمها إليك سلسلة من الكتب وهي :

- فقه العبادات بأدلتها في الإسلام
- فقه الحج والعمرة
- فقه الأسرة المسلمة
- الحديث في علوم القرآن والحديث
- السلوك الاجتماعي في الإسلام
- الفقه الشامل
- فقه الجهاد في الإسلام
- فقه المعاملات المالية
- الخلفاء الراشدون
- تبسيط العقائد الإسلامية
- رحلة الخلود
- قصص الأنبياء

واللّهَ نسأل أن يجعلها خالصةً لوجهه الكريم نافعة لكل مسلم ومسلمة .





(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم . . السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته . .

نشكر لك اقتناءك كتابنا : « الخلفاء الراشدون » ورغبة منَّا في تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ ، وباعتبار أن رأيك مهمٌّ بالنسبة لنا ، فيسعدنا أن ترسل إلينا دائمًا بملاحظاتك ؛ لكي ندفع سويًا مسيرتنا إلى الأمام ويعود النفع على القارئ والدار .

*** فهيَّا مارس دورك في توجيه دفة النشر باستيفائك للبيانات التالية :-**

الاسم كاملًا : .... **الوظيفة :** ....

المؤهل الدراسي : .... **السن :** ....

الدولة : .... المدينة : .... حي : .... شارع : ....

ص.ب : .... تليفون : .... / .... e-mail :

– من أين عرفت هذا الكتاب ؟

□ أثناء زيارة المكتبة □ ترشيح من صديق □ مقرر □ إعلان □ معرض

– من أين اشتريت الكتاب ؟

اسم المكتبة أو المعرض : .... المدينة .... العنوان ....

– ما رأيك في عملنا في الكتاب ؟

□ عادي □ جيد □ ممتاز (لطفًا وضح لِمَ) ....

– ما رأيك في إخراج الكتاب ؟

□ عادي □ جيد □ متميز (لطفًا وضح لِمَ) ....

– ما رأيك في سعر الكتاب ؟

□ رخيص □ معقول □ مرتفع (لطفًا وضح لِمَ) ....

عزيزي انطلاقًا من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطوير وباعتبارك من قرائنا فنحن نرحب بملاحظاتك النافعة . . . فلا تتوانَ ودَوِّن ما يجول في خاطرك : -

....

....

....

....

دعوة : نحن نرحب بكل عمل جاد يخدم العربية وعلومها والتراث وما يتفرع منه ، والكتب المترجمة عن العربية للغات العالمية – الرئيسية منها خاصة – وكذلك كتب الأطفال

عزيزي القارئ أعد إلينا هذا الحوار المكتوب على ص.ب ١٦١ الغورية – القاهرة لنراسلك ونزودك ببيان الجديد من إصداراتنا

(من أجل تواصل بنَّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم :

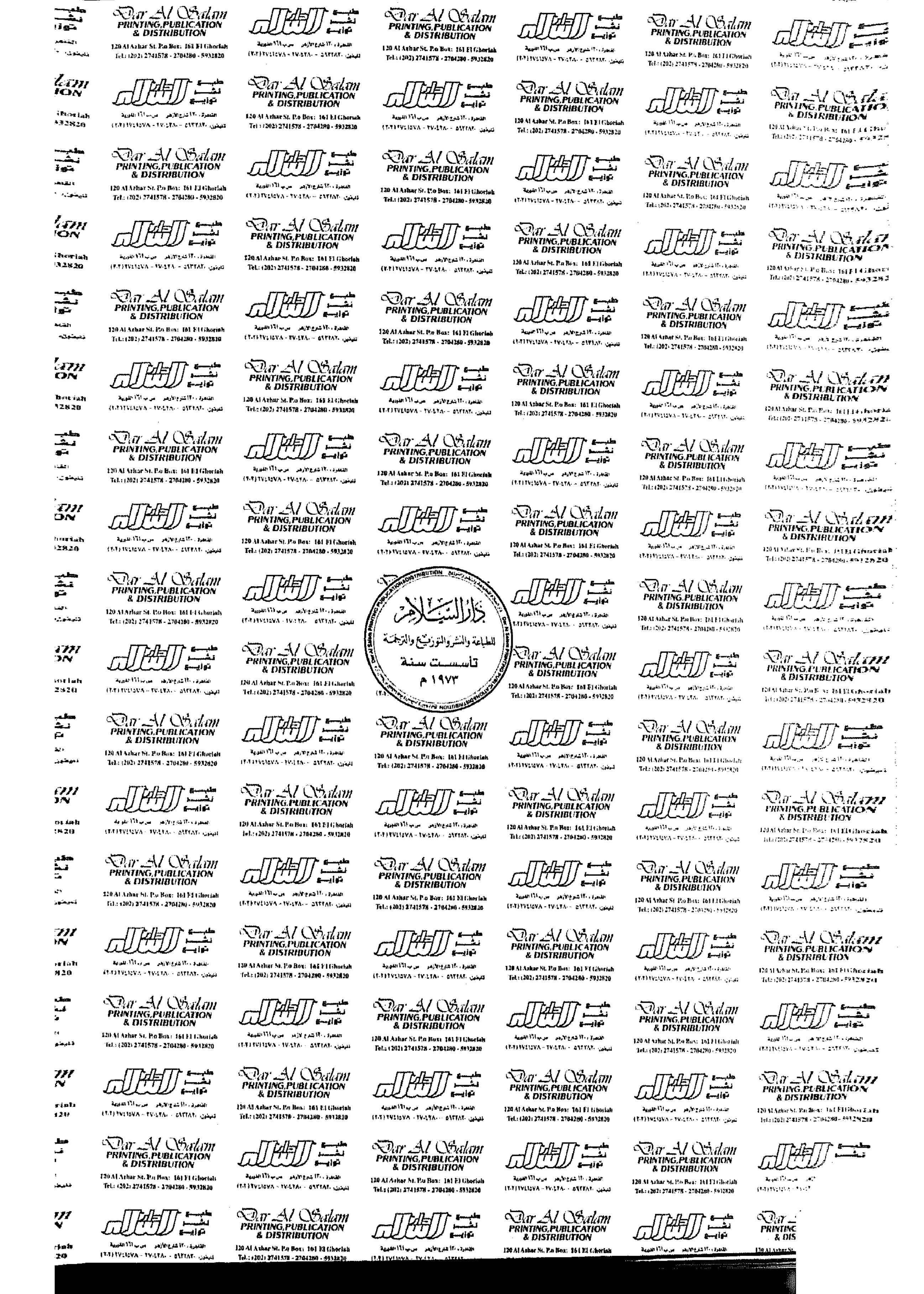
نشكرك على اقتنائك كتابنا هذا ، الذي بذلنا فيه جهدًا نحسبه ممتازًا ، كي نخرجه على الصورة التي نرضاها لكتبنا ، فدائمًا نحاول جهدنا في إخراج كتبنا بنهج دقيق متقن ، وفي مراجعة الكتاب مراجعة دقيقة على ثلاث مراجعات قبل دفعه للطباعة ، ويشاء العلي القدير الكامل أن يثبت للإنسان عجزه وضعفه أمام قدرته مهما أوتي الإنسان من العلم والخبرة والدقة تصديقًا لقوله تعالى :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء : ٢٨)

فأخي العزيز إن ظهر لك خطأ مطبعي أثناء قراءتك للكتاب فلا تتوان في أن تسجله في هذا النموذج وترسله لنا فنتداركه في الطبعات اللاحقة ، وبهذا تكون قد شاركت معنا بجهد مشكور يتضافر مع جهدنا جميعًا في سيرنا نحو الأفضل .

الخطأ	رقم الصفحة	السطر
....	....	....
....	....	....
....	....	....
....	....	....
....	....	....
....	....	....
....	....	....
....	....	....

شاكرين لكم حسن تعاونكم . . ،



Dar Al Salam
PRINTING, PUBLICATION & DISTRIBUTION
120 Al Azhar St. P.o Box: 161 El Ghoriah
Tel.: (202) 2741578 - 2704280 - 5932820
دار السلام
طباعة
نشر
توزيع
دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
تأسست سنة
١٩٧٣ م


Dar Al Salam
PRINTING, PUBLICATION & DISTRIBUTION
120 Al Azhar St. Po Box: 161 El Ghoriah
Tel.: (202) 2741578 - 2704280 - 5932820
جائزة أفضل ناشر للتراث



كتاب جامع لسير وأخلاق وأعمال وأفضال خير نخبة مشت على الأرض بعد الأنبياء والمرسلين . وأثنى الله عليهم في كتابه. وشهد لهم النبي ﷺ بالمكانة الممتازة. والقيادة الحكيمة . والمكانة السامية.

للمؤلف من إصدارات دار السلام

- السلوك الاجتماعي في الإسلام
- فقه الجهاد في الإسلام
- الفقه الشامل
- فقه الأسرة المسلمة
- فقه الحج والعمرة
- فقه المعاملات المالية
- رحلة الخلود
- تبسيط العقائد الإسلامية
- قصص الأنبياء
- الحديث في علوم القرآن والحديث



الناشر
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع
١٢٠ شارع الأزهر ص.ب ١٦١ الغورية ت: ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ - ٥٩٣٢٨٢٠ فاكس: ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)
e-mail: info@dar-alsalam.com
http://www.dar-alsalam.com